عبد السلام حيمر

خطاطيف باب منصور



رواية

أفريقيا الشرق

خطاطيف
بــاب منصــور

تأليف : عبد السلام حيمر
عنوان الكتاب
خطاطيف باب منصور
رواية
رقم الإيداع القانوني : 2002/0913
ردمك : 9981-25-272-7
أفريقيا الشرق ــ المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور ــ الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 022 - 13 98 25 022 ــ فاكس : 20 29 25 022 - 80 00 44 022
البريد الإلكتروني : E-Mail : afriqueorient@iam.net.ma
أفريقيا الشرق ــ بيروت ــ لبنان

عبد السلام حيمر

خطاطيف باب منصور

رواية

أفريقيا الشرق

الديبـــاجـة

ـ1ـ

حبات عرق فضيّة نزَتْ من مسامٍّ وجهه المتجعِّد الأسمر، تراتيلٌ وأذكارٌ وابتهالات، نُواحُ عود، عربدة دربكة، وأبخرة قزحيّة نشرتْ سجوفَها المسعورة في البواباتِ العتيقة والدّروبِ الضيِّقةِ الملتويّةِ والصوامعِ والجدرانِ والأضرحة.

ــــ «الله دايم!»

تقطرت حبات العرق من جبينه منسابة على شعيرات لحيته المشتعلة. وتدحرجت على الثرى. تحسس بأصابعه الطويلة أطراف جسده المتناسق المتحد بالصخر والرمل والكبريت والماء والبحر... و... الطبيعة. تململ مذعورا كمن يحاول الإفلات من قيد. ارتعد جسده الممتد على الأرض، تلوى في ضوء القمر، انكمش وامتد متميزا عن الصخر والرمل، انتصب واقفا، انفجر شاطحا تحت المطر. تنفس الهواء صائحا:

ــــ «الله دايم!».

كانت الريح تعبث بذيول سلهامه البني المنسوج من شعيرات ماعز الأطلس، وكان جلبابه الكباردي الازرق ملتصقا بجلده ينضح بالعرق، وكان نصف وجهه المتجعد الأسمر منهمكا في حوار حميمي مع القمر، في حين كان النصف الآخر تائها في حلكة الليل.

انقطع المطر، خفتت أصوات التراتيل والأذكار، وتباعدت نغمات العود. وأصبح وحيدا يواجه ذاته، يواجه جسده، يواجه وجوده وكينونته. راوده حنين جارف إلى العودة إلى الأصل البارد هناك في رحم الصخر والطين والرمل والماء، لكنه أدرك في أعماقه تيارا جارفا لا يقاوَم، يدفعه إلى السمو والحركة والفعل والسيطرة والسيادة. فمادام يحس بجسده متميزا عن العالم المحيط به، ومادام قادرا على إحاطة الأشياء ببصره، وامتلاكها بعقله وخياله

ووجدانه، فإنه يستحيل أن يعود مرة أخرى إلى القيد والضرورة إلا إذا... أصبح هو الآخر يبابا، خواء، عدما..

«أنا لست الآخر، وهذا أمر بديهي بداهة ألا أكون هذا الأصطبل العتيق ولا هذا الجدار السامق الذي أطل من أعاليه على البركة الفسيحة: صهريج السواني لكن مع ذلك من أنا؟».

احتار في أمره وأحس بغصة في حلقه، و بملح العرق في عينيه، تعرف على السطح والمطل والإسطبل وصهريج السواني، وأدرك أنه موجود في مكناسة الزيتون، وأنه وحيد، وأن وجوده ناقص، فارغ، لا سحر فيه ولا معنى ولا دلالة. جلس على حافة سور الإسطبل المطل على الصهريج، عبث الريح بشعره، عبث القلق بكيانه، مسح العرق من محجريه، وزاغت نظراته بين صفحة الماء وتموجات البخار الداكنة اللانهائية. حاول مرارا أن يسترجع في ذاكرته ما قد يكون راسبا في نفسه من ذكريات وأفكار، لكنه لم يكن يصادف في كل مرة إلا البياض. كثيرا ما كان البياض مرتبطا بالكفن والعمى، وبالوجود والرؤية والمعرفة، في آن واحد.

«البياض صمت، والبياض لغة، والبياض مطلق، والبياض وجود، البياض معرفة في ثوب النكرة. البياض هو ما أنا عليه الآن. أنا المعلق بين السماء والارض على جدار الإسطبل المطل في شموخ على مرآة صهريج السواني. أنا العاجز عن القراءة والتأويل والتذكر. أنا الناقص في الكينونة والوجود. أنا الذي لا تحدني حدود... حدود المعنى والدلالة».

تَذكَّرَ عنترةَ العبسي وهو يجول ويصول في ساحة الوغى صائحا في وجه أعدائه «أنا الفارس المغوار، أنا الصارم البتار، أنا الموت الزؤام». تذكر كيف كان عنترة يحصد الرؤوس إثباتا لوجوده وتحريرا لعبلة من قيد الأسر والرق. تذكر كيف كان عنترة يمسك بظفيرتي عبلة ويجرهما برفق إليه حتى إذا ما التصقت أنفاسها بأنفاسه أخذ يد المهراس النحاسية وأدخلها في المهراس، دق ودق ودق حتى سال عرقه واختلط بعرق عبلة، ارتعدت الأرض والسماء وأجفلت الخيول وزمجرت العواصف وأبرقت الرعود واخضرت الصحراء ردحا من الوقت بعد أن حجت إليها طيور العالم من كل حدب وصوب.

رأى «الحلقة» ـــ في عمق الليل، تحت أضواء النيران المشتعلة في الساحة ـــ تحيط به كما يحيط الخاتم بأصبع اليد، رأى الناس من كل الأعمار والألوان تحتسي حكيه العنتري كما تحتسي كؤوس الشاي والجعة وشفاه الغواني. أيكون «حلايقيا»، مهنته حكي أساطير الأولين والآخرين. من يصدق... من يصدق... أحس برغبة جامحة في التوحد بالمرأة، وبخدر يسري في عروقه وكيانه، وبغيرة لاحدود لها. وأدرك أن ما ينتقص وجوده ـــ عكس عنترة ـــ هوعدم تمثيله لأي دور. ولأن الدور لا يمكن أن يتوفر للذات إلا إذا احتلت مركزا ما في الجماعة، فإنه قرر أن يبحث في دروب هذه المدينة الهاجعة في سكون هذا الليل تحت قدميه، عن جماعته هو، وعن مركز ودور يلعبه فيها، أي عن هويته!

نهض من قعدته، سمع حفيف ذيول سلهامه البني المتطايرة على أكتاف الريح وراءه، وراح ينزل بهدوء من السطح عابرا العتبات المؤدية إلى الفضاء السفلي الذي انتشرت فيه بنايات المدينة وساحاتها الفسيحة. ولما كان غارقا في أفكاره، فإنه لم يشعر بعشرات الخطاطيف التي تجمعت على مسافة بضعة أمتار من هامته، وهي ترفرف على نحو دائري، وكأنها ترحب بعودته، مُكَوِّنَةً من أشباحها إكليلا قدسيا لا نظير له. كان الفجر قد لاحت بشائره، وكانت مكبرات الصوت تنادي إلى الصلاة من كل مسام المدينة. وفي هذا الوقت بالذات، كان شخص ما قد انضاف إلى ساكنة المدينة: مكناسة الزيتون.

نض عنه جبته وسلهامه و«بلغته»... اقترب من حافة الصهريج... كان عاريا كما ولدته أمه أول مرة... غاصت قدماه في ماء الصهريج المنساب في صمت تحت ضوء القمر... اغتسل حتى أصبح طاهرا من أدرانه قديمها وحديثها... وانتابه شعور غامض بأنه يولد من جديد... أحس برطوبة الجو والمكان... أحس بالجوع... امتلأت خياشيمه بروائح حليب كرمة التين... دلف إليها كما يدلف الجنين غريزيا إلى أحضان أمه... دخل بين أوراقها الخضراء الغليظة الواسعة عاريا كما خلقته أمه.. ازدرد التين حتى تكلخ فمه... وأحس بالشبع، وبالحاجة إلى البكاء. غادرته الخطاطيف ملتجئة

إلى كواها في السور السامق المغبرالذي تعالت في أعاليه أفنان شجر التين واللبلاب كما لو كانت تتأهب لتنبت أخيرا في زرقة السماء. سمع وقع أقدام تقترب من مكانه، قهقهات مترعة بأصوات نسائية رخيمة. أحس برغبة عارمة في الكلام والتواصل، في ممارسة إنسانيته، خرج من مكمنه وسط خشخشة الأوراق والأغصان. التفتت النسوة إليه. راعهن منظره. اتجه صوبهن ملوحا بيده. جفلن وصرخن وجرين لا يلوين على شيء، صعدن إلى أساس السور السامق الأغبر حيث يوجد الورش الذي يعملن به. دققن بابه الخشبي الهائل المطرز بلوحات القصدير والنحاس ورؤوس المساميرالمنحدرة من عهود غابرة. لم ينفتح الباب لأن الحارس تأخر عن موعده. تسمر الجيلالي في مكانه والدهشة تلفه... لم يستطع فهم ما يجري حواليه. اتجه تحت انظار النسوة نحو كومة ثيابه. زال خوف النسوة منه فأخذن يبصبصن في غنج... كثرت التعاليق والنكت وهو يلبس ثيابه. تأكد أن هذا العالم أحمق، وأن أمرا ما خارقا للطبيعة قد حدث. وقرر أن يستعد للخوارق من الأفعال والأقوال، وأن يجابهها بما يجب من التحدي والصبروالجلد. تذكر قصة يوسف وزليخة. تبلبل جسمه وارتعدت فرائص. التفت صوب النسوة متفحصا كل واحدة منهن... كن عاريات تماما تحت بصره... أغمض عينيه وقطف من كل واحدة أحسن ما عندها إلى أن سرت السكينة في مسام جسمه.

مشط لحيته بأصابعه الطويلة... مشط شعر رأسه المتهدل على كتفه. مشط صفحة الماء ببصره. تطايرت الحجارة من حيث لا يدري، ارتطمت إحداهن برأسه فهشمته، سال دمه قانيا على وجهه ولحيته، زغردت النسوة، تباكت بعضهن، تعالى ضجيج الأطفال في فضاء الصهريج وهم يرشقون قامته الطويلة العريضة بالحجارة، أصبح ضجيجهم نشيدا كورسيا منظما: «آالجيلالي يابن الطيب، يالبوهالي، خليني في حالي»!

انقشعت غشاوة كثيفة عن عينيه وذاكرته. انهارت العتمة فجأة. وأدرك عبر ألوان قزح من هو. هو الجيلالي بن الطيب. ومن لا يعرف الجيلالي بن الطيب في مكناسة الزيتون !؟

- 2 -

كان الجيلالي بن الطيب يعبر « ساحة للاعودة » ونسمات الصباح تعبث بشعره الأسود المسبل على كتفيه،والخطاطيف السوداء المقدسة تحف به من كل جانب ، وقد غمر حفيف أجنحتها الفضاء كله. كان يمشي الهوينى وكأنه يمشي في جسده، في شرايينه. تغيرات حصلت على المكان طيلة غيابه الدوري الشبيه بغياب العنقاء في الأساطير الفرعونية القديمة. بيد أنها لم تمس - من حيث الجوهر ـــ سحر المكان ولا جلاله. وعندما اقترب من باب منصور حث خطاه ليجد نفسه وجها لوجه أمام ساحته وقد مُسِخَتْ كماتمسخ الكائنات الحية كلما لامستها يد « الميدوز » الرهيبة. بكى الجيلالي بحرقة، حتى اختلطت قطرات دمه ـــ التي لازالت تقطر لزجة على لحيته ـــ بقطرات دموعه. ولعن من كان لهذا المسخ حيلة وسببا. ودون أن يشعر ولج مع الوالجين عتبة « باب منصور » ليجد نفسه في متحف صغير للفن التشكيلي. كانت اللوحات تستريح على الجدار مستندة على إرث ألوفي من الإبداع تختزنه بنيته وهندسته، بعضها كان نقشا على الخشب، والآخر على الجبص، والثالث على النحاس، والرابع منمنمات بديعة من الزليج المغربي ـــ الاندلسي، والخامس رسوم تشكيلية حديثة تمد جسورا مع الماضي ومع الآخر في الأن نفسه.

وقف الجيلالي طويلا ـــ تغمره الفرحة كما لو كان طفلا وديعا ـــ أمام لوحة للخط العربي محاولا فك ألغازها الألوفية، متأملا طورا، معجبا طورا آخر. لم يشعر بجلبة الناس المحيطين به ولا باندهاشهم ولا برعب بعضهم من منظره المتحفي، ومن تموج الخطوط العربية في عمق اللوحات ممتدة على شكل أسلاك شائكة من فضاءاتها الفنية إلى أنامل الجيلالي بن الطيب.

ـــ هذا هو الفنان صاحب المعرض؟

ـــ ولماذا هو على هذه الحالة المنكرة. هل يظن نفسه في حفل تنكري؟

ـــ الفنانون غريبو الأطوار في العالم جميعا ، فلماذا تستثني منه فنانينا وعباقرتنا .ألم تسمع أن الفنون جنون؟ وأن العباقرة......؟

ـــ يحدث ذلك في الغرب، بلاد المادة والحس، أما هنا في بلاد الإسلام فلا وجود لذلك، الكل مشبع بالإيمان وبقدسية الرحمن، انظر إلى اللوحة الخامسة كيف امتدت في النهائي حروف الرحمن القدسية إلى ما لا نهاية له...

ـــ لاشك أنك مغرم بعلم الكلام، وإلا فإن الإنسان هو الإنسان كيفما كانت ديانته وثقافته، والإبداع ميزة الانسان الخاصة التي تتمظهر في أشكال تتنوع بتنوع الثقافات وتعددها. إنما الابداع واحد... واحد...

ـــ وحدوه ! صاح الجيلالي بن الطيب وهو يخرج من جيب جنبابه الكباردي الأزرق موسى للحلاقة.

قال الراوي:

التمعت عينا الجيلالي بوميض غريب وأمسك برأس ((المتكلم)) فحلق نصفه في لمح البصر، قبل أن يقص بحركة واحدة ربطة عنق زميله على طريقة مجذوب إسبانيا « سالفادور دالي ». سرى الفزع بين الزائرين فتدافعوا بالمناكب هاربين منتشرين في « ساحة الهديم »، متوحدين بمسخها السديمي ...و لم يبق في قاعة المعرض إلا رجل واحد كان يرقب ما يحدث مبتسما مبتهجا ساخرا. ولما اتجه الجيلالي صوب الرجل ليمارس على جسمه ولباسه طقوسه الخاصة، وجده شابا في مقتبل العمر، يلبس قميصا كاكيا مخططا بملح العرق، توقف بغتة مشدوها، مشلولا أمام نظرات الشاب الصقرية، وكأنه يقول له أهذا أنت أيها الشاب؟ نلتقي بعد هذا الغياب، من يصدق، من يصدق؟!. أشرقت عيناه بالدموع، وغارت أخاديد وجهه المحشوة بظلام الاعاصيرالمنحدرة من عصر التكوين. وفي لمح البرق تداعت في ذهنه الغائم صور أعادت ارتباطه السري بباب منصور، وقدماء محاربي الفيتنام وجيش التحرير، وبالشاب ذي القميص الكاكي و« كروسته » وشريكته، وبالأعور، وقدور، وروائح السردين المتبل والمشوي والمقلي في

الأزقة والدروب الملتوية الضيقة، والأطفال الظرفاء الأشرار الذين شربوا حب مطاردته بالحجارة ممزوجا بحليب ثدي الأم على ما يظهر. طوى الموسى ودفنها في طيات كفه، ثم سلمها للشاب الذي أمسكها ويد الجيلالي دفعة واحدة. تعانق الرجلان بحرارة، وانهمرت دموعهما ـــ عبر شلالات الفرح ـــ حارة ساخنة. وفي السماء كانت خيوط الشمس المنفلتة من كثافة الصبيرالأبيض المشوب بحمرة قانية قد انهمرت على الكون ملونة إياه بعد انكسارها تلوينا سرياليا. أما الخطاطيف السوداء فقد انسحبت إلى حيث لا يدري أي أحد.

غاص الرجلان بغتة في زحمة الشارع المؤدي إلى «الروامزيين» يمينا و«باب گناوة» يسارا، اغتسلا من كل فرادة وخصوصية وسحر وفتنة وغرابة، ذرتان متحركتان صوب هدف وغاية في سديم ذرات منتشرة في كل الأمكنة. صراخ وزعيق، ونهيق، وصفير، وقهقهات وأزيز، وروائح وألوان، وأجسام وأشكال متنوعة متضاربة مختلفة. «مكناس ياحبيبي كل شئ فيها ، الفلوس والفگوس والفَرْگُوس، المال والهبال، المعقول واللامعقول، إيوَا... فيها المَضْروع بجذبة حلول الخالق بالمخلوق حتى لا يكاد يميز يديه من رجليه، يخال نفسه الواحد والمتعدد ، هو هو والواحد والجمل المفترس واللبؤة الماكرة الشرسة والشاة الوديعة شئ واحد، ليس من حد لديه بين القداسة والدناسة، بين الكينونة والدينونة، بين النوم والصحو، يموت في حياته بمقدار ما يحيى في موته... إيوَا... وفيها المصروع بالدَّنِّ والدَّنْدَنةِ ولَلاَّ وْمَالي، والشِّيكي والْبِيلِيكي، وْهَاكْ واعْطِيني، ودفتر الشِّيكات والبوتيكات وحتى البوليتيكات... أيوا... وفيها ناس القراءة والعلم، خْداوْا السَّلْكَة من عند الشيخ خليل، والشيخ ديكارت وهيجل... يحترقون في الليل والديجور، وما في الهم إلا الذي يفهم...»

ـــ انتبِهْ ياشيْخ، كدتَ تقتلع أضراسي بكتفك... حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيل...

الناس يتدافعون كالنمل، كل واحد يجري على الآخر، يحمل أثقاله في صدره، يتدحرجون على الإسفلت، يمشون على أربع، على ثلاثة، على

اثنين، على واحد، ولا أحد يبتسم، ولا أحد يبكي، وجوه اردوازية، رؤوس ضخمة صلعاء، شبيهة برؤوس النمل تماما تماما.. غوثك يا رب.. فرك الجيلالي عينيه بيديه وكأنه يرغب في أن يستفيق من كابوس حلم مزعج...

ـــ هشمت رجلي بخفك، آمولاي، أين رأسك،...

تحسس الجيلالي رأسه بيده كمن يريد أن يتأكد من آدميته واستمرار وجوده بين كتفيه، وحمد الله في سره... وتابع سيره إلى جانب الشاب، وسط هذه الأمواج البشرية، التي لم يعد يرى منها إلا رؤوسا سوداء مكورة، بعضها يستقر إلى جانب بعض، ممتدة على مرمى البصر...

خطا الرجلان عتبة الفندق، وتنفسا الصعداء، فوجدا أمامهما الأعور مكورا على نفسه في زاوية من «الكونطوار» يرمقهما بعينه الوحيدة الذابلة التي لا تنام في الليل ولا في النهار. أما فاطمة بنت حميدة فكانت جالسة أمام طاولة داكنة في الزاوية اليمنى من فناء الفندق، ترمق سحب الدخان المتألقة في زخات الضوء المنبعث من النافذة، بعيون شاردة غائمة، تحتسي مغمضة العينين كوبا كبيرا من الجعة، محاولة إغراق همومها في قعره العسلي الغامض، غموض يومها وغدها. ذباب يمزق أزيزه رهبة المكان وسكون، قطة سوداء سمينة سمنة الأعور، ترقد واضعة رأسها بين رجليها في الزاوية اليسرى للفناء، وترقب بعينين ذكيتين الأشياء والأشخاص في هدوء لا حد له، وفي الزاويتين الأخرتين تناثرت طاولات، وتكدست أكياس وعلب ضخمة لا يعرف حتى الأعور الذي أصبح منذ سنوات قطعة من ديكور المكان ما تحتوي عليه. وعلى الجدار نامت منذ سنين، صورة لـ«سيدنا علي وراس الغول»، ولـ«أمنا حوّاء وأبينا آدم»... ومن إحدى جوانب السقف، تدلى مصباح يحلم بالنور وبالحرارة، تنتصب أسفله وسط الفناء المؤدي إلى قبة السماء خصة ماء نافورتها دائمة الفوران منذ أجيال بعيدة، فكأن مناجاة سرية تنعقد في هذا المكان المركزي بين هذه الأرض وتلك السماء، وكأن الفواصل لا وجود لها بين الأعلى والأسفل، بين السماء والأرض، بين الآخرة والدنيا، بين الشاهد والغائب، بين الظاهر والباطن، بين اللاهوت والناسوت. يقول الراوي والعهدة عليه، إن هذه النافورة استهوت

«أوجين دولاكروا» أثناء زيارته لمكناس في القرن الماضي، فرسمها بقلم الرصاص، والرسم موجود في ملكية صاحب الفندق، الذي لا تفوته أية فرصة للافتخار بملكيته، إذ الرسم دليل على عراقة النسب من جهة، وشغف العائلة منذ القدم بالفن من جهة أخرى. وبلغ الفخر والزهو بصاحبنا حدا جعله يتعالى عن مد وزير الثقافة ذاته بذلك الرسم، مقاوما إغراءات جوائز أحسن المخطوطات والوثائق، وأنوار الملتقيات والندوات الثقافية الرسمية وغير الرسمية...

أحست فاطمة بنت حميدة بنور في جفونها، وبِيَدٍ تُربِّتُ على كتفِها في حنو تعرفُ صاحبَه غريزيا. انتفضتْ كلُّ مسامِّها، كلُّ خلاياها، انتصبتْ واقفة، انتشرتْ ذيولُ ثوبها في الهواء، اندلقت الجعَّة على الطاولة، سقط الكوب على الأرض في دائرة ضوء تناثرت فيها شظاياه حبات دقيقة لامعة بألف لون ولون. قفز الأعور من مكانه مذعورا. نطت القطة خائفة مندهشة هاربة إلى الخارج، تحرك غبار الفناء وامتزج بدراهم الضوء التي استرسل انهمارها من النافذة. تحركت حميدة، تحرك الجيلالي، تعانقا وسط شهيق فاطمة بنت حميدة وقطرات دموع الجيلالي ونظرات الأعور والشاب ذي القميص الكاكي، وسيدنا علي، وراس الغول، وأمنا حواء، وأبينا آدم.

ـــ أين اختفيْتَ طيلة هذه المدة ؟ اعتقدنا أنك اخْتُطِفْتَ في ظروف غامضة، وقيل لنا إنك عُلِّقْتَ في رأس عمود للكهرباء إلى أَنْ مُتَّ وتناثَرَتْ أشلاؤك في الهواء، بعد أن شبع منها الوحش والطير، وقيل لنا إنك ذُبِحْتَ وذابت جثتك في خليط من الجير والحوامض الكيماوية فكأنها لم تكن يوما. وقيل لنا... وقيل... وصدقناهم. وكدنا ننساك... فحمدنا لله على ظهورك من جديد...

انتظرت فاطمة أن يجيبها الجيلالي عن سؤالها، وأن يجلو لها هذا اللغز الذي طالما حيَّرها، فالجيلالي وإنْ كان حاضرا داخل كيانها، فهو على كل حال كان غائبا في الحياة اليوميّة الاعتياديّة للناس غيابا لاغبار عليه جعل أحدهم يقول حالفا بأغلظ الإيمان بأن الحياة أصبحت بعد غياب الجيلالي «مسوسة» لا طعم لها. انتظرتْ ولما لم يجبها الجيلالي ألحتْ عليه في السّؤال... بَيْدَ أنّ الجيلالي وضع سبابته على شفتيها شاملا إياها بنظرة تفيض حنوا. ولم ينبس بكلمة.

ـــــ شُلَّ لسان الجيلالي، واستراحت منه المدينة... صار أبكم... أبكم... أتسمعين ؟

صاح الأعور بصوت أجش منفر شامت وهو يمد عنقه جهة الجيلالي متفحصا إياه بعينه المكسوة احمرارا وقسوة، حتى شعر الجيلالي بحرارة أنفاسه فأبعده براحته في ليونة ويسر وهو يبتسم .ولم ينبس بكلمة.

ـــــ نرجو من الله ألا تنغلق عينك الوحيدة إلى الأبد أيها الأعور. عجبا. لماذا تشمت في الجيلالي وهو وديع كالحمل لم يتعرض لأحد بسوء لا بالقول ولا بالعمل؟... اتكون قد...

ـــــ كفى من الهذر، إنك لا تعرف عمن تتحدث...

ـــــ نتحدث جميعا عن نفس الشخص، وأعني الجيلالي بن الطيب...

ـــــ نعم، نتحدث عن نفس الشخص، هو هذا الواقف القابع أمامنا كتمثال قديس من قديسي المسيحيين القدامى، بَيْدَ أنَّ هذا الشخص في الواقع أشخاص، أنت لا تعرف منهم إلا واحدا. أما أنا فأعرف منهم أشكالا وأنماطا...

ـــــ ماذا تعني؟ قالت فاطمة بصوت مرتعش وهي تلاحظ علامات التضايق والقلق طافحة على وجه الجيلالي.

ـــــ هو يعرف ماذا أعني؟... هيّا تكلَّم... بُحْ للشباب بأعمالك... اتركْ لسانَك يروي ويروي عنك فقد شغلْتَه طويلا برواية عيوبِ غيرِك....

ـــــ اتْرُكْه... اتْركْهُ قلتُ لك، أَلا تراه يرتعش دون أن يتمكَّن من جوابك...

ـــــ وهل تركني عندما كنتُ محتاجا إلى رحمته، نغَّص حياتي بقسوته، ترك قلبي في العراء مِزَقاً تذروها الرياح، منذ ما ينيف على أربعين سنة خلت...

ـــــ ماذا تقصدُ أيّها الأعوُر النذلُ... افصِحْ وإلاَّ...

ـــــ أعور ونذل... نعم... غير أنني صادق تماما... تماما...

تهالك الجيلالي على مقعد بجوار الهرة التي كانت قد عادت إلى مكانها المفضل ووضع وجهه في راحتيه الضخمتين، بينما راح الأعور يتكلم ويتكلم ويتكلم حتى لكأنه لسان عظيم يملأ المكان والزمان بكتلته الأسطورية.

كانت الشمس ملتهبة حارة خارج الفندق... وكانت الأرض مغبرة قاحلة، وأوراق الأشجار الصفراء تكاد تحترق رفقة قلوب الناس ووجوههم... أما في فناء الفندق فكان الجو رطبا باردا عفنا... وكان رذاذ من الكلام يملأ المكان بماض حاضر على الدوام في القلب والوجدان.

ــــ اللهم عفوك ورحمتك. قالها الجيلالي في صمت المؤمن الممتحَن في إيمانه... وهويتابع رواية الأعور... وفي ذهنه تتابعت أحداث الماضي الذي ظنه مضى دون رجعة، وتزاحمت الذكريات حُلوة مُرّة... تكدّستِ الوجوه والأسماء والفضاءات على مشارف مخيلته... ومن بعيد، من باطنه العميق، انبجست صورة متداخلة الملامح والقسمات سرعان ما طفحت على السطح واضحة جليّة تنبض بالحياة. إنها صورة «طامو»، أو«الشيكي الأقرع» أو «كلارا»... تسميات مختلفة لامرأة واحدة... تداخلت الصورة مع رواية الأعور تداخلا غريبا. تداخلت الصورة ببركة دم أحمر قان في غرفة نوم مترفة لازالت عطورها الفواحة تتردد على خياشيمه كلما تذكرها. تداخلت الصورة بمسدس أسود باردينفث ناره القاتلة، وبعين تتراقص على الأرض تقاوم برودة الموت، وبصراخ وعويل وجلبة، وبأوامر الجند وإهانات الشرطة وهول المحكمة. ومع ذلك كله، كان في قرارة نفسه لايتفق مع رواية الأعور... فإذا كانت الأحداث والشخوص والأزمنة كلها صحيحة في رواية الأعور، فإن الجيلالي ــــ استنادا إلى خبرته الشعورية ــــ لا يمكن أبدا أن يقبل تأويل الأعور لها واستنتاجاته منها. فرواية الأعور رواية مختلطة، سديمية، لا يمكنك أبدا أن تميز فيها بين الموضوع والذات، فهو أحد شخوصها بل إنه أحد فاعلي أحداثها الرهيبة، وندوبها الغائرة، أصبحت علامة دالة عليه تميزه عن الناس والحيوان والنبات والجمادات. قبلها كان يسمى بين أقرانه ببنعبو الديلمي أحيانا، وبالأعور في غالب الأحيان، وبعدها اصبح لا يعرف بأي إسم... نعم... بأي إسم !

الألمــانــــي

ـ 3 ـ

قال الراوي :

رجعت إلى أرشيف محكمة فاس باحثا عن حقيقة رواية الأعور، فوجدت ملفا يحمل اسم الجيلالي بن الطيب مؤرخا في مارس1953، ومسجلا تحت رقم 0056879ج. ويتعلق بجناية قد يكون ارتكبها الجيلالي (الذي كان معروفا بين الناس بإسم آخر) في حق المدعوة طامو وبنعبو الديلمي. وقد بذلت الغالي والنفيس في سبيل الوصول إلى الملف، إذ كلما كنت أطرق باب مكتب إلا ويدفعني دفعا لولوج مكتب آخر إلى أن أجد نفسي بعد ساعات من الانتظار والتنقل بين المكاتب واقفا عند مدخل الإدارة أمام مكتب الحارس الذي يأمرني بمغادرة المكان. وهكذا أجدني في الشارع خاوي اليدين إلا من ركام من مسودات الطلبات والملتمسات، ضائعا بين ركام من الحديد والاسمنت والخشب. ولولا حبي لكم، وتقديري لرغبتكم العارمة في معرفة الحقيقة، لما صبرت على المكاره والأذى، إلى أن أخرجت الملف من غبار الأرشيف.

والحاصل أنه بعد قراءتي للملف المذكور، واستجوابي للقاضي ومن تبقى من الشهود على قيد الحياة، يظهر لي انني استوعبت قضية المتهم الجيلالي بن الطيب استيعابا يصحح العديد من التشويهات ومواطن الكذب والتحامل الواردة في رواية الأعور.

كان الجيلالي شابا وسيم الطلعة طويلا، يسكن مع أبيه وأمه في «بَرَاكة» ب «دوار الرجا في الله»، وكان أبوه حَمّاراً ينقل البضائع والأثقال المختلفة، من «باب الفتوح» إلى غاية «قيسارية مولاي إدريس»، ومن القيسارية إلى باب الفتوح، ونادرا ما كان يخرج في تنقلاته عن هذا الخط. أما الجيلالي فقد اشتغل

بعد رحيل الأسرة من مكناس إلى فاس في عدد من الحرف والحنط دون أن يتمكن من الترسيم في أحدها. اشتغل في صباه متعلما في «البرشمان» لدى خياط اشتهر بخياطة الجلابيب، الشُوشْديَّة والبزيويَّة والوزانيّة الخ... ولما كان المعلم الخياط يحب الغلمان أكثر من حبه للخياطة، فقد اضطر الجيلالي أن يشتغل في الدباغة مقاوما الغثيان الفظيع الذي كان يستبد به في الأيام الأولى من استلامه العمل. كان جميع العاملين في «دار الدبغ»، يباشرون أعمالهم عراة إلا من مآزر تستر عوراتهم. تلتصق جلود البقر والماعز والغنم باردة بحرارة جلود سواعدهم وصدورهم. وبعد الصلاة على النبي، كان كل منهم يلتحق بصهريجه الخاص. تتدرج الصهاريج ألوانا وأشكالا وأحجاما معبرة عن تقسيم دقيق للعمل. أما الجيلالي فقد ابتدأ من نتف الجلود من الشعر والصوف ليستقر به العمل في صهاريج الصباغة الزاهية بألوانها الصفراء والحمراء... وهناك أحب كيمياء الألوان إلى حد العشق... وعندما كان يستريح رفقة زملائه على حافة الصهريج الملوَّن، كان يحلو له أن يحدثهم عن نظريته في الألوان. كان يقول لهم: «انظروا إلى الوجود برمته ،فوراء تعدده اللانهائيّ تجدون وحدة كامنة ثاوية خفية لا ينتبه إليها إلا المخصوصون بالعلم الحق. وهذه الوحدة هي اللون. الأبيض. والأسود. والأحمر. والأصفر. والأزرق. والأخضر ... عندما نتحدث عن البحر والسماء فنحن في الواقع نتحدث عن الأزرق، فوحده الأزرق كائن حقيقي. وعندما نتحدث عن الليل وعيون الصبايا الناهدات الجميلات الحسان، فنحن نتحدث في حقيقة الأمر عن اللون الأسود، وحده الأسود موجود، وماعداه وهم... والجلد ما الجلد إن لم يكن الأصفر والأحمر...» يضحك الجيلالي فيقهقه الحاضرون قبل أن يختم قائلا: «المسيحيون مخطئون عندما يقولون في البدء كانت الكلمة، والصواب أن يقولوا: في البدء كان اللون...» كان زملاؤه يحبونه ويعرفون أنه لايضيع الوقت أبدا. فما إن كان يخرج من عمل الدباغة حتى يلج عالما آخر قرب زاوية مولاي عبدالقادر الجيلالي حيث دأب على الاجتماع بطلبة القرويين ومولاي ادريس وتجار القيسارية، للمذاكرة في الشؤون العامة ، في شؤون الحرب وهزيمة فرنسا المستعمِرة على يد الألمان، في مهام الحركة الوطنية، في سيرة محمد

الخامس وعلال الفاسي وابن الحسن الوزاني، وعبدالكريم الخطابي. تعلم القراءة والكتابة وقرأ الأزلية والعنترية، وألف ليلة وليلة، وقصص الأنبياء، والأوديسا والإلياذة مترجمتين إلى العربيّة، والفضيلة، وماجدولين تحت ظلال الزيزفون، وجريدة العلم التي كان يلتهمها قبل التهامه الطعام يوميّا وعندما كانت تتعرض للحجز كان يصاب بالكآبة. وبالطبع، قرأ ماتيسر من الذكر الحكيم وحديث خير المرسلين وطالع سيرة ابن هشام وكتب المغازي وحفظ الاجرومية والالفية ومتن ابن عاشر والمعلقات السبع او التسع بشرح الامام الزوزني، واطلع على كتاب المنقذ من الضلال وكتاب إحياء علوم الدين الذي لم يفهم منه إلا بعض المسائل رغم الوقت والجهد والأرق أحيانا... وشرع في تعلم الفرنسية لولا أن الأحداث حالت دون إتمام تعلمها على النحو الأليق. وعندما سأله أحدهم عن السبب الذي حذا به إلى تعلم الفرنسية رغم كونها لغة أعداء الوطن المستعمرين، ضحك ساخرا وهو يقول: وكيف تريد أن نطردهم من ديارنا دون أن نتعلم لغتهم على الأقل... كان الجيلالي معدودا بين زملائه الوطنيين من أولئك المناضلين القلائل الذين لم يخفوا إعجابهم ب «الحزب الألماني»، وحماسهم لأدولف هتلر الذي كان يقول عنه الجيلالي بأنه لو كان مسلما لكان هو المهدي المنتظر بذاته وصفاته. بيد أن ولع الجيلالي بتتبع أخبار هتلر وفتوحاته السريعة الباهرة لم يكن بدافع حبه لهتلر، بل بدافع حبه لبلاده المغرب. وعندما كان البعض يلومه على ذلك، كان الجيلالي يجيب بكل بساطة بأن حب الاوطان من الإيمان هكذا علمنا الزعيم، وحب وطننا يفرض علينا كراهية محتلها، والتحالف مع عدوها. وهيتلر عدو فرنسا ومذلها، فهو حليفنا وواجب على زعمائنا أن يسافروا إلى برلين لعقد أواصر التحالف والوفاق والتعاون ضد فرنسا المحتلة. وكلما كان ذلك أسرع كان أفيد وأجدى لقضية استقلال المغرب من الاحتلال الفرنسي. فالوقت لايرحم، ويجب أن نضرب الحديد مادام سخنا... كان الجيلالي يخطب في جموع زملائه بأعلى صوته مرددا هذا الرأي، لايكل ولا يمل، حتى أصبح يعرف بالألماني.
وعندما سمع بزيارة أحد رموز الحركة إلى ألمانيا لم تسعه الدنيا من الفرح، وأحس بالزهو والفخار، ولم لا وأفكاره تتحقق تدريجيا، هو الفقير بن الفقير، الدباغ بن

الحمال العارف بحقائق الأمور. وهكذا أصبح يُعْرَفُ بين معارفه بالألماني الملون... بلقبين اثنين سرعان ما استحالا إلى واحد. فهو الألماني في حلقة الحركة ولجانها وتجمعاتها، وهو الملون في دارالدبغ وصهاريجها.

وفي الدوار كان الجيلالي نارا على علم، يقصده الشبان والكهول للاستشارة في قضايا الدين والدنيا معا، لإيجاد حلول للمشاكل، لإبداء الرأي، للتوسط في قضاء المآرب. ولم يعرف عنه أنه أغلق بابه ولا أذنه ولا جيبه ـــ على شدة فقره وإملاقه ـــ أمام أي أحد. فأصبح سلطة روحية يضرب لها شيخ الدوار ومكتب المراقبة المدنية ألف حساب. وسرعان ما أثبتت الأحداث هذا الواقع عندما امتدت أيادي السلطة بالمضايقة والحبس والتشريد إلى عدد من زعماء الحركة على إثر تقديم عريضة المطالبة بالاستقلال... حينها خرج الجيلالي من «بَرّاكتِه» غير آبه بولولات أمه وتهديد أبيه، رافعاالعلم المغربي مشدودا في قبضته بالعلم الألماني، مزبدا مرغيا، مكبرامصليا على النبي داعيا سكان الدوار إلى التمرد والعصيان... وسرعان ما خرج الناس صبيحة يوم ممطر بارد من جحورهم ملتفين حوله مصطفين وراءه وقد شعروا لأول مرة أنهم أصبحوا رجالا حقيقيين، بشرا ككل البشر... كان المطر يهطل، والوحل يملأ كل شبر من الأرض، ممتزجا بروث البهائم، ترفسه الأرجل الحافية غير آبهة بالبرد ولا بالبلل والوحل. السواعد مشمرة مرفوعة إلى السماء بالرايات والفؤوس والمناجل والمزابر والعصي والحجارة... وزغاريد النساء تتردد في كل أرجاء الفضاء على اتساعه وشساعته...

ـــ عاش الملك، عاش محمد بن يوسف !. . .

ـــ عاش!!

ـــ لتسقط فرنسا وعملاؤها...

ـــ لتسقط...

ـــ عاش الزعيم علال . . .!

ـــ عاش...!!

ـــ عاش المغرب حرا مستقلا...

ـــ عاش . . .

ـــ الاستقلال أو الموت الزؤام . . .

ـــ أخرجوا من بلادنا أيها المستعمرون الجبناء...

وفي بضعة دقائق كان الدوار قد أصبح قلعة محررة مستقلة، محاطا بفرق من الشباب يراقبون الوافدعليه على وجه السرعة قصد الاستعداد لمقابلته على الوجه الأليق. أما داخل الحي فقد تكونت لجان للمقاومة، ولجان لغوث الجرحى، ولجان للتموين والمؤونة، وعلى رأس هذه اللجان جميعا رؤساء يجتمعون مع الجيلالي قصد تحديد المهام وسبل إنجازها. حكومة مصغرة، كان رئيسها كما ترون الجيلالي بن الطيب المدعو بالألماني الملون. ومن بين رؤساء اللجان برزت امرأة عرفت بين الناس بطامو، وستعرف فيما بعد بالشيكي الاقرع وباسم آخر، فرنسي هذه المرة، لا أتذكره الآن وسياتي بيانه فيما بعد.

كانت طامو امرأة جميلة الوجه، عسلية العينين، ممتلئة الصدر، ضيقة الخصر، متناسقة السيقان على النحو الذي كان يحلم به الجيلالي ويشتهيه ويتمناه. وعندما رآها تسمر في مكانه معجبا، نسي هول الموقف وفداحة الخطر الزاحف الداهم، وتعجب كيف أنه لم يتعرف عليها فيما سلف من الأيام. وهكذا أصبح مجرد وجودها إلى جانبه عنصرا أساسيا في معادلة وجوده برمتها، يملأه حماسا وتصميما على الانتصار والفوز والبقاء. وكلما كان يقترب منها ويستمع لآرائها كان يزداد اقتناعا بها. وأصبح حريصا ــــ مع مرور الوقت ــــ على إحضارها إلى جانبه لا يصبر على فراقها... أما هي فقد انتبهت بغريزة المرأة إلى أن الجيلالي مهتم بها غاية الاهتمام فحرصت على التقرب منه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

مرت الساعات الواحدة تلو الأخرى، قضاها الجيلالي وأصحابه في نصب المتاريس للدفاع عن الدوار، وحشد كافة القوى لمواجهة العدو متى شن هجومه المرتقب. ولم يمنع ذلك الأطفال من اللعب في ساحة الدوار الفسيحة، فقد كان بعضهم يلعب ــــ رغم الوحل ــــ «التشورة»، وبعضهم المصارعة على الطريقة المغربية، أما البعض الآخر فقد آثر عالم الكبار فراح يمد يد المساعدة لإنجاز أعمال الاستعداد للمواجهة. وسرعان ما وصل الخبر إلى الوطنيين وسلطات الاحتلال معا. فأرسلت قيادة الحركة مندوبا عنها يحذر الجيلالي من مغبة الأمر، مبينا له ولأصحابه ماهم مقبلون عليه من تضحيات، ولما اطمأن المبعوث على تصميم أهل الدُّوّار وإيمانهم بالقضية، وتبصرهم بالثمن الذي يمكن أن يدفعوه، أخبرهم

بأن الصحافة الوطنية، أو على الأقل ما تبقى منها، ستتابع أعمالهم قصد نشرها في الداخل والخارج. بيد أنه أمر الجيلالي بسحب العلم الألماني، إذ الرأي الغالب في الحركة يتجه الآن ـــ لأسباب عديدة ـــ إلى التعاون مع فرنسا الجديدة بقيادة دوغول مقابل استقلال المغرب بعد استقلال فرنسا. لم يقتنع الجيلالي بأقوال المبعوث وتحليلاته، إذ الارض لا تزال في نظره منبسطة مسطحة، ولا يمكن أن يصدق يوما مايقال له عن كروية الأرض ودورانها الثنائي المتواصل. ولما عسر على المبعوث إقناع الجيلالي، عانقه مودعا وهو يتميز من الغيض والغضب.

مرت الساعات بعد ذلك مسرعة، وفي كل مرة كان سكان الحي يتوقعون الإعلان عن مجيئ «ساليكان» و«لاليجيون»، أما «الكوم» فنادرا ما كانوا يُوَجُّهون للقيام بمثل هذه المهام...

ـــ هل من المعقول أن نواجه «لاليجيون» بالعصي والحجارة...

ـــ إننا في الواقع ننتحر...

ـــ بل إننا سنستشهد في سبيل الوطن.

ـــ وسنبعث في الجنان على هيئة فتيان أشداء أقوياء يحيط بهم الولدان المخلدون، والحور العين ياميمون!

ـــ خلي عليك ميمون... لو مات من يتكفل ببناته... من يدافع عن عرضهن ضد جنود الفرنسيين المستعمرين وعملائهم؟

ـــ نحن وإياهن في رعاية الله... لنا الله وكيلا ونصيرا...

ـــ ألسنا ورثة الانبياء؟ إذا واجهنا الفرنسيين بإيمان صادق فلا شك أن الملائكة ستكافح معنا وتقاتل الفرنسيين الكفار إلى جانبنا كما طرأ في «بدر»...

ـــ هراء!

ـــ بل عين الصدق والحقيقة! أَوَ تشك في قدرة اللهِ وتأييدِه للصّادقين من المؤمنين المجاهدين في سبيله؟!!

ـــ لا أشك في قدرة الله. بل أشك في قدرتنا على المواجهة المشرفة والناجحة والمفيدة لقضية الوطن... نحن قلة وهم كثرة...

ـــ رب فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

ـــ هم مسلحون بأحدث سلاح وأفتكه، ونحن عُزّلٌ إلا من الإيمان بقضيتنا وديننا...

ـــ ستحارب معنا الملائكة قلت لك . . .

ـــ هل تراهن . . .

ـــ لا تجوز المراهنة إلا في ركوب الخيل والمسايفة فيما يدخل في باب الجهاد...

ـــ بل تخاف إن راهنت أن تخسر الرهان... وفي كل الأحوال، فحتى لو ربحتك فلن تخسر مطلقا لأننا سنكون آنئذ معا قد انتقلنا إلى الدار الآخرة، حيث تصبح شروط الدنيا وقواعدها ورهاناتها باطلة...

ـــ كفى استهزاء... فالفرنسيون على الأبواب...

ـــ كلامنا أصبح عقيما أشبه ما يكون ـــ في جوانب منه ـــ بالهذيان... ولذلك من الأحسن أن نسكت، ونستعد للمواجهة والاستشهاد...

ـــ الآن تكلمت...

ـــ أما أنت فلم... أنظر من القادمين... إنهم يحملون سلاحا... بنادق... مسدسات... وأحزمة رصاص... هؤلاء هم الملائكة...

ـــ ها قد استقبلهم الجيلالي... واستلم منهم ما قدموا به من سلاح . . لكن ترى من تدرب من سكان الحي على استخدامه...

وفي هذه الأثناء كان الجيلالي يصدر أوامره للبحث عن بضعة رجال اشتغلوا مدة في «الكوم» الفرنسي وشاركوا في الحرب قبل أن يسرحوا منه نتيجة تعرضهم لأعطاب وعاهات... وما إن اجتمعوا حتى كلفهم صحبة الفدائيين باستعمال السلاح وتعليم بعض الرجال الأشداء... فشرعوا في العمل فورا...

دخل الجيلالي إلى كوخ مشرف على المنظر العام للدوار، وتمدد قليلا على حنبل من الصوف للاستراحة...كان الجو هادئا، والمطر كف عن التهاطل منذ مدة، رغم أن السماء لا تزال ملبدة بالغيوم... ولم ينتبه إلى أن طامو كانت وراء ستار داخل الكوخ تستبدل لباسها المبلل بماء المطر بلباس آخر،إلى أن سقط المشط من يدها على الأرض... فانتبه مذعورا... وانتبهت هي الاخرى الى وجوده... كان شبح جسدها الفاتن بادي الملامح على الستار الذي تحول بفعل الفانوس المشتعل قربها الى ستار لخيال الظل. كان جسدها عاريا إلا من مفاتنه، من اغراءاته، من شهوانيته الجامحة التي لا تقاوم. أحس الجيلالي بفوران في دمه

أشبه ما يكون بفوران البراكين. وبخدر يسري في أوصاله ممتزجا بنغمات كناوية محمومة بطلب اللذة والفناء في اللانهائي.

اشرأبت طامو من وراء الستار مستطلعة مستفهمة مستنكرة. بيد أن قلقها البركاني سرعان ما خمد أواره حالما تيقنت ان هذا المداهم لحماها وخلوتها هو الجيلالي بن الطيب. وبقدر ما كانت أسارير وجهها الجميل تنشرح وتتوهج، بقدر ما كان الارتباك يشتد على محيًا الجيلالي وتزداد خفقات قلبه سرعة وقوة. أية قوة هذه التي طوحت به دون إرادته بالقرب من هذه المرأة التي ما إن تقع عليها عينه حتى تنحل ذاته وتتخدر. لا لغةَ قادرةٌ على ترجمة إحساساته وعواطفه المتضاربة المتناقضة التي تشبه الزوبعة. هل يمكث مستلقيا في الفراش متظاهرا بالهدوء والتحكم في الذات والعاطفة والغريزة، وكأن طامو لاتعنيه في شئ؟ أم يجمع أعضاء جسمه ليغادر الكوخ قبل أن تغلبه الرغبة فيقع في المحذور والمحظور؟ أم يستسلم لمنطق اللحظة الراهنة وللقضاء والقدر تاركا الطبيعة البشرية التي طالما وثق في خيريتها العميقة تتصرف؟ كان العرق ينز من جسمه القوي المرتعش المحموم بطلب اللذة. ثمة صرخة وحشية عميقة دفينة في ثنايا كيانه تطالبه بالبقاء والذوبان إلى حد الحلول الصوفي في جسد المرأة.أوليست المرأة لباسا للرجل وهو لباس لها. وإذن لماذا كل هذا الخجل والتردد والخوف والترقب والشعور بالإثم والعيب والعار ؟ لم تكن طامو امرأة غرة. فقد حنكتها محن الزمان منذ أن هاجرت أسرتها من «الحياينة» هربا من الفقر والمسغبة على إثر الجفاف والقحط ومعارك الثأر القبلية الرهيبة. كانت تعلم منذ أول لحظة أن هذا الرجل الممدد أمامها سيكون من نصيبها، وأن تحقيق ذلك موقوف عليها، على إقدامها وجرأتها وتصميمها وقدرتها على غوايته بكل ما لديها من مفاتن الجسد ومحاسن القول والعمل. ابتسمت بدلال وسحر لا تعرف أسراره إلا هي. وتسللت من وراء الستار سريعا لتستقر مستلقية على الفراش إلى جانبه... شعر بطراوة جسمها النابض بالشهوة والحياة... وبأنفاسها الأنثوية تلفح وجهه، ضمها إلى صدره، قبلها، التصق جلدها بجلده، وسرى خدر ناعم في أعصابه وخلاياه. «وَلِمَ لا... الموت ليها ليها... والله غفار الذنوب...لا مرد لقضائه وقدره»... أما هؤلاء المستعمرون فهم

قادرون على هد الجبال متى أرادوا، لكنه يعرف جيدا انهم أعجز من أن يتحكموا في هذا الانجذاب العنيف السري الملغزاللذيذ بين جسدين يترقبهما الفناء وهما في قمة احتفالهما بالحياة. هكذا قال في نفسه... واتحد بعالم الغيب والشهادة...

استفاق الجيلالي من غفوته على صراخ آت من الخارج، التفت إلى جانبه فلم يجد طامو، كانت قد تسللت خارج الفراش منذ مدة... لبس وانتعل وقفز بخفة الهر خارج الكوخ ليجد نفسه وسط حشد من المناضلين الذين أخبروه بأن جنود الفرنسيين قد حاصروا الدوار حصارا شديدا.

كانت الحافلات المصفحة، والمدرعات، والمدافع الثقيلة ذات العجلتين، تلمع في ضوء خيوط من الشمس المتسللة من كوة داكنة في السحب المثقلة بالأمطار... وكان السينيغاليون يقهقهون باصوات عالية وكأنهم خرجوا للتو من حانة... أما الضباط الفرنسيون فقد علت على سحناتهم الشاحبة علامات الجد والجهد والترقب للقاء المجهول... ما الذي يمكن عمله من أجل إعادة السيطرة على الدوار دون إراقة دماء رجالهم... مع من يمكن التفاوض قبل تدمير الحي عن آخره إن اقتضى الحال... ما السبيل إلى إثارة الفرقة بين سكان الحي قصد إشغالهم ببعضهم وإضعاف مقاومتهم وعزل قيادتهم وإلقاء القبض عليهم... هذه الأسئلة كانت مثار جدال ونقاش بين الضباط الفرنسيين.. في الوقت الذي كان فيه الجيلالي وأصحابه يتفقدون المكافحين المرابطين في المتارس والخنادق...

ـــ سنحارب... سنحارب ... الله اكبر!!!

ـــ الحرية أو الموت!!!

ـــ عاش الوطن حرا مستقلا !!

شعر الجيلالي بالهوة العميقة في نسبة القوى بين الثوار الوطنيين وآلة القمع الاستعمارية التي انتصبت في لمح البصر مطوقة «الدوار» كالكماشة. وأجرى مقارنات سريعة في مجال العدة والعدد والتدريب والتنظيم فوجد أن الكفة راجحة لصالح الفرنسيين رجحانا رهيبا. وأدرك جيدا أن نقطة التفوق الوحيدة التي يتوفر عليها وأصحابه هي الإيمان بالقضية والتصميم على الموت. وإذا ما صمد الدوار في وجه الجند يومين، لكان ذلك كافيا لتحريك الرأي العام لصالح

القضية في فرنسا والعالم... لسنا إلا حطبا يحترق ليبقى الوطن دافئا متوهجا بين الأمم. وابتسم ابتسامة حزينة وهو ينتبه إلى هذه العلاقة بين الحرية والموت في هذا الزمن العالمي التعيس. أفليس من المحزن حقا أن يضطر الإنسان بعد هذا التقدم الهائل، وهذه الاكتشافات الباهرة، وهذا الانتصار الفريد للعقل، أن يعانق الموت لكي يتذوق طعم الحرية. لكي تكون حرا، آجْليوْل، يجب أن تفقد الحياة. وما قيمة الحرية بالنسبة لميت.!؟.. أليس من المعقول القول بأن الحرية تصبح فارغة من المعنى إذا غادرت عالم الأحياء منتقلة إلى عالم الجمادات والأموات... بيد أنه انتبه من جديد إلى أن حياة المغاربة في عهد الاحتلال هي والموت صنوان، توأمان. ورأى فاس بأحيائها وصوامعها ومدارسها وأسواقها وحدائقها وأنهارها ودروبها العتيقة تتحول إلى مقبرة كبيرة مُغْبَرَّة تعبث الرياح بأتربتها السوداء... فرك عينيه... بصق في الأرض... وتعجب من نفسه كيف أنه لم ينتبه سلفا إلى هذا الدور الرهيب الذي لا يترك متنفسا ولا مخرجا للإنسان في وضعية المحتل المستعمر... وفي هذه اللحظة تقدم طفل صغير من الجيلالي محملقا فيه بعينين واسعتين يموران رجاء وأملا وحلما... حمل الجيلالي الطفل وضمه إلى صدره. وفكر في اللحظة الراهنة، في وضعية الإنسان المتجلية فيما هو عليه وأصحابه، في السعادة الغامرة التي يشعر بها في أعماقه رغم الموت القابع هناك في آليات العدو وجنوده «السينغاليين». وفطن إلى أنه لا مَخْرَجَ مِن دور الإنسان المستعمَرِ المضطهَدِ إلا باختيار المقاومة والتمرد والصراخ إلى حد الانفجار ب ((لا))، لا مخرج إلا إذا اختار موته بكل حرية. أنْ يختار الانسانُ موتَه، معنى ذلك أنه حر. وسيبقى حرا حتى بعد موته في ضميرالأجيال المتتالية من البشر وذاكرتهم... وأدرك في هذا السياق من تداعي الأفكار ـــ وهو يتأهب للحظة الحاسمة ـــ تشبث الناس منذ القدم بفكرة العالم الآخر، ورسوخها لا في الثقافة العربية الإسلامية وكفى بل في كل الثقافات...

جلبة وصياح وزغاريد آتية من بعيد.. وصل الخبر بوصول مبعوث عن قائد الجيش الفرنسي الذي كان قد أحاط فجأة بالدوار كما يحيط الخاتم بالأصبع. قال المبعوث لمرافقه وهما يسيران وسط حشود من المقاومين والصبيان والنساء والأعلام والزغاريد وأناشيد الحرية والمجد:

ــــ اسْمَعْ... إن هؤلاء المغاربة الجهلاء يحاربوننا بسلاحنا.!..

ــــ لا أرى لديهم أي سلاح يشبه سلاحنا، فبالأحرى أن يكون سلاحنا في متناولهم.

ــــ ألاتراهم يثورون علينا مستعملين شعارات ثورتنا الكبرى الخالدة؟!...

ــــ آه... فهمتك... سندمرهم رغم ذلك... وإلا دمرونا وطردونا من ديارنا بحجة أننا مستعمرين ونخاسين.،. وما شئت من الأسماء والألقاب..وإذا ما غادرنا هذا البلد فسيحتله غيرنا...أمريكا على الأبواب لا تنتظر إلا...

ــــ سامحني إذا ما قاطعتك..وأعتقد أن تقدمي في السن، وربما في التجربة أيضا، يسمحان لي بأن أقول لك بصراحة بأن وقتنا أصبح معدودا محسوبا في هذه البلاد... ومن الأحسن أن نتهيأ للرحيل منذ الآن... وأخال أن مرحلة تاريخية جديدة ترتسم في الأفق... ألا تحس بالتناقض في شخصيتك الصميمية العميقة؟!.. ألا تشعر بالضياع والتمزق؟!..كيف يمكن أن ننكر على هؤلاء المغاربة مطالبتهم لنا بالحرية في الوقت الذي ما فتئت فيه فرنسا تطالب بالحرية لها ولأبنائها بعد هذا الدمار النازي الرهيب المتدفق على أوروبا كما لو كان طوفانا...

ــــ لا تصلح أن تكون جنديا!. أتقول هذا الكلام ونحن بين صفوف العدو... ونتأهب لمفاوضته... بل لمواجهته..؟!

ــــ كلامي لا يتناقض أبدا مع إخلاصي لفرنسا ومصالحها في العالم... لقد جبت العالم : فيتنام، الشرق الأوسط، التشاد، تونس، الجزائر، مدافعا عن علم فرنسا الخالدة وسأبقى سائرا في هذا السبيل إلى الأبد... بيد أن ذلك كله، لا يمنع جنديا يقظا مثلي من الانتباه لتغير الظروف والأحوال والأوضاع... لذلك أنصحك بأن نجد مخرجا مشرفا لنا من هذا المأزق، وإلا تحول المشهد كله إلى مشهد حمام دم...

سكت الجندي الآخر... مسح جبهته بحركة آلية... ورأى الأطفال الصغار منتشرين في كل الأمكنة يحاصرونه بعيونهم السوداء المجللة بالدهشة والفزع...تذكر بألم ابنه وزوجته... ولكن ... للأسف أنا جندي... ولا يمكن أن أكون دون إطاعة الأوامر... كانا قد وصلا المكان المرتفع الذي منه يطل الجيلالي على الدوار برمته، سلما عليه فأدخلهما إلى كوخ القيادة... قدم لهما الشاي...

وغاصا في شعاب مناقشات وجدالات لا تكاد تنتهي... وبعد ساعة، خرج الوفد الفرنسي مكفهرا متوترا... وفي الطريق، كانت دمعات قد غلبت أحد الجنديين فسالت على خده وهو يهمس منفعلا « مجزرة أخرى... في سبيل لا شيء... ». وما إن وصلا إلى معسكرهما حتى كان الليل قد أرخى سدوله، فابتدأت المعركة.

تساقطت القذائف ممتزجة بالمطر على الاكواخ التي كانت تتناثر عناصرها المختلفة في الفضاء البهيم وقد اشتعلت نارا، لعلع الرصاص ممزقا الجو دون رحمة، وسُمِعَتْ أنَاتٌ عميقةٌ كأنّاتِ الموتى، وأنّاتِ النساء الحوامل وهن يضعن في كنف الحياة حيوات أخرى جديدة... ورأى الناس من الجانبين الموت يشرب الدم البشري رؤية العين...

وفي هذه الأثناء، كان السينغاليون قد أُمِروا بالزحف على الدوار... وكان الضباط الفرنسيون يتفرجون ويراقبون من بعيد، ويقذفون المواقع المستهدفة بالمدافع الثقيلة دونما مواربة أو رحمة... وبعد لأي كان السلاح الأبيض سيد الميدان. وكانت الخسائر تتكاثر من الطرفين... أجساد تتمزق. أعضاء تتناثر مرتعدة مرتعشة على الأرض وسط بركات الدم والماء والوحل. عيون جامدة محملقة في السماء... أياد ممتدة الأصابع إلى الأعلى جامدة هامدة. أسنان بيضاء ناصعة في أفواه مليئة بالدم. جسدان متعانقان كل منهما يعتمد في استمرار انتصابه واقفا أمام الجدار على الخنجر الذي يستمر في إدخاله في جسد الآخر... امرأة عارية ممددة في الوحل تغالب الموت والعار... صبي يرضع ثدي أمه الهامدة التي أدخلت يدها في أمعائها المتراكمة على حجرها... شيخ مختلط بالطين وقد انخلع حذاؤه من رجله اليمنى، وضاعت أصابعه... هرر ميتة وفئران ودجاج وغنم متناثرة الأشلاء هنا وهناك... مياه آسنة تنبجس من أحشاء الأرض، روائح كريهة كراهة الموت، نيران ودخان... صمت وسكون وبرودة ووجوم في كل ناحية وصوب... إنها النهاية...

في الصباح كان الجنود الفرنسيون قد دخلوا الدوار الذي تحول إلى خراب شامل، يبحثون عن الأحياء من الجرحى والمعطوبين، ويحصون الأموات

ويستفسرون عن أسمائهم، قبل إخلاء بعضهم إلى المقابر، وبعضهم إلى المستشفيات وبعضهم الآخر إلى المحاكم والسجون والمنافي.

قال الضابط الكبير ذو النياشين الذهبية آمرا :

ـــ أريد جثة الجيلالي... هذه صورته...

أخذ الجنود السينيغاليون يبحثون في كومة الجثث الهائلة المقامة وسط ساحة الدوار عن جثة الجيلالي. وبعد أن أصبح أسفل الكومة أعلاها انتبه أحدهم إلى وجه جثة خال انها الجثة التي يبحث عنها الجميع منذ مدة، تهللت أسارير وجهه والتمعت عيناه. لم تخطئ فراسته... كانت الجثة... جثة الجيلالي دون شك ولا ريب.

أمر الضابط الكبير ذو النياشين المتألقة فحص الجثة. كان الدم يسيل من ثقبة في الرأس على الوجه والكتف. بَيْدَ أنّ القلبَ لا يزال نابضا، والنفس لا تزال مترددة حارة. تحلق الجنود حول جثة الجيلالي كما يفعل الصيادون عادة حول طريدة استثنائية ثمينة، ولم ينتبهوا إلى امرأة مضرجة بالدم والوحل كانت تغالب جراحاتها الراعفة وهي تزحف نحو جثة الجيلالي منذ أن سمعت اسمه يتردد على شفاههم، فلا يظهر منها إلا عيناها الوامضتان بالرجاء والأمل. لكن دون جدوى... كانت بركة الماء أعمق من أن تتركها تتحرك بحرية. توحد دمها بالماء، وشعرت برطوبة الطين تسري في عظامها، وأحست براحة شاملة تجتاح كيانها وبسحابات ناعمة تتكدس في عينيها الواسعتين... عِمْ مَساءً آلجيلالي بن الطيب... وكيفما كان الحال فسوف نلتقي... لا أشك في ذلك لحظة واحدة... وإلا فليقتلعوا قلبي ، وليدمروا العالم ومافوق العالم... سنلتقي قلت لك... افتر ثغرها الشاحب عما يشبه بسمة ساخرة ماكرة... وسقط وجهها في ماء البركة وهي متشبثة بإصرارها على لقاء الجيلالي بن الطيب.

ـــ هذا الكلب لا زال حيا...

زمجر أحدالجنود غاضبا، وصوب مسدسه إلى جثة الجيلالي المنغمسة في الدم والوحل مستهدفا منها القلب. بيد ان الضابط منعه آمرا بأن تحمل الجثة الى المستشفى على وجه الاستعجال، وأن تنقد حياة الجيلالي قصد استنطاقه شريطة أن تصور جثته على هذه الحالة، وأن تنشر في الصحف التي ستتولى إعلان موته وهلاكه... وفعلا، نشر خبر موت الجيلالي في الصحف الفرنسية والوطنية

معا خلال اليوم الموالي بعناوين متنافرة متصارعة استعمل فيها صحافيو الطرفين كلمات موسومة بزمن الحرب والكريهة كالشهيد والبطل والثائر والمجاهد، والإرهابي والجبان واللص والخائن. وأقام له الوطنيون صلاة الجنازة في مسجد مولاي ادريس بعد ان تسلموا جثة مشوهة ادعت سلطات الاحتلال أنها جثة الجيلالي. وفي موكب رهيب تخللته الشعارات الوطنية المطالبة بالاستقلال والحرية، مجلل بزغاريد النساء المطلات من أعلى السطوح المشرفة على «الطالعة الكبيرة»، حملت الجثة إلى مقبرة «باب محروق» قرب ضريح لسان الدين بن الخطيب حيث دفنت وسط خطب الزعماء وقصائد الشعراء وعويل الأبوين والأصدقاء وتراتيل الفقهاء والمجودين... بخور العود والند والجاوي المكاوي تملأ أرجاء المقبرة على رحابتها فلا تظهر منها إلا شواهد القبور الحجرية البيضاء المنهمكة في حوار سري مع السماء.

كانت إصابة الجيلالي خطيرة تركت بعد شفائها حفرة في جمجمة رأسه إلى الأبد. بيد أن تشبثه الغريزي بالحياة، وبنيته القوية المتينة، واكتشاف جثته المبكر، كل ذلك مكنه من مقاومة الموت.

وبعد مدة وجيزة من هذه الأحداث الدموية الرهيبة، قررت سلطات المدينة محو كل أثر للدوار بعد أن تأكد لها موت سكانه عن آخرهم... مات أب الجيلالي غما وكمدا وتبعته أمه وهي تردد بحرقة اسم ابنها الذي أحبته حبا لا نظير له، وتعرض ملف الجيلالي لحريق شب في أحد مكاتب الاستعلامات الاستعمارية إثر عملية فدائية، فلم تتبق منه إلا بضع صور لا تعني شيئا كثيرا، ونودي على القيّمين على قضيته التي لم يبق لها إلا قيمة رمزية إما لشغل مناصب أخرى في باريس، أو لشغل مناصب أرقى في مستعمرات فرنسا بالهند الصينية... وهكذا مات الجيلالي موتته الرمزية الأخيرة ...

- 4 -

مرّت شهور طويلة منذ أن أُدْخِلَ الجيلالي بن الطيب إلى المستشفى وهو مغمى عليه، لا يعرف للزمن معنى، ولا يميز بين ذاته والأشياء وأشكال الحياة المحيطة به. يعيش في اختلاط سديميّ لا حجمَ له ولا لونَ ولا رائحة. وعندما فتح عينيه ذات صباح مثقلا برائحة الكحول والبوض، وجد نفسه في حجرة ضيقة أشبه ما تكون في صمتها وبرودة جدرانها بالقبرحتى خُيِّل إليه للوهلة الاولى أنه بُعِث في قبره للحساب والعقاب... وشعر بالجوع يعتصر أمعاءه حتى لكأنه صام الدّهر برمته. كاد يصرخ طالبا مساعدته على الوقوف من مضجعه، بَيْدَ أنه أغلق فمه وتكور على نفسه، وجال ببصره في الغرفة محاولا التعرف على مكان وجوده.

كانت الغرفة مطلية بصباغة بيضاء يتدلى من سقفها العالي مصباح كهربائي يتقيئ نورا أصفر اللون. وفي زاوية منها تراءى له المرحاض وصنبور الماء ولوازم النظافة، وفي الزاوية الاخرى رأى كراسي قديمة يعلوها قليل من الغبار، وقصاصات جرائد، ونفايات سجائر، وقطرات من الدم اليابس على الجدار والورق... ارتعدت فرائصه... نَزَتْ مَسامُّ جلده بعرق بارد... وداهمته الهلوسات والكوابيس من كل حدب وصوب. نهض من فراشه معتمدا على الجدار... وخطا خطوات نحو الباب الموصَد أمامه. لم تقو ركبتاه على احتماله فتداعى جسمُه على الأرض كما لو كان عمارة قديمة... عشبٌ أخضر ينبجس من ظلمات أرض رملية ممتدة إلى حيث يلتقي أديمها الأصفر بزرقة السماء، ينمو ويتكاثر بمتواليات هندسيّة مذهلة إلى أن يغطي بخضرته الأرض والفضاء فيتماهى الوجود بالأخضر. حسناواتٌ من مختلف الأجناس يبزغن من قلب الأخضر في كامل زينتهنّ وهنّ يرقصن فتهتز خصورهن

البديعة، وتتعالى أثوابهن الحريريّة بألوانها القزحيّة كاشفة عن أجسام غضة طرية متناثرة ذيولها في أرجاء الكون. ومن تحت أرجلهن الناعمة تنفجر أنهار من الخمر الحلال والعسل والحليب والجعة والعطر، ونافورات من الذهب والألماس والدنانير والدراهم والأوراق البنكيّة من مختلف الأشكال والألوان والفئات، ولمختلف البلدان والقوميّات والثقافات... صفوف متراصة لا أول لها ولا آخر من الرهبان والأئمة والأحبار كل بلباس ملته تنتصب فجأة في الأخضر محيطةً يمنةً ويسرةً بصف الحسناوات وهن يرقصن على نغمات الجاز وأحيدوس والروك والهيت وبيتهوفن والموسيقى الاندلسية، بأجسام تتلوى كما تتلوى الأفاعي وفق إيقاع الطبول والغيطة في حلقات جامع الفنا. جسد أنثوي مغربي، جسد فرنسي، جسد إنجليزي، إيطالي، إسباني، برتغالي، إفريقي، أمريكي، صيني، ياباني،، جسد جسد... كل الطرقات تؤدي إلى الجسد واللذة والشهوة والرجاء والرعب والألم والدم والموت والاستشهاد... بَيْدَ أنَّ لكل جسد طقسه وعبيره ونكهته... بل... ولكل جسد بهاؤه وثقافته. ساعات وخرائط وبوصلات وأسطرلابات وأشرعة تبدو في أقصى الأخضر تقترب من مرأى العين فتكبر وتتضخم وما إن تبتعد في اتجاه الجهة الأخرى، في أقصى الأخضر، حتى تنكمش شيئا فشيئا إلى أن تصبح نقطا، ذرات، عدما.

انفجاراتٌ، نيرانٌ، قبّعاتٌ حديديّة رماديّة تسطع في الأخضر. أجسادٌ تنفجر في الجو الأخضر كما تنفجر الشهب الاصطناعية فتتساقط شذرات اللحم حمراء مرتعشة على السطوح الخضراء، والصوامع والكنائس والبِيَع والمسارح السابحة في الأخضر منذ الأزل. تحسس الجيلالي لحم جسده... تعالى صرير حاد في الباب الحديدي. تسلل ضوء الشمس من الباب ممتزجا برائحة التبغ والجعة. شعر بيد باردة تتحسس جبينه، وتضغط على معصمه لأياً من الزمن. استجمع قوته وفتح عينيه وهَمّ بالوقوف بَيْدَ أنّه لم يقو على ذلك. حملق في الجنود الثلاثة الذين كانوا يتفحصونه بعيون فضولية. غاب أحدهم ثم أحضر صينيّة التَهَم الجيلالي مافيها من مأكل ومشرب دونما شعور ولا تمييز.

ـــــ من أنت؟...

قال أحد الجنود بصوت خشن وهو يجلس على كرسي واضعا ظهر الكرسي أمامه.

ـــــ أنا ؟!...

قال الجيلالي مفكرا، قلقا، وهو يحاول صياغة جواب... تسعفه الأفكار ولا تسعفه العبارات، فتغيم الأفكار في رأسه وتختلط مثلما تختلط الألوان وتتلاشى في متاهات مجللة بالسواد... لم تكن تسعفه اللغة... بل وجد نفسه لا يتقن الحديث بأية لغة... تتوارد على ذاكرته ولسانه بضعة كلمات وتعابير مقتضبة بالعربية والفرنسية وأحيانا أخرى بالاسبانية... لغته... خليط من لغات العرب والعجم... «ياللهول» قال في نفسه... ثقيل لسانه كالصخرة... آثر أن يتحدث بالإشارة... ولما تيقن من أن خطاب الإشارة عاجز عن تحقيق أي تواصل حقيقي بينه وبين هؤلاء الجنود، اضرب صفحا عن أية محاولة للتواصل. فأصبح شيئا من بين الأشياء العديدة التي تقتحم وجوده من كل حدب وصوب، لولا المعاني العميقة التي تمور في عينيه المعبّرتين الذكيّتين الواسعتين. ومنذئذ أصبح همّ الاطبّاء والمعلمين تعليمه اللغةَ الفرنسيّة... ولما وجدوا لديه استعدادا لتعلم العربية والإسبانية، وحصيلة من مفردات و تُراكيب هاتين اللغتين، جعلوه مختبرا علميّا حيّا لنظرياتهم الفيزيولوجيّة والنفسيّة والطبيّة معا... لا يغادر المستشفى إلا لحديقته، ولا يتصل بأي أحد من الناس ماعدا الأطباء والعلماء والمعلمين المهتمين بحالته. وبعد شهور عديدة أُحِيل على مصلحة المخابرات في الجيش.. وهكذا وجد الجيلالي بن الطيب نفسه يعود من جديد إلى نفس الغرفة التي كان جنود الاستعلامات قد شرعوا فيها في استنطاقه، وهي غرفة توجد في إحدى ثكنات «بلاص دارم» التي عرف فيما بعد أنها توجد بمدينة مكناسة الزيتون، وأنها مخصصة هي والغرف المجاورة لها لاستنطاق المتمردين على السلطة...

بدأ الاستنطاق عسيرا ثقيلا ممضا. كان الجيلالي يرتدي بنطلونا أسود، وحذاء عسكريا خشنا، وقميصا أبيض ناصع البياض ينفجر بياضه تحت أشعة المصباح الكهربائي المتدلي وسط القاعة .وكان جالسا على كرسي قديم بينما كان جنود الاستعلامات يحيطون به كالخاتم بأصبع اليد لا يبدو من أجسادهم تحت أشعة المصباح إلا وجوههم وأيديهم وبعض الأجزاء من أحذيتهم السوداء اللامعة.

ـــــ ها نحن نعود من حيث ابتدأنا قبل شهور عديدة... وفي هذه المرة، لا تختفي وراء أعذار واهية كأعذار المرة الماضية... أنت تستطيع حسب التقرير

الطبي الذي بين يدي الآن أن تتحدث لا بلغة، بل بلغات... نريد أن نطوي ملفك... أن ننتهي منه... لذلك أجب بسرعة، لايهمنا بأية لغة، المهمُ أنْ تجيب بصدق... ولا تراوغنا... فمبقدورنا أن نقتلع اعترافاتك باقتلاع أسنانك وأضراسك... من أنت... قلت لك من أنت... قال الضابط بنبرة حادة غاضبة وهو يمسك بشعر الجيلالي بن الطيب مهددا باقتلاعه...

ـــ أنا...

ـــ نعم أنت... من أنت... ما اسمك ؟!

ـــ أنا...أنا... لست...

ضحك الجنود ساخرين. أما هو فأردف مستسلما حائرا :

ـــ لست أدري... لست أدري !!

ـــ لا تعرف من أنت...

ـــ أوَ تجهل حتى اسمك يابن ال....

ـــ تقيّأْ اسمك وإلا لفظت أنفاسك ...

ـــ لا أعرف... لا أعرف اسمي... ويْلاه !!.

ـــ أتدعي أنك تجهل حتى اسمك.؟؟..

ـــ وأنا أتمزق أسى بسبب ذلك... أنا لا أكذب... والله إني...

ـــ على الأقل تذكر اسم أبيك... أمك... إخوتك... زوجتك... أولادك إذا كان لك أولاد... مكان ازديادك...

ـــ والله لا أتذكر شيئا... يُخَيّل إليّ أنني « مقطوع من حجر »... ليس لي أب ولا أم ولا زوجة ولا أولاد... ولا مكان ازدياد لي...

ـــ أريد أن أعرف أيها السيد « الحجري » ما إذا كنت نسيت أهلك أم إنك في الأصل بلا أصل...

قال الراوي :

عندما ذكر الجندي هذه العبارة الساخرة :« السيد الحجري » اقشعر بدن الجيلالي بن الطيب تلقائيا واختلطت عليه الأزمنة والأمكنة وانثالت عليه الصور والكلمات والأصوات من مختلف الحضارات والأعراق والأجناس والديانات إلى أن رست هادئة أمام بصره على أسوار غرناطة وهي تنام نومتها الأخيرة تحت سماء ليليّة مضرجة

بحمرة قانية تحاكي ما أريق من دماء بني الأحمر. ووجد نفسه أمام باب غرناطة... باب هائل مصفح بألواح حديدية مفضضة، مرصع بمسامير ضخمة من البرونز، منغرس في كتلة هائلة من الرخام والزليج والحجر المنحوت بمهارة فائقة... شعر برهبة هائلة بسبب عظمة المشهد وسكونه الشبيه بسكون المقبرة. انفتح الباب محدثا صريرا فتأهب للدفاع عن نفسه... بَيْدَ أنه اكتشف ألاَّ أحَدَ من الحراس موجودٌ بالباب. وكلما توغل في أزقة المدينة كلما استغرب من خلوها من السكان. شعر بالوحدة والعزلة. وأخذ يسرع الخطى باحثا عن الناس مهما كان الثمن. هو يعرف أكثر من غيره فداحة الثمن الذي عليه أن يدفعه إذا عثر عليه سكان المدينة ...عليه أن يختار إما أن يكون مثلهم، نسخة طبق الأصل، وإما أن يموت حرقا أو أن يُهَجَّرَ من الحجر الاحمر إلى المغرب عبر سبتة وطنجة. وفي هذه الحالة، عليه أن يترك أبناءه الصغار في ذمة الدولة تربيهم ليكونوا نسخة طبق الأصل من رعاياها. وعليه أن يواجه أهوال البحر وقرصانه الذين لا يدينون إلا بالذهب... انتبه إلى أنه لازال يلبس كسوة عربية من الحرير الازرق المطرزبخيوط الذهب فاستبدلها في الطريق بكسوة الإفرنج. ووضع في عنقه سلسلة فضيّة تنتهي عند الصدر بصليب ضخم لا تخطئه العين. ثم وضع في فمه لغة أهل الفرنج، وإلاَّ «فكيف الخلاص والنصارى تقتل وتحرق كل من يجدون عنده كتابا عربيا أو يعرفون انه يقرأ بالعربية». وعندما وصل إلى ساحة القصر الفسيحة ناداه أحد معارفه :

ـــ حسنا فعلت ياأحمد بن القاسم الحجري، يا أفوقاي، حسنا فعلت. فهذا الصليب سيحفظك من هؤلاء القوم ببركته كما حفظ السيد المسيح!

ـــ صليبك ياصاحبي أكبر من صليبي وأمتن... أَتْفُو على هذا الزمن العقيم الرديئ!! الظاهر أن الواحد منا يضطر فيه إلى أن يعيش منشطرا إلى أكثر من شخص، مزدوَجاً مثلثا مربّعا مخمّسا ومسدسا. تتصارع الشخوص المتنافرة في الواحد منا وتتصالح وتتهادن، ونعوي من الألم ولا من يسمع عواءنا. جوعُنا إلى الألفة مع بني الإنسان لا حد له ولا نهاية، كيفما كان اللون والعرق والمعتقد...

ـــ أتدري لماذا اجتمعت المدينة كلها في هذه الساحة ؟..

ـــ كنت في «بلنسية»... لا علم لي بما حدث...

ـــ لقد وجدوا تحت أنقاض المسجد الذي هدموه آثارا لكنيسة قديمة، وفي الكنيسة وجدوا غارا، وفي الغار وجدوا صندوقا، وفي الصندوق...

ـــ وجدوا جربوعا...

ـــ لا ! بل صندوقا من رصاص، وفي الصندوق وجدوا رقا مكتوبا بالعربية والعجمية المتصرفة في بلاد الأندلس، ونصف خمار الصالحة مريم أم سيدنا عيسى عليه السلام، وعظما من جسد(أحد الصلحاء) عندهم. فأما ماكان في الرق بالأعجمية فقرئ، وما كان بالعربية فلم يقرأ لجهلهم بالعربية، فنادى كبيرهم على المترجمين فلم يشفوا غليلا، فسمعوا بحذقك للترجمة في مختلف الألسن، فبحثوا عنك فلم يجدوك إلى أن أتى رجل منهم يخبرهم برحيلك إلى المغرب خفية متنكرا على متن سفينة تجارية... وأوّل بعضُهم الخبرَ تأويلا مغرضا يفيد بأنك ذهبت موفَدا من قِبَل الأندلسيين إلى السلطان زيدان مستنجدا مستجيرا، وبعضهم ادعى أنك ذهبت إلى «لاهاي» لمقابلة ملك هولاندا مستنجدا به محاولا اقناعه بالتحالف مع الأتراك، ومع مملكة السعديين ضد إسبانيا... فثارت ثائرة القوم... وهم كما ترى لا كما تسمع... وليس من رأى كمن سمعا...

جال أحمد بن قاسم الحجري ببصره في المكان الفسيح المحيط به وبصاحبه. قصر بديع الشكل، حدائق غناء، وساحة فسيحة نظيفة... وجماهير غفيرة من سكان المدينة تصيح في الساحة بصوت واحد وقد غطى الزبد أفواهها ببياضه الناصع : ليمت من يخالفنا الرأي والزي والمعتقد واللسان... الموت للعرب واليهود... ولم تهدإ الجموع إلا عندما ظهرت الملكة والملك في شرفة القصر ملوحين بأيديهما معلنين قرارهما بترحيل جميع الأندلسيين من إسبانيا إلى المغرب مؤكدين على أن كل من» اكترى سفينة ليمشي لبلاد المسلمين أن يأخذوا لهم كل من كان من أقل من سبع سنين من الأولاد والبنات، وأخرجوا كل من كان في عشرين سفينة. وأخذوا لأهل الحجر الأحمر نحو ألف من الأولاد. وكل من جاز على طنجة وسبتة، فأخذوا لهم أولادهم مثل الآخرين...».

وقرر أحمد الحجري عندئذ أن يرحل إلى المغرب سرا. وأن يتماهى بكل ذرة من ذرات ترابه، وكل نسمة من نسماته، أن يساكن الريح والشيح والقمر، و يسري في الماء والنسغ والدم... وأن يعلن إضرابه عن الترجمة...

- 5 -

ـــ ما بِك أيّها الوغْد... كفى شرودا... أَلَمْ تَسْمَعْ كلامي.. حسنا سأصرخ الآن في أذنك مباشرة: أنت مقطوع من حجرة، ليكن... أريد أن أعرف أيها السيد «الحجري» ماإذا كنتَ نسيتَ أهلك أَمْ إنّك في الأصل بلا أصل... أجبْ إذن...

ـــ لا أعرف... يُخَيَّل إليّ أنني بدون أصل، وإلا فكيف لم أجد من أهلي من يقف إلى جانبي، ويسأل عن أحوالي...

ـــ وإذن أنت أيها «الحجري» معجزة هذا الزمان .!!!.. بل كل زمان منذ نزول آدم من عدن إلى اليوم... أَوَ تكون أحد رجال الكهف ونحن لا نعلم؟!. أنت تستغبينا لا شك في ذلك أيها المعتوه.!.. ياابن ال...

ـــ والله إنني أقول الحق .. إنني لا أتذكر شيئا عما تسألون...

لقد انتظرناك ثلاث سنوات طويلة لتستفيق من إغمائتك التي شممنا فيها مرارا رائحة الموت... انتظرناك ثلاث سنين قلت لك... أتسمعني... ثلاث سنين... تبدلت فيها الدنيا رأسا على عقب... وبعد هذا الانتظار الطويل تفتح عينيك لتبقى ذاكرتك في ديجور عوالم الغيب والنسيان واللامحدود...

ـــ لتزعم دونما استحياء أنك لا تتذكر حتى اسمك... أنك بدون هوية... وأنك بدون انتماء .!!..

ـــ إذا كان لي إسم، وكانت لي هويّةٌ وانتماء، فقد نسيتُ ذلك كلَّه... ولم أعد أتذكر شيئا... ثقوا بي... والله إنني أقول الحق.!!.

ـــ ما دينك ؟..

ـــ لست أدري !!..

ـــ ما عَلَمُك ؟..

ـــ إنك تحرجُني وتمعن في إيلامي... قلتُ لك ولهؤلاء السادة إنني لا أعلم شيئا عن كل ماتسألون... إنني لا أدري.!. لا أدري.!. ويلي... إنها الكارثة!!...

ـــ الكارثة هي التي ستعانقها بعد قليل إذا لم تصارحنا كافا عن استبلادنا يا ابن ال...

ـــ ما علاقتك بشبكة «انطونيو» لتهريب الكيف ؟..

ـــ إنني لا أعلم عمن تتحدثون... صدقوني .!!.

ـــ أو لست إسبانيا...

ـــ لا أدري... مالذي جعلكم تظنون ذلك...

ـــ لون بشرتك... وطريقتك في الحديث... تستعمل يديك وملامح وجهك وتنفعل أثناء الحديث كالإسبان تماما... أقصد إسبان الجنوب... الاندلس ! سبتة ! مليلية !!

ـــ ثم بالاضافة إلى هذا وذاك، لقد عثرنا عليك في المستشفى ملقى مع مجموعة من جرحى وقتلى عصابة «انطونيو» بعد اشتباكهم مع البوليس.. كنت تنازع الموت، عاريا كما ولدتك أمك... سألنا عنك بعض الأحياء من العصابة فادعوا عدم معرفتك...

ـــ وددتُ لو متُّ واسترحت... سئمت من وضعي... فلا أنا حيٌّ ولا أنا ميّت...

ـــ بحثنا عمن يعرفك في المدينة، فلم نعثر على أحد.. مخبرونا من الأهالي أكدوا لنا أنك أشبه ماتكون بأحد الارهابيين الذين قتلوا في معركة «دوار لاحونا»...لا... بل «دوار الرجا في الله»..

ـــ بربكم ... ما اسمه .؟!!..

ـــأنت الذي تستنطقنا أم نحن ؟!!.

ـــ اخرس أيها الوغد .!!..

ـــ عفوا ! لم أقصد إزعاجكم... أنا معذور إذا كنت أتصرف بهذه الطريقة... أنا نفسي... أريد أن أعرف من أنا... ألا تصدقوني... ما اسم هذا الذي يشبهني، وما حكايته.؟!!..

ـــ إنه عدو لفرنسا... إرهابي مغربي من الحزب الوطني... وعميل للألمان...

ـــ ومن هم الألمان ؟!!!

ـــ أنت عميل ألماني... من الذي مدكم بهذه الأعلام الألمانية أثناء شغبكم الوحشي.

ـــ لا أعلم عمن تتحدثون بالضبط... الكيف... الحزب الوطني... الإسبان... الألمان...؟!!!

ـــ ألا تعلم لماذا أنت هنا؟...

ـــ وأين أنا !؟

ـــ أنت في السجن العسكري، الداخل فيه مفقود والخارج منه مفقود...

ـــ ماذا فعلتُ لكي أدخل هذا السجن...

قهقه الجنود مستهزئين... ونهره أحدهم محذرا إياه من استغبائهم مرة أخرى. بينما لكمه أحدهم على خده وهويتميز من الغيظ. غطى الدم وجه الجيلالي الذي سقط على الأرض وهو يتلوى من شدة الألم. وكاد الجندي أن يجهز عليه بحذائه الأسود الثقيل لو لم يتدخل الضابط في الوقت المناسب صارخا:

ـــ إننا نريد استنطاقه لإغلاق ملفه بعد هذه المدة من الانتظار، لا قتله. أتسمعني أيها الوغد !

ترنح الجندي إلى الوراء مذعورا، ماسكا قبضته الضخمة براحته، ككلب نهره سيده. وخرج من الغرفة وهو يهمهم ويزمجر ويزبد ويرغي...

أخرج الضابط من ملف بلاستيكي صورة فوتوغرافية ودفعها في وجه الجيلالي :

ـــ قل لي ما اسم الشخص المرسوم في الصورة ؟

ـــ هذا انا... قال الجيلالي... بَيْدَ أني لا أعرف الإسم...

ـــ لا تعرف الإسم.؟. ياالرب.!. هل تريدنا أن نعذبك فقط لتبوح لنا باسمك الذي نعرفه مثلما يعرفه غيرنا من أمثالك... فليكن... أنت لا تعرف إسمك...

فتح الجيلالي فمه لكي يطلب تعريفه باسمه، بأصله وفصله، وبتاريخه القريب والبعيد إن كان لأمثاله تاريخ حقيقي، غير أن الضابط قاطعه مستطردا وهو يخرج من الملف مجموعة أخرى من الصور ويضغط عليها في يد الجيلالي:

ـــ علق على الصور التي بين يديك واحدة واحدة... هيا... ابتدئْ...

قلب الجيلالي الصورة الاولى بين يديه مندهشا... ربما يكون في زمن آخر قد رأى منظر هذا الحي ـــ الدوار، ربما، لأن عددا من أمكنته وأشيائه تدغدغ الآن

كيانه فيشعر بحنين عميق دافئ إليها، وكأنما هي تسكنه منذ الأزل... لكن ما اسمه وفي أي زمن عاش في دروبه الضيقة الملتوية، تبًا لهذه الذاكرة التي أبت أن تعود بعد عودته... لكأنه يستنشق رائحة السمك المقلي، رائحة «الدوّاز» و«البقُّولة» والفلفل المشوي على ألسنة نار الفحم المستقر على رماد مجمر الفخّار. لا شك أنه عاش هنا ردحا من الزمن، بين هذه الغرف الطويلة المديدة، هذه «الشامريات»، ذات السقوف الأردوازية التي هجرها جيش الاحتلال قبل أن يتقاسمها فقراء المهاجرين من الأرياف فيما بينهم على شكل أكواخ متلاصقة متداخلة. ها هنا، في هذه الساحة كان أطفال الحي يلعبون كرة القدم المصنوعة بقطع القماش والورق والقنب. وفي ذلك الركن كان ينزوي عمي... ما اسمه؟ ذلك الذي كان يقبع وراء كروسة الحلويات النهار كله وجزءا من الليل يبيع الحلوى والكيف والحشيش وأخبار الناس لمن تهمه أخبارهم. أمسك برأسه كأنه يعتصره، والقلق باد عليه. كان العرق ينز من مسام وجهه. ماذا سيقول لهذا المخلوق الذي لكأنما وُجِد في هذه الدنيا لإيلامه. زفر متأسفا ووارى الصورة خلف كتلة الصور ليفحص الصورة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة... كانت كل تلك الصور لأناس حميمين يشعر في أعماقه أنه عاشرهم، بيد أنه لا يجد في ذاكرته إلا الضباب كلما حفر للعثور على أسمائهم وصفاتهم وأحوالهم وعلاقاته بهم.

ـــ تكلم أيها الوغد.!. قل ما عندك .!. ما اسم الحي .؟. ما اسم الأشخاص الذين يبدون في هذه الصور؟! قل كل ماتعرفه عنهم .. وإلا أمرت بتعذيبك.. بقلع أضراسك وأظافرك !!!..

ـــ والله العظيم.!!..

ـــ أنظر هذه الصورة... قل... من هي هذه المرأة... ألا تعرفها هي الأخرى؟!!.

حملق الجيلالي في صورة المرأة، وشعر بحنين ممزوج بمرارة قاسية، والتمعت أمام بصره صورة جسد فاتن يتهادى وراء ستار مُضاءٍ أشبه ما يكون بستار خيال الظل. لكنه لم يستطع التعرف على صاحبته، صاحبة الصورة. ففرك أصابعه حائرا مرتبكا. وظل صامتا لا ينبس بكلمة.

ـــــ إنك لا تعرف... ولا تتذكر... طيب، سنساعدك هذه المرة، إنها ياسيدي صاحبتك طامو، تلك التي ضاجعتها في الوقت الذي كان فيه سكان الحي يضاجعون الموت بسبب عمالتك للألمان، وكراهتك لفرنسا... أتظن أن عيون فرنسا غافلة. إننا نعرف كل شيئ، كل شيئ قلت لك. فلا داعي لإضاعة الوقت باللف والدوران والكذب والتمثيل... ويجب عليك أن تعلم ـــــهل تفقه شيئا في الرياضياتـــ أن الخط المستقيم أقصر المسافات بين نقطتين...

كان الجيلالي يسمع كلام الضابط وكأنه موجه إلى انسان آخر لا يمت إليه بصلة. لا شك أن في الأمر سوء تفاهم وإلا عمن يتحدث هؤلاء... لكن، كيف يتسنى له إثبات حقيقته لهم بشكل جلي أوضح من ضوء النهار.؟!!.. كيف؟!. كيف..؟!. لم ينتبه الجيلالي إلى قبضة كفه اليمنى وقد امتلأت بشعر لحيته، ولا إلى الألم والدم والعرق... كان فريسة الدهشة والحيرة والقلق والاستغراب... من هي هذه ال«طامو»؟!.. هل سبق أن أدلت بشهادة لجلاديه تثبت هويته؟!. لو كان الأمر كذلك لما كان هؤلاء الجلادون في حاجة إلى استنطاقه بهذه الكيفية... لا يعدو الأمر احتمالين أحدهما أن تكون أقاويل جلاديه مجرد استنتاجات مختلقة من الصور التي يبدو فيها إلى جانب مجموعة من الناس في دوار من دواوير فاس حسب زعمهم، والآخر أن تكون ادعاءاتهم ناتجة عن شكوك انتابتهم إثر شهادة واهية أو على الأقل غير مقنعة أدلت بها هذه التي يسمونها طامو أو غيرها من الأشخاص الذين تظهرهم الصور إلى جانبه... لكن من هم هؤلاء.؟!. هل سبق له فعلا أن تعرف عليهم.؟!. متى.؟!. وكيف؟!.. هل هو في حلم أم في يقظة.؟!!. هل هو المجنون المعتوه أم هؤلاء هم المجانين؟! أم إن الدنيا بأجمعها أصبحت معتوهة مجنونة.؟!. ثمة سوء تفاهم... لا شك في ذلك...

ـــــ سيدي الضابط، أرجوك... في الأمر سوء تفاهم... أنا لست الشخص الذي تتحدثون عنه...

ـــــ لقد حفظنا بهتانك.!. نعرفك كما نعرف خطوط كفنا.. نعرف أصلك وفصلك ومذهبك وأتباعك... نريد أن نعرف منك فقط لماذا تحديت مبعوث الحزب غداة تمردك على فرنسا ورفعت صحبة أتباعك أعلام ألمانيا والمغرب في وجوهنا جميعا... لماذا.؟. ما علاقتك بألمانيا.؟. أتسمع؟!

ـــ سيدي الضابط. !!..

ـــ ما علاقتك بألمانيا قلت لك ...

ـــ اترك لي فرصة لأفسر لك ....

خذوه إلى الغرفة المجاورة... واقتلعوا اعترافاته بالكُلاّب...

أخذوه من يديه وجروه خارج الغرفة التي بقي فيها الضابط جامدا مفكرا مشدوها، تتقاذفه الشكوك من كل جانب، خاصة وهو يعلم من مخبريه، ومن قصاصات أنباء جرائد الحماية وجرائد الوطنيين، أن الجيلالي بن الطيب قائد تمرد دوار «الرجا في الله»، قد قضى نحبه متأثرا بجراحه. بل إن كل الجرائد نشرت صورجثة الجيلالي بن الطيب... وغطت جرائد الحزب الوطني مراسيم دفنه... وتحول قبره إلى مزار تتبرك به النساء الراغبات في ولادة الذكور دون الإناث... ومع ذلك كله، يجب أن يمضي التحقيق إلى نهايته. يجب... فلا أحد يستطيع التنبؤ بما يخبؤه الغيب والقدر... غياب الملف، والشبه الكبير بين هذا الشقي والجيلالي بن الطيب يقتضي أن يمضي التحقيق إلى نهايته... لا مجال للاستخفاف أو المغامرة... حك الضابط شعر رأسه الأشمط بعد أن خلع قبعته العسكرية الرمادية، ومسح العرق المتصفد من جبينه... وألقى نظرة عميقة من النافذة على الخارج حيث كانت امرأة تتعهد غسيلها الملون المنشور على أسلاك عالية... وكأنه بذلك يريد أن ينسى جو الغرفة الوسخة ناجيا بنفسه من قبضة هم رازح يخنق أنفاسه باستمرار... ولم يقم من مكانه إلا بعد أن تمزق صمت المكان بصراخ بشري عميق أشبه ما يكون بصراخ الوليد وهو يستقبل الحياة لأول مرة، وبصراخ الجريح وهو ينزف معانقا فناءه الأبدي. انزعجت طيور الصفصافة السامقة فرفرفت بأجنحتها في الجو الطليق مذعورة لا تلوي على شئ. وجمعت المرأة التي كانت في الساحة المجاورة غسيلها بسرعة مجنونة وتوارت خلف باب حديقة دارها الناصعة البياض. أما الضابط فقد اقشعر بدنه، وتعالى وجيب قلبه من الهلع وكأن هذا العويل الهادر الموجع منبعث من أغواره التي يطويها الظلام والنسيان. ونظر إلى سقف الغرفة بعينين شاردتين.. «من منا الذي يتعذب أكثر من الآخر أنا أم هذا الكائن الهلامي القذر؟ من منا الجلاد ومن منا الضحية حقا؟ عندما يمثل أمامي، يقابلني وجها لوجه، العين في العين، أسأله

ويجيب، أكون سيده بلا منازع! أما عندما ينسحق منه الجسم دون الإرادة رغم ألوان التعذيب و ضروبه الجهنمية، فالأمرمختلف، تماماتماما. صفع قفاه فجأة محاولا قتل ناموسة امتصت بعض دمه. ولعن قدره الذي طوح به إلى شمال إفريقيا ليلعب دور السيد على مسرح التاريخ. وتذكر فجأة جدل العبد والسيد الذي درسه في الباكلوريا ولم يحسن فهمه إلاّ الآن، في هذه الغرفة الجديرة بالمجانين، وفي نبرات صراخ هذا «المرُوكي» القذر إذا كان مروكيا فعلا؟!!»...

أخذ يدرع الحجرة ذهابا وإيابا في نرفزة واضحة انتهت به أخيرا إلى أن يأمر بالكف عن تعذيب الجيلالي بن الطيب وبإرجاعه إلى غرفته، وبإيصادها عليه إلى أجل غير مسمى.

تهالك الجيلالي على السرير مسترجعا وعيه بذاته متحسسا سائلا لزجا ما فتئ ينهمرعلى خده مختلطا بشعيرات لحيته الكثيفة. ورأى في ظلا م الغرفة ذاته وقد تحولت إلى خروف أبيض يتخبط في دمه. وأدرك أن دمه ينزف من رضة عميقة في رأسه، وأنه إن دام على هذه الحال فسيموت لا محالة.

لم يكن في هذه المرة، رغم مأساوية الموقف، راغبا في الموت، بل كان يسعى بكل ما يملك من قوة وعزم وتصميم إلى هزم الموت متشبثا بأهذاب الحياة وإن كانت أوهى من بيت العنكبوت. ولذلك فقد كفكف جرحه الغائر بقطعة من إزار أبيض، عثر عليه تحت وسادته. ومرة أخرى رأى في الجدار المقابل صورة الخروف الأبيض متخبطا في دمه. فاستجمع قواه جارّا جسمه نحو النافذة الموصدة المطلة على الساحة التي ألِفَ أنْ يرى فيها امرأة رشيقة القوام، تنشر الغسيل، وتختلس النظر إلى النافذة أحيانا، منذ أن استرجع وعيه بذاته خلال الأيام السالفة. وما إن دنا من النافذة حتى صاح بأعلي صوته مستنجدا مستغيثا. وظل على هذه الحال ردحا من الزمن إلى أن كَلَّ وَمَلَّ واصطكتْ ركبتاه وعَلَتْ غشاوة على عينيه فجثا على الأرض راكعا خائرا وصورة الخروف الأبيض لا تبرح مقلتيه.

صريرٌ في الباب... رائحة الجنّة... أضواءٌ ونسيمٌ عليل... وصوتٌ عذبُ النّبرات... هذه جنّاتُ عدْنٍ فأيْنَ أنهارُ الخمْرةِ الموعودةِ والأباريقِ والحورِ العينِ، والخمرة الموعو...د ...ة.

- 6 -

قال الرّاوي :

عندما اسْتَفاق الجيلاليُّ مِنْ إغمائِه، وجد المرأة الرَّشيقَة جالسَة على مَقْربة من سريره وقد استسلمت لغفوة عابرة. تأمَّلها في صمْتٍ وهدوء... كانت امرأة جميلةَ الوجهِ لا يُعَكِّر تناسُقَ تقاسيمِه الرَّقيقة إلا ندْبٌ غائِرٌ في حاجبها الأيمن... قمحية البشرة، عسليَّة العينين ينبعث منهما أَلَقٌ ساحِرٌ آسِر... ممتلئة الصدر، رقيقة الأصابع، ذات شعر أسود طويل أشبه ما يكون بشعر الغَجَريّات... كانت تلبس بنطلونا وقميصا من القطن الملوَّن مفتوحا من جهة الصدر على نَحْوٍ تنكشف معه أنوثة المرأةِ في أبلغ صورها. ولأمر ما استبدت به الرغبة إلى مراجعة الصور التي قذفه بها الضابط قبل قليل... كانت تلك الصور متناثرة على أرض الغرفة... تسلَّلَ من سريرِه وجمَعَها واحدةً واحدة... وأعاد رؤيتَها من جديدٍ، واحدة تلو أخرى، إلى أنْ وجد نفسَهُ أمام صورة امرأة شبيهة، في عدد من الملامح والسمات، بهذه المرأة الغافيَة بالقرب منه، تلك الصورة التي قال عنها الضابط إنها لطامو، طامو، طامو، صديقته... هكذا قال الضابط... هل تكون هذه الصورة لهذه المرأة.؟. وهل تكون هذه المرأة طامو حقا؟ وهل تكون صديقته؟.. أم إن الأمر لا يعدو أن يكون خدعة من إبداع مخيِّلة الضابط الحُبْلى بألوان المؤامرات والدَّسائس. لكن... من يدري ؟.. ربما كان عند هذه المرأة مفتاحٌ لِغزِه الغريبِ المحَيِّر... لو ثبت أنها طامو التي تحدث عنها الضابط، ولو ثبت أنها تعرفه حق المعرفة لأصبح ليلُه نهارا، وشكُّه يقينا، ونارُه برداً وسلاما...

اقترب من المرأة حتى شعر بحرارة أنفاسِها على وجهه... فاستفاقت في هدوءٍ مبتهجةً من رؤية الجيلالي واقفا على رجليه، متماسكا...

ـــــ مساء الخير..!!.. أو صباح الخير..!!. لست أدري؟!. قالها الجيلالي متلعثما كمن يعتذر عن خطإ لا مفر منه...

ــــ مساء الخير! وهنيئا على سلامتك... لقد جئتك في الوقت المناسب... ضمَّدنا جراحَك جِلْسَة، ابنةُ الضّابط وأنا...

ــــ ابنة الضّابط؟ هذا الذي يَشْرفُ على استنطاقي وتعذيبي ؟!

ــــ نعم... والفضل يعود بعد الله لها... فهي التي جازفت بنفسها لإنقاذ حياة إنسان، قد يكون مظلوما...

ــــ وما الذي جعلها...

ــــ ببساطة... إنها تكره الظلمَ، وتكره الحربَ، وتكره الاستعمار... سواء كان استعمارَ الآخرين لبلدها أم استعمارَ بلدها لبلدٍ آخر...

ــــ وإذن هي فرنسيّة... وأنتِ؟ مَنْ تكونين؟

ــــ أنا؟ ... أنا كما ترى مغربيّة... من الحياينة... أخْدُم أسرةَ الضابط منذ مدة... وأنت..؟. هل تعرف من تكون ؟.. إن أسرة الضابط لا تعرف عنك إلا أنك سجين قيْد التحقيق، وأنك كنت فاقدا وعيك منذ سنوات خلت قضيتها بين الموت والحياة ... وأنك...

ــــ آسَفُ إنْ لم يكن لديَّ ما أقدِّمُه لكِ احتفاءً بِكِ... لا... بل هناك قنّينَةُ ماء وكوب... هل تشربين معي الماء ؟

ــــ بكل فرح... شكرا ...

ــــ أنتِ الجديرة بالشُّكر... ألَمْ يسبق لنا أنْ تعارفنا من قبل؟

ــــ لا أظنُّ ذلك ... غير أن ملامحَك تذكرني بإنسان مات منذ ثلاث سنوات في ظروف مأساويّة...

ــــ مات..! لم أكن أتوقع ذلك ... وإذن ليست الصورة لك...

ــــ عمَّن تتحدثْ... وعن أيَّة صورة...

ــــ لا شيء... لا شيء مطلقا... لا أعرف كيف أفاتحك في مأساتي... بل لا أعرف هل يحق لي أن أثق فيكِ باثا إليك همومي.. وما أدراني، ربما كنت...؟!!!

ـــ مخبرة .!!. قلها بصريح العبارة .. لا ياسيِّدي ،لسْتُ مخبرة ...

ـــسامحيني من فضلك... لم أقصد خدش مشاعرك... إنني في ورطة وهذا كل مافي الأمر ...

ـــ لست وحدك... إننا نقف إلى جانبك. ابنة الضابط واسمها ماري، وأنا...

ـــ وأنتِ... ما اسمُكِ ...

ـــ وهل يهمُّكَ اسمي...

ـــ نعم يهمُّني... أَلَمْ يَقُلْ لكِ أحدٌ إنَّكِ جميلة... بل ... فاتنة...

ـــ سجينٌ وغاوٍ.!!. ياللمفارقة! حسْبك مصائبك يارجل...

ـــ ليس ثمَّةَ مفارقة... أقصد أن الإنسان يكون في أمس الحاجة إلى الحب عندما تشتد مصائبه... هناك علاقةُ لزومٍ بين الحب والمصيبة، أو على الأقل بين الحب وصعوبات الحياة... أوَ ليس الحبُّ نزوع إلى التوحُّد بالآخر والتَّماهي به قصد إعادة إنتاج الذات في المكان والزمان؟!... قولي من فضلك... ما اسمك.؟..

ـــ إسمي... كلارا ...

ـــمغربية... إسمها كلارا ؟!!!...

ـــ لا تَعْجَبْ من ذلك، فأنا...

ابتلعت المرأة كلامها فجأة عندما لمحت الضابط وجنوده هناك، بين أشجار التوت، في أقصى الساحة، وهم يقتربون رويدا رويدا بخطى ثابتة متناسقة لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، بنادقهم على أكتافهم، وأياديهم اليسرى تَصَاعَدُ في الهواء وتنخفض كما لو كانت يد رجُلٍ واحد. تصَفَّدَ العرقُ باردا من جسدها وأغمضت عينيها العسليتين الواسعتين على قطرتين مالحتين. حرائقُ تعوي ملتهمة سطوح الأكواخ والمنازل، مندفعة من الأبواب والنوافذ. قذائفُ تتساقط من كل حدب وصوب. أحشاءٌ تتناثر مع رذاذ الدَّم، بقرة تخور، أجسادٌ بشريَّة في كل مكان، صهيلُ فرس أبيض ذي غرة سوداء داكنة تتراقص ألسنة النار على ظهره وقد تعالت من سنابكه شرارات شبيهة بالجمر... دخانٌ دخان... ولا شئ غير الدخان. فتحتْ عينيْها وكأنها تريد أنْ تتخلَّص من وخْزِ الدُّخان والملح. وانتصبتْ واقفة مذعورة وجلة... سألها الجيلالي عما

أصابها مقتربا من النّافذة علّه يعثر على الجواب... وعندما أبصر الجنود قادمين كانت المرأة قد نطت من النافذة الخلفية وتوارت خلف صفوف الغسيل في الساحة الفسيحة.

بقي الجيلالي وحيدا، تعتصره الغربة والقلق، ممزقا بين رحيل المرأة وحلول الضابط وجنوده. ود لو بقيت المرأة معه إلى الأبد، واختفى الجنود من حياته إلى الأبد... بيد أن هذا العالم لايسير دوما وفق ما تطالبنا به الرغبة... ولو كان الأمر كذلك، لكنا أشبه مانكون بمومياءات الفراعنة، نعيش في راحة مطلقة لا تتميّز عن الموت الا بالتسمية. لا تتولد الحياة ولا تنقدح الدلالة والمعنى في هذا الوجود الملغز إلا من اختلاف الأشياء وتباينها، ومن توتُّر الإرادات بعضها ضد بعض من جهة ، وضد الواقع من جهة أخرى. ضرورات في كل مكان... معايير وقواعد... وعنف ضار لتكييف الرغبة مع القاعدة والضرورة... فهل الحضارة مجرد شكل من أشكال العنف، أم إنها العنف ذاته... وإلا كيف يمكنني أن أفهم ما قاله الضابط وكرره وهو في أوج جبروته وقوته بأن جنود فرنسا رُسُلٌ اختارهم التاريخ المعاصر لنقْل الحضارة إلى العالَم ونشْرِها بنيران المدافع وحِمَم الطائرات إنْ دعت الضرورةُ لذلك؟!. كيف يمكنني أن أفهم في الآن نفسه أنَّ هذه التي ضمّدت جراحي قبل قليل هي ابنةُ الضابط الذي أمر بتعذيبي وفلْح جَسَدي، وسحْقِ إرادتي.؟!!..

ـــ انْهَضْ أيُّها الكلب.. الضّابط قادم...

صاح الجندي بلهجة كورسيكيَّة وقد رفضَ البابَ وارتعد شارباه الكثيفان الممتدان إلى خديه على شكل سيوف قديمة...

ـــ مَنْ ضَمَّدَ جراحَك... قال الضابط متفحصا جسد الجيلالي بعيون ثاقبة كما لو كان يتفحص خرقة ثوب يود شراءها لابنته.

ـــ أنا... أنا الذي ضمّدتُ جراحي... لوحدي...

ـــ هذه المرة... لن تستطيع تحريك أصبع من أصابعك... من الأفضل لك أن تعترف... فنفْرَغ منك ومن ملفك... أرحنا واسترح...

ـــ ليس لديَّ ما أعترف به... لانني لا أتذكر شيئا... لا أتذكر حتى اسمي... كلما حفرتُ عميقا في ذاكرتي ،كلما لا أجد أمامي إلا اليباب والخراب...

ـــ أنت الجيلالي بن الطيب...

ـــ ومن هو الجيلالي بن الطيب الذي هو أنا ؟!!

ـــ اسمعتم ما سمعته .؟!.. أنت إرهابي... متوحش... عميل ألمانيا... تعمل ضد مصلحة بلادك ومصلحة فرنسا...

ـــ ثق بي سيدي الضابط المحترم... أنا لا أعرف عَم ولا عمَّنْ تتحدَّث!!..

ـــ اخرس .!!..

ـــ أرجوك ... دعني أقترح عليك مخرجا من المأزق الذي نحن فيه....

ـــ أنت فيه وحدك .!..

ـــ ألستَ تريدُ أن أُريحَكُم وأستريح .؟!..

ـــ إذن ستعترف..؟

ـــ نعم سأعترف بكل ما تريدونني أن أعترف به ... لأنني ببساطة لا أتذكر شيئا ولا أعرف لي مخرجا من هذه الورطة التي أنا فيها... وإذا كانت لي حياة قبل الآن فأنا لا أتذكرها جملة وتفصيلا... إنني أشعر كما لو أنني ولدت منذ بضعة أيام...

ـــ إذن هكذا !!؟..

ـــ نعم... هكذا... أؤكد لكم مرة أخرى... أنا مستعد للاعتراف بكل ما تريدون... وهذا «جهدي عليكم» !!!

ـــ حسنا... أنت إرهابي من أتباع جناح في الحزب الوطني يدعو إلى تحالف المغرب مع ألمانيا ضد فرنسا، خارقا بذلك عقد الحماية...

ـــ نعم أعترف صادقا مخلصا بأنني كذلك .!!..

ـــ أنت عميل ألماني... الأوراق التي بين يدي تفيد أنك تعرف رجل المخابرات الألماني المدعو «ويلهيلم كرافت» الساكن في «سلاج» ببطحاء فاس... وهو الذي يزودك بالنقود والسلاح والأوامر...

ـــ نعم... أعترف صادقا بأن هذا الخرا ... ما اسمُه...

ـــ كرافت...

ـــ نعم... نعم... خرافت... خرافت... يا إلاهي كيف غاب عني هذا الإسم؟!... هذا الخرافت الألماني أعرفه... وأعترف بأنني أعمل في المخابرات الألمانية تحت إشرافه...

ـــ وهو الذي دفعك إلى إثارة الفتنة في حي «الرجا في الله »... وتعرف أن دينكم ينص على أن الفتنة أشد من القتل...

ـــ نعم أعترف صادقا بأنني كذلك...

ـــ أنت... آلجيلالي... أشعلت الفتنة... وتسببت في قتل عدد من جنودنا وعدد من المغاربة...

ـــنعم... للأسف فعلت ذلك...

ـــ وأنت واحد فقط من عملاء ألمانيا الذين كانوا يستعدون لإثارة الفتنة في كل أنحاء المغرب... وأنت تعرفهم واحدا واحدا... ومعنا صورهم... عين فرنسا آلجيلالي لاتنام أبدا... وإلا ستكون غير جديرة بإنجاز مهمتها الحضارية في المغرب، وفي غيره من بلدان العالم المتوحش...

ـــ اعترف صادقا بأنني أعرفهم ... لكن... مَنْ هُمْ... اقصد... ما أسماؤهم... فأنا أعرف أسماء كثيرين...

ـــ الورياغلي... هذه صورته ..

ـــ أعرفه...

ـــ وبلافريج عمر...

ـــ أعرفه... أقصد تعرفت عليه في الشبكة ...

ـــ ومومن النحص أو الفحص أو الفحصي...

ـــ الفحصي... ومن لا يعرفه... كان بصيرا... أقصد أعمى... لا... بل يشوف الجزئيات والكليات... سامحني ياسيدي... مجرد خطإ لغوي...

ـــ وأحمد العفريت... والبوعزاوي المدعو النمس.. و بوشتى العظمة... و...

ـــكلهم...كلهم ... كانوا معي... وكنا نلتقي خفية متنكرين في لباس الشيخات مع هذا الخرا ... أقصد شرف الله قدرك ... ما اسمه ؟!!...

ـــكرافت .!!.كرافت .!!. أيها المخبول المهبول .!.. ألعنُ هذا القدرَ الذي جعلني أعرفك... انهَضْ من أمامي ... أيها الكاتب... مزق ما كتبتَه.. فهذا المنحوس... لا يعرف شيئا ... لأن الضربة التي تلقاها في رأسه أثناء تمرده على رأس سكان حيه يحتمل أنها ذهبت بذاكرته، وربما إلى الأبد... وقد يكون شخصا آخر لا علاقة له بالجيلالي بن الطيب ماعدا هذا الشبه

الفيزيولوجي الذي تشهد به الصور التي بين أيدينا... وإذا ما اعتمدنا فقط على الوثائق التي حصلنا عليها من المخبرين الأهالي، فإن كل الدلائل والإفادات تثبت بأنه ليس هو الإرهابي الجيلالي بن الطيب ...لأن هذا الإرهابي مات وقبره موجود قرب ضريح لسان الدين بن الخطيب قرب باب محروق، تزوره نسوة فاس الراغبات في إنجاب الذكور...

ـــ عاشت فرانسا لأنها أنجبت ضابطا ذكيّا متحضّرا ومُحَضّراً وَ« مُحاضِرِيّاً » مثلك...

ـــأخرس..!!. هيّا بنا... أوصد أيها الجندي..!. أنت.!!. لا... لست أنت.!!. بل الآخر..!! أوصِدْ البابَ جيّدا حتى يحضر الطبيب لفحص هذا المعتوه.!.

خرج الجميع من الغرفة ومعهم الجيلالي. وأوصد الجندي الباب قبل أن يفطن إلى وجود الجيلالي خارجه... أمسك الجندي برقبة الجيلالي، وفتح جندي آخر الباب وأغلقه بعد أن كان الجيلالي ملقى على الأرض داخل الغرفة يتلوى من الألم...

مرت أيّامٌ وأيّام وهو يتابع تتاليها على صفحة السّماء من تشقُّقات خشب النافذة، ويحصيها انطلاقا من إحصاء دخول وخروج الحرّاس ببعض المأكل والمشرب... تعوّدَ التصنتَ لِوَجِيبِ قلبِه المتماهي مع نبض الحياة السّاري في أدق كائنات الطبيعة. لحظتئذ أدرك ما كان يقوله الشيخ عبدالشافي الذي لم يكن يغادر مسجد القرويين وهو شاخص ببصره إلى السماء : « الإنسان كون صغير، والكون إنسان كبير». زاره الطبيب مرات ومرات... فحص رأسه طولا وعرضا وعمقا... استجوبه مرارا... وأخضعه لضروب وفنون من التجارب والاختبارات التي كانت تمتد على مدى ساعات مملة رتيبة تعلم خلالها الجيلالي قَسْراً تدخينَ كل أنواع اللفائف، وتجرّع مختلف أنواع العقاقير والمشروبات المخدِّرة والخمور... وبعدها غاب الطبيب دون أن يظهر له أثر، بعد أن أقر أن مريضَه فَقَدَ ذاكرتَه بسبب جرح عميق في رأسه، وأنه قد يكون إسبانيا، وقد يكون مغربيا عربيا... فاستخلص الضابط من ذلك كله أن

الرجل موريسكيٌّ مجهول النسب. أما الجيلالي بن الطيب فقد تيقن بعد هذه المعاناة المريرة انه الجيلالي بن الطيب حقا وصدقا، وأنه من الواجب عليه أن يسعى جهد المستطاع إلى أن يستعيد شخصيته الضائعة في مهب هذا الزمن الذي تعود ألا يطالعه إلا بماهو مؤلم مثير للحزن والأشجان.

مرت الأيام متواترة مرور حبات كحلية في سبحة شيخ متشح بحلم سديمي لا يعرف الحدود والدلالات. قضاها الجيلالي وحيدا غريبا وسط صمت ثقيل ممض أشبه ما يكون بصمت القبور. وانقطعت زيارات الطبيب ومعها زيارات الضابط وجنوده. لحظتئذ فهم الجيلالي أن ملفه قد طوي إلى حين، وأن قضيته في طريقها إلى الحل، وأن يد الزمن المستهترة قادرة على تغيير الأحوال، وتحويل المحال ذاته. كل شئ ممكن في هذه «الدنيا» العاهرة اللعوب، كل شئ فيها مشرَع على احتمالات لا حصر لها. الاحتمال الوحيد القابل للتحقق هو ذلك الناتج عن نِسَب القوى المتغيرة باستمرار بين إرادات الأفراد والجماعات، بين غرائزهم ورغائبهم المتنافرة المتناقضة. والمشَرِّعُ الوحيدُ لحياة الفرد والجماعة هو مَنْ يجد نفسه في موقع المهيمن داخل معادلات نسبة القوى بين الناس، إما بحكم الولادة والإرث، وإما بحكم إرادة القوة والمكر والدهاء واحتكار الرمز وبلاغة الخطاب وتكنولوجيا صناعة الأوهام والمعايير والقيم. هو وحده القادر على تحديد الحق، وتعيين الصواب، وتمييز السوي من الشاذ، والعاقل من المخبول والمعتوه والمجنون. هل من المعقول أن أجدني، أنا الجيلالي بن الطيب، سليل هذه الأرض الممهورة بعشق زمن البدايات الأولى، في وضع دوني يجعل الضابط الفرنسي وزبانيته ينعتوني بالجنون والشذوذ والتفاهة والبلادة... يُشَرِّعون هويَّتي كما يريدون ويشتهون، وفق مصالح بلدهم وجماعتهم؟!!. يقتلون القتيل ويمشون في جنازته. ومن يدري فلربما صنفوا ابنة الضابط في صنف المجانين والشاذين متى فطنوا إلى دورها الإنساني في إنقاذ حياتي، وتضميد جراحاتي، وبث الدفء في حناياي.

كان الجيلالي يلهث وراء أفكاره، شاخصا ببصره إلى السماء المتموجة بالصبير، وبقطع السحب التي طالما شكلها وأعاد تشكيلها وتأويلها وفق ما

يحلو له، وبأسراب اليمام وأمشاج الألوان الساحرة عند هدءة المساءات وغبش الفجر. ولطالما عبر عن تجربته الداخلية أثناء تأملاته الطويلة متفلسفا: إن المرء ليبقى طيلة حياته يجرى وراء أفكاره على النحو الذي يجري به الطفل وراء فراشاته، وما إن يَخَلْ أنه قاب قوسين أو أدنى من الإمساك بها، حتى تفلت من قبضته فيتهالك على نفسه خائبا وقد تبددت آماله وأوهامه. حينئذ فقط، وقد أصبح متحررا من كل وَهْم ومطمع وأمل، يدرك عزلتّه الحقيقيّة في هذا الكون البارد الصامت الميت، ويشعر بطعم الحياة الحقيقي، طعم الرماد ولا شئ غير الرماد... هل كان ممكنا للنوع الانساني أن يستمر في الحياة، متهالكا عليها، متنافسا متقاتلا، لو لم يكن منتجا بطبعه لما لا حصر له من الأوهام والمطلقات والغايات والمقاصد المغرية الغاويّة. هذا «الأبيوم» المتدفق من مخيال الانسان تلقائيا وبدون استئذان هو ما يضفي على الحياة غلالتها السحرية الجذابة التي بها، وبها وحدها، تصبح جديرة بأن تعاش. إن الحياة أشبه ما تكون بحوريات البحر... نعم... ذلك البحر الذي وجد «أوليس» نفسه حبيس أمواجه العاتية وظلماته المتوحشة المفجعة، حيث لاتمارس تلك الحوريات وجودهن التلقائي إلا من خلال أغانيهن الرخيمة الآسرة الساحرة. وما إن تتناهى تلك الأغنيات إلى آذان البحارة حتى تلتهبّ غرائزُهم، ويتدفقَ الدَّمُ في عروقهم، فتصبح الأمواج العاتيّة حمائم، وتصبح الأهوال مجرد لعبة آسرة، ويصبح مذاق الموت عسليّاً يغري بالمراودة ، ويصبح كل شئ تقع عليه الأعين ساميا نفيسا جديرا بالتملك والتبادل والمنافسة والاقتتال. وعندما تنتهي المعارك وتهدأ الأنفس وتقر الأعين إثر فوز البعض وتصفية البعض الآخر، يقترب الفائزون من الحوريات خائرين منهكين مبهورين وما إن تمتد أياديهم الملطخة بدم الإخوة لملامسة جسد الحوريات الغض الشهي الرائع وتجريده من ثيابه الحريرية البيضاء الشفافة حتى تنكشف الثياب، مع سقوطها على الأرض، عن أجساد هوام قميئة قبيحة كريهة، وتتحول الأغاني الرخيمة الهادئة الحالمة إلى عواءات باردة رهيبة... وشيئا فشيئا يحس البحارة الناجون من حمأة التنافس والاقتتال، ببرودة صامتة تنتشر في عروقهم وأعصابهم تتحجر على إثرها أجسادهم من أسفل القدم إلى أخمص الرأس. هكذا يتحول الجميع

إلى تماثيل تستمر في الوجود بلا وَهْمٍ ولا معنى ولا غاية ولا حب ولا كره ولا غواية... «أوليس» وحده هو الذي نجا... لكن... هل نجا «أوليس» حقيقة؟! أمْ إنَّ تلك النجاة لم تكن إلا وَهْماً ابتدعه الإنسان الأسطوري ليحجب به عن أعين مستهلكي المعاني والرموز حقيقةَ وجودِنا الصَّنَمِيِّ المتحجِّر البارد.؟!. وإلاَّ فكيف نفسر كون «أوليس» لم ينج من مصير أصحابه إلا لأنه ربط ذاته إلى ساريّة السفينة بألف رباط حتى أصبح متماهيّاً بها معطلا حواسه تعطيلا كاملا؟ ألاَ نفهم من ذلك أنَّ «أوليس» كان سباقا إلى التحجر والمسخ والتشيؤ رغم عقله لجسده وحواسه وغرائزه بألف حبل؟ ألم يكن سباقا إلى التشيؤ والتحجر بسبب ذلك العقل ذاته ؟!! وجود صنمي... حياة التماثيل... وتصور الجيلالي في ذهنه كل البشر وقد تحولوا إلى كائنات حجرية قدت من الصخر، وتتحرك على أديم الأرض بصعوبة بالغة... قهقه عاليا وصاح بملء فيه: ألم أقل لكم، بشهادة الضابط الفرنسي وتوقيعه، أن هذه الحياة عاهرة لعوب، وأن المقْبِلَ عليها فانٍ والمعْرِضَ عنها هالك.؟!!...

انفرط عقد تفكيره فجأة وتساقطت حبّات متلألئة أمام بصره كاد يلتقطها بأنامله لولا تلاشيها كفقاعات الصابون في الهواء، وزم شفتيه مندهشا مستغربا عندما انتبه إلى غرابة الوضع الذي هو عليه...وإلاَّ كيف يمكن أن ندعُوَ وضعا يفكر فيه شخص مثله تفكيرا لا يخلو من انسجام ونظام بدون ذاكرة ؟!!

شعر بحمى دافئة تسري في جسده، وأحس بطعم الرماد في فمه، وانتابته نوبة غثيان اهتز لها صدره، وامتقع وجهه ودمعت عيناه، وتهادت أمام مقلتيه الشاخصتين المتموجتين بالسواد والألق أطياف وردية فاتنة ملغزة ضواعة بطيب الجنان. نسي آلامه وأحلامه وتراجع إلى نقطة الصفر في كل شئ مستسلما لسحر أطيافه لاهثا في ظلمة غرفته كما لو كان راجعا لتوه من مسابقة العدو على رمال ساخنة. لا شئ إلا البياض. البياضُ وحده الحقيقة. وما عدا البياض ليس إلا وهما شبيها بأوهام سجناء الكهف...

في الصباح، طُرِقَ البابُ طرقا خفيفا. تململ الجيلالي في مرقده مجهَدا متأوها مفركا عينيه المغمضتين وهو يرى نفسه خارجا من بِرْكَةٍ يختلطُ ماؤُها

الأبيضُ النّاصعُ في الشّمْتِ البعيدِ مع صبير السماء الممتدة إلى اللانهاية. وأحس بضوء خافت يغشى بصره ليستقر بين المحجر والجفن، وبتوحد غريب ينعقد تلقائيا بين وجيب قلبه ودقات الباب.

ـــ من بالباب ؟

ـــ أنا.. . خادمة «ماري» ابنة الضابط...

انحبست أنفاسه، وذابت كلماته في فمه، وتعالى وجيب قلبه لا يدري أمِنْ خوفٍ أَمْ مِنْ فرح... وتهالك بكل جسمه على الباب مترددا بين محاولة فتحه ومحاولة إحكام إغلاقه.

ـــ تقول لك سيدتي... أبْشِرْ... إنهم سيُفْرِجون عنك بشرط أنْ تصبح خادما في بيت سيدتي...

حاول أن يقول شيئا ما، بَيْدَ أنَّ تَلاطُم انفعالاتِهِ ومشاعره والتباسِها عليه جعلاه عاجزا عن التلفظ والنطق ...

ـــ ... وهي ترجوك أن تقبل الشرط... فقد جهدتْ في إقناع والدها بإطلاق سراحك ولم يقبل منها قولٌ إلا بعد أن اقترحتْ عليه الشرط الذي ذكرتُ لكَ... فهذا الشرط سيمكنه ـــ حسبما فهمت ـــ من الاستمرار في مراقبتك... أما أنت... فسيمكنك من حريتك ...!

«نصفُ حريَّة، هذا ما تقترحُه عليَّ البُنَيَّة... وعلى كل حال فالنصف أحسن مما أنا عليه. سأتخلص من هذا الكهف القذر. وأعيش تحت الشمس مستمتعا بهبوب تيارات الريح مستنشقا رائحة التراب والعشب». ولأمر ما استشعر في هذه اللحظة بالذات حنينا جارفا إلى رائحة الجلد ومواد الدباغة... وتساءل في نفسه عن لون «ماري»، عن لون عينيها، عن لون وجنتيها، عن لون شفتيها، وعن ألوانها المفضلة في الملبس والمأكل وأثاث البيت وأشياء الطبيعة. ثمة عواء رهيب في قاع نفسه يأمره بالقبول...

ـــ ما رَدُّك... هل سمعتني... أجِبْ بسرعة... لا يجب أن يراني هنا حارسُ الزنزانة... أتسمعني؟!...

ـــ نعم أسمعك... قولي لماري إنني أشكر لها مسعاها، وأنا قابل كلَّ ما تريده...

ـــ حسنا . .!! تركتُك في حفظ الله .!!. .

وتلاشتْ من الباب رائحتُها، وغاب صوتُ أنفاسِها المتلاحقة من جرّاءِ الجري والخوف، غير أن وجهها القمحيَّ ذا النذبِ الغائر وعينيها العسليتين الذكيتين وكسوتها الزرقاء المتموجة كلما هبت نسمة ريح، لم تفارق منذئذ ذاكرته وخياله . . . تبسم الجيلالي ساخرا من نفسه وهو يدرك مرة أخرى مدى ضعفه أمام أنوثة المرأة وجمالها . . وفكر مليا فيما إذا كان الجمال شكلا آخر من أشكال السلطة التي لا تكتفي بتكييف تصرفات الإنسان طيلة حياته الاجتماعية بنوع من القهر الخارجي بل تتعدى ذلك إلى التحكم في حركاته وسكناته انطلاقا من انتشارها في مسام جلده وتدفق دمه وخلجات قلبه وعربدة خياله الذي يهزأ بالحدود وبالنهايات . . . فكر في غِوَايَة المرأة وسحرها، فكر في شمشون ودليلة، في آدم وحواء، وفي يوسف وامرأة العزيز، وانتبه إلى أنَّ الدائرة لدى أغلب الشعوب هي الشكل الهندسي الأكثر اكتمالا وأن الشعوب القديمة عندما احتاجت إلى وجود الآلهة لإنتاج المعنى في الكون تصورتها إناثا لاذكورا وأن المجتمعات البشرية إنما انتظمت في مملكة الثقافة عندما تبادل الرجالُ النساء في شكل زيجات و تحالفات ومصاهرات... وتساءل عمَّا إذا كانت الثقافة كلُّها تَتَغَيَّا هَدْم قُوَّة المرأة وجبروتها الطبيعيَّين... ثم انغمس من جديد في عزلته السوداء، وصمته الثقيل، وجريه اللانهائي وراء هواجسه وخيالاته وأفكاره التي طالما حال إيقاف تدفقها الممض المقلق العاصف دون جدوى، مقتنعا في كل مرة أن ما لا يستطيع الانسان أن يحبسه في ذاته هو قدرته على الخيال والإحساس والتفكير فبالأحرى أن يقوى على حبسه في الآخرين. هاهنا مجال الحرية الأصيل. وكلما وقع امرؤ ما تحت الإكراه والضغط والأسر والعسف، وأصبح مكبَّلا بما لا يوصف بألوان الحِجْرِ على حريّة التصرف بذاته، كلما تسللتْ حريتُه الصميميَّة الطبيعيَّةُ من خارجه إلى داخله، وأصبحت حياته الداخلية أغنى بما لايقاس: بحرا زاخرا بالمشاعر والأفكار التي تَعِزُّ على الوصف، وتضيق برحابتِها رحابةُ اللغة والكلام. أنظروا إلى حال المرأة، والمتصوف، والمجنون . . أنظروا . . ستجدون عين اليقين . . . عين اليقين . . .

بعد يومين جاء الضابط بصحبة الطبيب ليقولا له بأنه قد أصبح منذ الساعة خادما في بيت الضابط، بل... وعليه للضابط حق الموت والحياة.

قبل الجيلالي ذلك شاكرا، وتسلم أوراق هويّته الجديدة التي أصبح بموجبها نصرانيّا يدعى «مورينو الرُّوخو»، منحدرا من عائلة موريسكيّة قديمة تقطن مليلية منذ أن تنصَّرت في عهد الملكة إليزابيت، وتخصّصتْ منذئذ في خدمة الملوك والأكابر سواء في إسبانيا أو فرنسا...

حفظ الجيلالي اسمه ونسبه الجديدين، فذهب به الضابط إلى الحمَّام حيث كان الجنديُّ الحلاَّقُ في انتظاره. قصَّ الحلاق لحية الجيلالي وشواربه وسط سمفونيّة مِقَصِّيَّة بديعة. وجرده من أسماله الوسخة دافعا به وسط أبخرة الحمَّام السحابيّة الدافئة. بقي الجيلالي في الحمَّام وحيدا لا يؤنسه غير جسده الذي كان يتحسسه بأنامله طورا وبالكيس والصابون طورا آخر. ذلك الجسد الذي كان يطل عليه رغم إرادته بين الفينة والأخرى في حوض الماء الساخن أو البارد متناسقا قوي البِنْيَة رَغْم الجروح ورضَّات الزمن. هناك في الحمَّام، حيث التصق جلد ظهر الجيلالي بالأرض الفوّارة بالدفء والحرارة، وحيث كانت قطرات الماء الضخمة تتقاطر من عتمات السطح على العين والجبين والصدركحبات من لجين، تذكر الجيلالي بغتة نتفا متفرقة من ماضيه، تزاحمت في ذاكرته على شكل ومضات خاطفة... تذكر عددا من الأشخاص والأمكنة اللصيقة بكيانه ما عدا حمّام الدم الذي نجا منه بأعجوبة... هناك..في دواره، دوار «الرجا في الله»، حيث واجهت جماهير الوطنيين بقيادته قوات القمع الاستعمارية بصدورها العارية... تذكر مكناس الجميلة... وفاس الفيحاء... تذكرأباه الحمّار وهو يقطع الأزقة الضيّقة الباردة المزدحمة، رابطا بين «باب فتوح» وقيسارية مولاي ادريس، تذكّر دار الدباغة، وخلايا الحزب، تذكر حلقات الدراسة والذكر... وحن إلى أمه حتى انتفخ صدره بالعويل... وفي قمة انفعالاته وعواطفه المتلاطمة، انتصب الجيلالي على قدميه، وكاد يصيح في وجه العالم معلنا بهجته، بيد أنه سرعان ماتمالك

نفسه موطنا العزم على تمثيل الدور المسند إليه إلى أن يستعيد ذاكرته وتاريخه وشخصيته استعادة تامة غير منقوصة، وإلى أن تدق ساعة الخلاص له ولوطنه، إذ لا حريةَ للإنسانِ دون حريةِ الأوطان...

وبعد ساعة، ارتدى الجيلاليُّ بنطلوناً أسودَ وقميصاً من القطن أبيض اللون و« جاكيت » أسود كأنه صُمِّمَ خِصِّيصاً لإبراز قوة جسده، وحذاء جلديا ثقيلا يكبت فيه حبَّه للمشي السريع بدون إيقاعات صاخبة... والتفت إلى المرآة الضخمة التي تزيِّن غرفة الملابس فابتهج بمنظره الجديد... الدنيا لازالت بخير، رغم الأهوال وتقلبات الأحوال... أَلَمْ يقل لي الأبُ يوما إننا نحن أبناء الطيِّب من شجرة طيبة لا تثمر إلا الطيبين منذ عهد آدم، بَرَكَتُنا ممتدَّةٌ موصولةٌ عبْر الأزمنة والأجيال لا يمحوها الموتُ ولا تفنيها الأهوال والمحن. وبخطوة واحدة، خرج الجيلالي من الحمّام نقيّاً كما ولدته أمه، فتى مغايرا كل المغايرة لما كانه منذ قليل.

موريتوالروخو

-7-

ـ هذه غرفتك، فيها كل ما تحتاجه من ألبسة وأدوات للعمل.. عليك ألاّ تفتح النافذة مهما كانت الدّواعي والأسباب... وإذا ما فتحتها حلت بك اللعنات من كل حدب وصوب...

ـــ نعم سيدي الضابط.!.

ـــ احذف الضابط... واكتف بسيدي... تعجبني عبارة سيدي... أفضلها على بقيّة الأسماء والألقاب... اتسمعني؟!...

ـــ نعم.!. نعم سيدي.!. حفظك الله وأعز أمرك.!..

ـــ عملك ينحصر في أشغال البَسْتَنة من تشذيبٍ للأشجار، وتنظيفٍ للمسالك، وتنقيَةٍ للاعشاب، وسقيٍ للزهور والورود، بالإضافة إلى أنواع السُخْرة داخل المعسكر وخارجَه كلما ارتأتْ ذلك زوجتي أو ابنتي... ولا تعص لهما أمرا... ولا تنس أن تنظف إصطبل خيولي كل يوم... سمعتني؟... أليس كذلك.؟!..

ـــنعم...! سمعتك... سيدي...! حفظك الله وأعز أمرك !!...

ـــ تعال معي أعرفك بالمنزل وأهله... وكن في مستوى ثقتي بك...

انطلق الضابط صوب إقامته مزهوّاً بنفسه، يختال في زيه العسكري الأزرق المليئ بالأوسمة والنياشين، المطرزة أكمامُه وكتفاه بخيوط مذهبة وأصداف ونجوم تلمع كلما تعرضت لأشعة الشمس بألق صاخب. وفكر الجيلالي وهو يجر رجليه وراء الضابط فيما سوف يكون عليه منظره لو ارتدى هو لباس الضابط، وارتدى الضابط لباسه... وبعد أن قطعا ساحة مزفتة تحيط بها منازل

طويلة بيضاء ذات قراميد قصديرية ،مخصصة لنوم الجنود، ويتوسطها سارية ممتدة إلى عنان السماء يرفرف في أعلاها العلم الفرنسي، وينتشر في بعض جنباتها بعض الشاحنات العسكرية وسيارات «الجيب» والمدرعات، وصلا إلى إقامة الضابط المسيّجة بأشجار السرو والزيزفون والزعتر والداليّة وشجيرات الياسمين يحيط بها شباك حديدي مزين بأشكال هندسية كتلك التي تنتشر على حيطان المساجد، غير أنه ينتهي في أعلاه برماح صغيرة مسننة.

جال الضابط بالجيلالي المدعو «بمورينو الروخو» في الحديقة الميّاسة بكل ما يفتن البصر والنفس من غريب الأشجار والزهور والنباتات والطيور، ووقف به على مقربة من المسبح المستطيل الذي ازدانت جنباته بأقواس من المرمر الأبيض وبمنحوتات تمثل أسودا تنساب من أفواهها المياه رقراقة صافية، ونواهد عاريات إلاّ من مناديل كثيفة تنساب طليقة بين الفخدين، وبأرائك وكراس متناثرة هنا وهناك تنعكس على خشبهما الصقيل أشعة الشمس المتسللة في هدوء بين خمائل الأشجار الوارفة... وهناك، على بعد أمتار من الحديقة والمسبح ، انتصب المنزل قصرا ضخما عريضا عاليا يتكون من طابقين تطل نوافذهما الواسعة على الحديقة، ويوحي منظره بالجلال والهيبة، وقد بني على طراز فريد يجمع في تركيبة متناسقة بين خصائص الهندسة المغربية الأندلسية الأصيلة وخصائص الهندسة الفرنسية الحديثة.

لم يترك الضابط للجيلالي فرصة الإلمام بتفاصيل البيت إذ سرعان ما عاج به على مرأب السيارات، مُعَرِّفاً إيّاه على محتوياته، وعلى الاصطبل وخيوله العربيّةِ الأصيلةِ، وعلى بقيّة الخدَم والحشَم كل واحد باسمه ومهمَّته ومسكنه، إلى أنْ دلفَ به بابَ المنزلِ حيثُ استقبلَتْهُ ربّةُ البيت وابنتها باسِمَتين، وخلفهما تراءى للجيلالي بهو فسيح يؤدي إلى صالون مزدان بمرايا مذهبة وصور بديعة الأشكال والألوان مفروش بالزرابي المغربيّة من مختلف الجهات والمناطق وبالأرائك والكنبيات والفوتويات من مختلف الألوان والأحجام والأشكال... أما جدرانه وسقوفه فقد تزينت بأبدع ما تبدعه يد الفنان المغربي من زليج اندلسي مغربي وفسيفساء وتزاويق على الجبص والخشب ونقوش

محفورة في رقة بالغة تذكرك بأشكال الوشم المحفورة على الجسد المغربي منذ رعشته الأولى في دوّامة التّكوين الأوّل.

ـــ ما اسمك.؟... قالت السيدة بلغة عربيّة تتخللها عجمة ذات رنة محببة... وهي امرأة حلوة الطلعة في الخمسين من العمر..

ـــ اسمي مورينو... سيدتي... أنا في خدمتك...

ـــ هذه ابنتي... وهي تعرف العربيّة... وقد أوكلتُ إليها أمر تعليمِكَ ما لا تعلمه مما سيساعدك على الاضطلاع بمهامك على أحسن وجه..

ـــ متشرف بمعرفتك آنستي أنا في خدمتك...

ـــ وهذه.. خادمتنا... وهي من أصل موريسكي مثلك... ندعوها نحن بكلارا، أما الجنود فيدعونها ب «الشيكي الأقرع»... لا تبتسم.!!.. الأسماء لاتهمنا لأنها مجرد علامات اعتباطية لا علاقة لها بطبيعة المسميّات!. يجب أن تتذكر الإسمين معا، لأنهما لنفس المرأة... كلارا!!..كلارا !!... أين هي..؟!. كانت هنا قبل قليل فقط ... أين اختفت؟!....

ـــ أنا هنا سيدتي.!.. أنا مقبلة... توّاً .!!.

ـــ ها أنتِ أخيرا... هذا هو الخادم الجديد... مورينو... أتعرفينه...

ـــ متشرفة... لا ياسيدتي لا أعرفه.. أتمنى أن يكون في مستوى توقعاتك سيدتي...

ـــ وأين هو الأعور..؟! إيه.!. هاهو قادم.... اقتربْ أيُّها الأعور... أُقدِّمُ لك خادمنا الجديد مورينو الروخو... يجب أن تساعده بكل قوتك...

ـــ نعم سيدتي.!!. نعم.!!. نعم..! وأحنى رأسه ذا الشعر الأشعث، وهو يمسح بكمه سائلا أزرق تسلل من أنفه فجأة، ويتفرس بعينه الوامضة حذاءه العسكري الأسود الثقيل وقد انغرس في الأرض كالوتد.

ـــ انتهينا من التقديم... هيا اذهبوا... كل إلى عمله... وأنت يازوجي العزيز تعال معي إلى الصالون أريدك في أمر يخصنا نحن الإثنين...

ـــ سمّعَنا الله خيرا ...

ـــ خيرا... خيرا... أَلَمْ تَسْمَعَ إيريك لابون» وهو يخطب حوالي الساعة الثامنة؟...

ـــ لا... لم أتمكن من ذلك... كنت منشغلا بمورينو... ماذا جاء في الخطاب؟...

أخذته من يده، ومالت برأسها على كتفه وهمست في أذنيه بكلام لم يسمعه سواهما وسارا في البهو المؤدي إلى الصالون ...وانصرفت كلارا إلى عملها بعد أن ابتسمت للجيلالي معبرة له عن بالغ سرورها بمقدمه، مومئة بيدها بما يفيد: سنلتقي مرة أخرى لنتجاذب أطراف الحديث.. أما الجيلالي فبقي واجما ينتظر أوامر الآنسة التي انشغلت عنه بترتيب باقة الزهور...

ـــماذا تنتظر؟!..ساعدني في ترتيب الباقة.!..

رفع الجيلالي بصره لأول مرة إلى محيا تلك الفتاة التي طالما حاول تخيل صورتها في زنزانته منذ أن أمرت بتضميد جراحه ومساعدته على مقاومة عوامل الموت.

ـــيا إلاهي كم أنت جميلة .!!.. أفلتت هذه العبارة من بين شفتيه فيما يشبه الهمس... واحمر وجهه خجلا وخوفا... وتوقع أنها ستشتعل غضبا. غير أنها ابتسمت فالتمعت عيناها بألق ساحر فاتن... كانت رشيقة القوام، ذات وجه متناسق القسمات يوحي بالرقة والطيبوبة وقوةالنفس، وعينين زرقاوين صافيتين واسعتين لا مرسى لبحرهما السجي الليلي المنساب إلى مالانهاية، وشفتين رقيقتين شهيتين، وشعر أشقر تتدلى ظفائره كسنابل قمح على صدر زاخر بالفتنة، جياش بالعاطفة وحب الخير لكل الناس مهما كانت ألوانهم وأديانهم ولغاتهم ....

ـــ خذ هذه المزهرية... قالت له... وضعها هناك، فوق الطاولة ...

على الرحب والسعة آخذها وآخذ تراب رجليك، ياله من فأل حسن أن يكون أول عمل أقوم به هو حمل مزهرية... وسمع الجيلالي وهو ذاهب في اتجاه الصالون حيث كانت الطاولة الصغيرة المخصصة للمزهرية أصواتا وقهقهات وموسيقى راقصة شجية... على الرحب والسعة، هاأنذا أدخل إلى هذا القصر على نغمات الموسيقى كما لو كنت قائدا، وسأغادره قائدا إن شاء الله:.. ولما وضع المزهرية رأى الصالون غاصا بعدد من الرجال والنساء والشبان والشابات يراقص بعضهم بعضا على نغمات موسيقى شجية عرف فيما بعد أنها

ل« بيرليوز »، بينما فضل الشيوخ منهم اتخاذ موقف المتفرج المنوه برقصة ذاك أو تلك واحتساء كؤوس النبيذ وتدخين السجائر. . . وكان على وشك إيهام نفسه بأن هذا الاحتفال فأل حسن أيضا، ولِمَ لايكون قد رتبه الضابط احتفاء بمقدمه. غير أن طفلا صغيرا اتجه فجأة نحوه قائلا بلغة آمرة : ـ لماذا تحملق. ؟. ألم تر في حياتك بشرا؟. . . أخرج من هنا. !. . بسرعة. !. . فهذا ليس مكانك. !. .

وأين مكاني ياولد ال. . . من يكون هذا الولد. . ومن علمه هذه الوقاحة الجارحة. . . تبا له. . .غير أنه فضّل السلامة فولى على أدباره لايلوي على شئ وكأنه هارب من زخات دوش بارد. . وفي عتبات المنزل كانت ماري تحادث شابا وسيم الطلعة ذا بذلة سوداء أنيقة. . وعندما التفتت إليه قدمته إلى الشاب قائلة :

ـــــهذا خادمنا الجديد. . . مورينو. . .

أبتسم الشاب ابتسامة ماكرة متمنيا له حياة جديدة في خدمة عائلة ماري. . وود الجيلالي لو تعرف على هوية هذا الشاب. . . غير أن ماري أمرته بأن يذهب إلى الإصطبل وأن يهيئ الجوادين : الأبيض والأكمت لكي تخرج صحبة الشاب للنزهة بعد نصف ساعة . فقد اعتادا على النزهة خارج المدينة قاطعين المسافات الطوال إلى أن يصلا إلى هضاب « مولاي يعقوب »، تلك الهضاب التي كانت تحبها وكان يحلو لها أن تقلد بين صخورها الضخمة وسهوبها الوعرة أفلام « الوسترن »، خاصة في هذا الزمن الهادئ الذي دشنه « إيريك لوبون » بإطلاق سراح المعتقلين الوطنيين وإرجاع المنفيين ودعمه بعقد عرى الحوار والتشاور مع القصر والنخبة السياسية المغربية وجلب الاستثمارات الفرنسية والاجنبية إلى المغرب مما أعطى دفعة قوية لاقتصاده. . . لكن رغم ذلك كله، فإن هذا الزمن الجديد لم يحل دون تحول الجيلاني ـ رغم أنفه ـ إلى رجل موريسكي الأصل، خادم لدى عائلة ماري، يبتدئ عمله بحمل مزهرية إلى الصالون، وينتهي بتحضير الجياد وأشغال الإصطبل.

- 8 -

مرّت أيامٌ عديدةٌ أتقنَ خلالها الجيلاليُّ كلَّ أشغالِهِ في بيت الضابط محرزا على ثقة أهله وذويه فقربوه منهم. كانت زوجة الضابط تلح عليه في الذهاب معها يوم الأحد إلى الكنيسة قصد الصلاة، وتتشاجر بسبب ذلك مع ماري التي كانت تناشدها بأن تتركه وشأنه. ولم يكن يجد في أغلب الأحيان بُدّاً من أن يذهب معها ويصلي إلى جانبها وهو مشدوه بما يسمعه من موسيقى وتراتيل وما يراه من إيقونات وصور... غير أنه كان يهرع إلى القرآن الذي حصل على نسخة منه سرا لتلاوته والتعبد به كلما تخطت قدمه عتبة بيته راجعا من الكنيسة. وكان يحلو له أن يردد في سره بعد قراءته للإنجيل مرات عديدة وسماعه لخطب القس في كنيسة الثكنة بأن المسلم الحقيقي مسيحي قد تطهر دينه من التزييف والتزوير، وبأن الاديان السماوية الثلاثة تشكل من حيث روحها العميقة دينا واحدا، هو هذا الذي تغنى به المتصوفة المسلمون منذ غابر العصور والأزمان. أما من حيث الطقوس والشعائر فإن الجيلالي كان يقول عن نفسه ساخرا بأنه نصراني الظاهر، مسلم الباطن، وبأن الله هو الباطن والظاهر، غفار الذنوب، وهو على كل شئ قدير...

لم تكن ماري مسيحية الدين وإن كانت مسيحية الثقافة، فلم تكن تقوم بالشعائر ولم يسبق لها منذ أن وصلت سن البلوغ أن ذهبت إلى الكنيسة رغم ضغوطات أمها المتكررة، أما أبوها فلم يكن مهتما بهذا الموضوع مطلقا. فقد نذر نفسه بكل ماتختزنه من طاقات للدولة الفرنسية ومشروعها الاستعماري في العالم. فالدولة هي كل شئ وما دونها ليس إلا عدما. أما الشاب، ويسمى

بيير جاكوب، ويعمل محاميا، فقد كان مسيحيا مع المسيحيين ولايكيا مع اللايكيين، المهم أن يكون ناجحا وسط هؤلاء وأولئك ويحوز على رضى وثقة الجميع وألا يعادي أحدا. وكان يعلم أن شق طريقه وسط الكبار يمر حتما بإحرازه على ثقة النساء، نساء العائلات الاستعمارية الكبيرة. ولذلك كان يحرص أشد الحرص على حضور الحفلات المختلفة واكتشاف أسهل السبل لقلوب النساء الأكثر نفوذا لدى أزواجهن أو عشاقهن العاملين في أسلاك الجيش والإدارة والاقتصاد. ويروي عنه المقربون منه مغامرات غريبة مع زبوناته تثير الشفقة أحيانا، والتقزز أحيانا أخرى .بيد أنه لم يكن يقف أمام أي عائق يحول دونه والوصول إلى أهدافه، كل الناس الذين يرتبط بهم يتحولون إلى مجرد وسائل لبلوغ أهدافه ومراميه .يغدق الوعود بألف حساب وهو يعرف مسبقا أنه سوف لن يفي بأية واحدة منها ماعدا إذا كانت أحبولة يقتنص بها ضحاياه.كان يكره البشر ويحب الذهب والمال... وعندما كان يعلن حبه أو مودته لهذه أوذاك فإنما كان يعلن تعلقه بما يمتلكانه من مال وحسب ونسب أو بما كان يسميه منتشيا بمفاتيح الجنة على الأرض. ومنذ اليوم الأول، اهتم بيير جاكوب بالجيلالي المدعو مورينوالروخو، وأحس اتجاهه بشعور غامض تمتزج فيه الكراهيّة بالحسد والإعجاب معا.كان يحس بأنّ هذا الخادمَ بما يمتلكه من خصال جسديّة وفصاحة في اللسان وسرعة في البديهة وسهولة في المعاشرة، قادرٌ على استمالة عدد من زبوناته أو على الأقل قادر على فضح ألاعيبه ونشرها بين الناس. ولذلك عاداه منذ النظرة الأولى...

وهكذا وجد الجيلالي المدعو بمورينو الروخو نفسه مندمجا في عالم جديد يملأ عليه ليله ونهاره، ولا يترك له مجالا لاسترداد أنفاسه أبدا. وأصبح يطلع يوما بعد يوم على أسرار العائلة، فردا فردا، ويشاركها السراء والضراء رغم منعه من الخروج بمفرده خارج الثكنة... وساعده حسه التنظيمي الغريزي أن يفرضَ نفسَهُ قَيّماً على الحفلات اثناء الاعياد والمناسبات المختلفة، واكتشف فيه الجميع مغنيا موهوبا وممثلا بارعا، وبهلوانا وراقصا، وراوية لأخبار الأولين والآخرين... وبقد رما كانت مواهبه المكبوتة تتحرر من عقالها بمقدار ماكانت حريته في القول

والعمل والحركة تتزايد وتتضاعف. فتتقلص المسافات بينه وبين مجالس ماري وأصحابها، ومجالس أبويها وأصحابهما يوما بعد يوم. وفي تلك المجالس كان يسمع فنونا من القول والموسيقى، ويتابع أخبارالمغرب وفرنسا، سياسيّة كانت أو اقتصاديّة او اجتماعيّة بشغف بالغ. واكتشف متعجبا البون الشاسع بين موقف ماري ومجلسها من قضية المغرب، وبين موقف رواد مجلس أبويها. فقد كانت ماري تنتمي إلى جمعية «صداقات المغرب»، بينما أبويها أصبحا مع مرور الزمن من كبار دعاة « الحضور الفرنسي » بالمغرب، ويزورهما بين الفينة والأخرى «بونيفاس» شخصيا قصد التشاور وتبادل الرأي. وإذا كان الطرفان معا يتشبثان بمصالح فرنسا في المغرب، فإن مجلس ماري كان لا يرى مانعا عند الضرورة من أن يستعيد المغرب استقلاله في إطار رابطة ما مع فرنسا، في حين كان يتشبث مجلس أبويها تشبثا مطلقا بالوضع الاستعماري الذي عليه أن يترسخ ويدوم على حاله مهما كانت تكاليف ذلك فادحة في المال والأرواح.

كان من بين رواد مجلس الضابط وزوجته امرأة اريستوقراطية الهيئة والملامح والحركات، في الأربعين من عمرها مات زوجها محروقا في معركة شهيرة. ولذلك كانت تكره المغاربة كرها شديدا... وكثيرا ما رددت دون مواربة عطشها إلى الدم المغربي وحلمها بأن تأكل كبد قاتل زوجها. كانت تشرب كثيرا، وتدخن غليونا فاخرا وتستخدم المنفضة بحركات مزهوة لا تتقنها إلا هي، وتدمن على مجالس القمار تطفئ فيها قلقها وإحساسها بالوحدة والتفاهة وعبث الحياة. كانت تحب المغامرات من كل صنف محققة فيها ذاتها. ولم يكن الجيلالي غريبا عنها فقد كان مضطرا إلى خدمة المجلس الذي يتحول ابتداء من منتصف الليل إلى مجلس للقماروألعاب الحظ من كل صنف ونوع. وكثيرا ماكان يسقيها أو يقرب لها ما تريده من حاجات أو يرافقها عندما لا تقوى على المشي من جراء السُكْرِ المفْرِطِ حتى يركبها في سيارتها الفارهة ويعود أدراجه. كانت تستريح لمنظره وتجد في قوة صدره بعضا مما ألفته في صدر زوجها. ولذلك كانت تتصنع السُكْرَ أحيانا منحنيّة برأسها على صدره ضامّة إياه إليها في حنو واضح. وأحيانا لم تكن تتردد في أن تطالبه بمصاحبتها إلى منزلها مدّعية أنها لن تقو

على الصعود في الدرج لوحدها. كانت تقول لزوجة الضابط ساخرة لو لم يكن مورينو الروخو يرافقها لكانتِ المنيّةُ قد طوتها أو لكانت معاقة مكسورة الأيدي أو الأرجل... وكانت زوجة الضابط تَرْقُبُها بعيون ماكرة... أما ماري فكانت تفهمها بطريقتها الخاصة بأنها تحذق القراءة بين السطور وبأنها تعلمت منذ زمان تأويل الأحلام. أما كلارا فلم تكن تقو على إخفاء امتعاضها مما يحدث، فكانت تهرع إلى المطبخ أو إلى بيتها متظاهرة بأنها نسيت شيئا مهما عليها أن تتفقده حالا.

قال الراوي :

وفعلا... ما إن كان الجيلالي يضع جسد فرانسواز على سريرها في غرفة النوم المطلة على الجسر الحديدي الذي تترقرق عبره مياه متلئلئة في ضوء النجوم والمصابيح الكهربائية، حتى تطوق عنقه بيديها جاذبة إياه إليها بعنفٍ حميميٍّ يتقطر ضراعة ورجاء. تلفح أنفاسُها وجهَهُ فيسري خذر قاهر في جسده، تتفسّخ من جرائه أعضاؤه، ويجرفه سيل من الشهقات الناعمة التي لا تقل تلألؤا عن مياه النهر المنساب هناك، تحت الجسر، إلى وديان من العسل والحليب والخمر، إلى ما تشتهي العين ويسر النفس ويرتعش بلذته الجسد. وفي الصباح كانت تلح عليه، رغم تحفظات الضابط، أن يرافقها إلى ضيعتها بضواحي المدينة كيما تتفقد سير الأشغال وتؤدي أجور الفلاحين وتشرف شخصيا على شحن المنتوج وتسويقه .وهناك عاين الجيلالي فقر الفلاحين وطيبوبتهم وصبرهم الأسطوري على المكاره ومقاومتهم لعوامل الذل والموت بكل ما يستطيعون من قوة بما في ذلك النكتة الذكية اللاذعة .أليست النكتة سلاح الضعيف والمقهور والمكبوت؟!!.

هكذا ظل حال الجيلالي مع فرانسواز طيلة شهور إلى أن راجت قصتهما على شفاه النساء المترددات على المجلس كل مساء وقد اتخذت طابعا أسطوريا. أما هو، فقد كان حزينا فخورا في آن واحد، حزينا لأنها كانت تستخدمه فيشعر أن ما يفعله معها إنما يفعله انسجاما مع وضعه الاجتماعي ليس إلا، وفخورا لأنه

ما إن بعتليها حتى ينسى دونيته فيصير السيد الحاكم المهيمن الذي يركز أعلامه الحمراء في أدغالها الكثيفة الفيحاء ونشوة النصر تترقرق من مسام جلده مالئة كل كيانه ووجوده. كان يحلو له أن يتخيل ذاته في صورة فلاح يحرث أرضا مهجورة كي تستعيدَ قيمتها وتُغْنِيَ الوجودَ بما تختزنُهُ من ثرواتٍ سريَّةٍ ومفاتِنَ لا أوَّلَ لها ولا آخِر. كان يردد والعرق ينز من مسام جلده مختلطا بعرقها الفواح بالعطور هذه حراثة من نوع آخر ليس إلا، أوَ لم يكن جدي فلاحا تتيمن ببركته القبائل والمداشر فيدعوه فلاحوها إلى تدشين موسم الفلاحة فلا يفلحون أرضا إلا بعد أن يرسم فيها خطا مستقيما لا يزيغ عنه إلا هالك؟. وكأن ذلك الخط تحيين في الراهن لفعل قدسي تم في زمن التاسيس الاول لجماعة المومنين، تحيين

يتشبع بفضله وجود الجماعة بالمعنى والدلالة، وينضح بالمشروعية.. «حرفة بوك لا يغلبوك!!». وأحيانا، كان يهتز كالمصاب بالصرع، وهو في قمة حرثه العميقة المخصبة لهذه الارض البضة الدافئة العبقة بروائح المسك والورد والفل والنيلوفر، ولم يكن اهتزازه المحموم ناتجا عن نشوة أولذة أو ألم، بل كان ناتجا عن صور ملتهبة تجتاح خياله، صور قذائف تلقيها مدافع ثقيلة باردة صماء على رؤوس الناس، وعلى رأسه هو بالذات. فكان يدفن وجهه هلعا في صدرها هي، فتداعب رأسه بأناملها الطويلة الناعمة ماسحة بكفها على أخدوده المكسو بشعر أسود ناعم تتلالا فيه بعض شعيرات بيضاء.

عبثا حاولت كلارا أن تعترض سبيله ناصحة إياه بالابتعاد عن هذه المرأة المتغطرسة الماكرة التي لا تهتم في هذا الوجود إلا بنفسها، ولم تكن تخفي عنه أحيانا غيرتها، فكان الجيلالي يفهمها بطريقته بأنه مجرد خادم لاحول له ولاقوة، خادم لله يفعل به ما يشاء، وخادم لهؤلاء الفرنسيين يسخرونه فيما شاؤوا إلى أن يَعْفُوَ اللهُ عن الجميع... فكانت كلارا تكلف «الأعور» باقتفاء أثر الجيلالي أينما حل وارتحل، وتزويدها بكل ما يتوصل إليه من معلومات وأخبار خاصة عندما يكون مختليا بفرانسواز، أو في خلوة مع ماري أو أمها أو مع أرملات الجيش الثريات. فكان الأعور يرى كل شئ، لا تخفى عليه خافية. وكان يجد لذة في مهمته. لذة شخصية أصبح مع مرور الزمن حريصا على دوامها واستمرارها.

ولم يكن ينتهي من روايته لأخبارالجيلالي إلا ليشرع في نسج رواية أخرى على الهامش يحتل هو قلبها هذه المرة، هو وفرانسواز، والليل والبخور والنهر والجسر. ولم يكن يروي الروايتين بالكلمات فقط، بل بعينه الوامضة الثاقبة أيضا، شأنه في ذلك شأن كبار الروائيين منذ هوميروس.

أما فرانسواز فكانت تشعر بغمزات صديقاتها فتنتشي لذلك وتزداد تعلقا بالجيلالي غير آبهة بإنذار زوجة الضابط لها واحتجاج مارية عليها. لقد كانت تشعر، بغريزة المرأة المتأصلة في كيانها منذ غابر الأزمنة، أن صديقاتها يحسدنها... وهذا كل ما في الأمر... آه!!... عليهن اللعنة، يردن لي أن أبقى دوما ممثلة لدور الضحية ليلعبوا اتجاهي دور المشفقات، لا أريد شفقة أحد لأن الشفقة في مثل هذه الأحوال إذا ما توطدت بحكم التقاليد صارت وجها آخر لعلاقات السلطة التي بموجبها يتعين أن يبقى كل واحد في مركزه ممارسا دوره إلى نهاية التمثيلية... سأحرمهن من ممارسة سلطتهن علي... لا أريد وصاية أحد .أريد فقط من يفهمني ويتضامن معي... سأمارس حريتي مبرهنة بذلك على وجودي إلى ما لانهاية له...أَحَبَّ مَن أَحَبَّ وكَرِهَ مَن كَرِه. وليشربِ الكارهون البحارَ والأنهار ومجرات السماء الكائنة والتي ستكون... كان يحلو لها أن تنهض أحيانا من سريرها عاريّة وهي في قمة نشوتها تاركة مورينو الروخو في عمق الفراش يرمقها بعيون متألقة مندهشة لتملأ كأسها البلورية بالويسكي، فيتموج جسدها الأفعواني الرشيق بأضواء الغرفة الخافتة وأشعة القمر ومصابيح الحديقة ولألاء المياه المنسابة تحت الجسر. يهتز جسدها طربا على نغمات الموسيقى المنبعثة من الفونوغراف ، يلتهب وجدانها وهي تردد بعض مقاطع أغنيات «إديث بياف»... نسيتها الآن... بيد أن معانيها لا تخرج عن إطار أغنيتها الشهيرة .لذلك لاأتصورها إلا وهي تردد بصوتها الرقيق الدافئ هائمة عشقا بالحياة:

Non, rien de rien
Non, je ne regrette rien
Ni le bien qu'on m'a fait
Ni le mal,

tout ça m'est bien égal,
c'est payé، balayé، oublié
Je me fous du passé
Avec mes souvenirs
J'ai allumé le feu
Mes chagrins، mes plaisirs، je n'ai plus besoin d'eux.

وكان الجيلالي المدعو بمورينو يردد ما تغنيه منتشيا بمعانيه وقد صادفت هوى عميقا في نفسه وكيانه. حتى إذا ما وصلت إلى المقطع القائل:

Car ma vie،
Car mes joies
Aujourd'hui
ça commence avec moi .

اندفع تلقائيا من فراشه نحوها حاضنا إياها إليه بمنتهى الرقة والعطف متوحدا بها وبالوجود وبالكائن... ألَمْ يقل ابن عربي بألا وجودَ إلا لله وبأن ماعداه ليس إلا تجليات له سبحانه، بشرا كان أو حجرا ؟. وألَمْ ينشد الحلاج أنا من أهوى ومن أهوى أنا، نحن روحان حللنا بدنا؟!!. كانت تدفن في عينيه، وهي تراقصه، وجودَها المثخن بالقلق والألم ولم تمنع نفسها ذات يوم من تحقيق رغبتها في أن تحتفظ ببعض شعيرات رموشه في صندوق صغير من العاج المنقوش بأبهى التصاوير كانت تضع فيه قبل ذلك الوقت أقراطها الذهبية النفيسة. وكانت تقول له بأنها تريد استهلاك ذاتها في ذاته، وجسدها في جسده، وكيانها في كيانه، إلى حين التماهي بالمطلق تماما وإلى غير رجعة، إذ الوجود البشري في نظرها أشبه ما يكون برقاص بوصلة يتأرجح بين قطبين هما اللذة والالم، والإيروس والتاناتوس حسب تعبيرها. فليكن الرجحان للذة وللإيروس، كانت تقول بأعلى صوتها وهي ترفع الكأس البلوري عاليا قبل أن تفرغ في حنجرتها الجميلة كلَّ مافيه من شراب وتضرب به الأرض فتتناثر في الظلال جزيئاته وتتوهج بالألق بعد تعرضها لما يتفاعل في فضاء الغرفة من أضواء كما لو كانت أحجارا كريمة... ولم تكن تأبه أحيانا، على غراره، بالدم المنبجس من قدميها وهي تراقصه. بل كانت تغمس أناملها في حمرته القانية وتصر على أن يتذوقه وإياها كما لوكان شرابا سحريا واعدا باطراد السعادة واللذة .أما هو فقد كان لا

ينكر عليها كل ذلك. ويجود عليها بما يملك من مواهب وقدرات وثمرات، ولا يخيب لها ظنا، ولا يعصى لها أمرا، ويفوق عطاؤه ما تطلبه وما تتمناه، ويأخذ منها اللذة والمال كلما ألحت عليه في ذلك. بيد أنه كان يردد في سره دوما بأنه هو الآخر، كفرانسواز وكإيديث وكالملايين من بني البشر في مختلف الأقطار والأمصار، غير نادم على شيء، وبأن الله غفور رحيم!!...

غير أن كلارا كانت تلاحقه دوما، يجدها أينما حل، ولا يفتقدها إلا عندما يصاحب فرانسواز إلى منزلها ليلا أو إلى ضيعتها صباحا. ولم تكن كلارا لتمل من لومه وتأنيبه مستعملة أحيانا أقسى الكلمات وأشدها وقعا على النفس. كانت دون أن تشعر بذلك لا تلبس إلا له ، ولا يحلو لها أن تبدو أنيقة إلا عندما تتيقن بأنها ستكون معه في مكان واحد. ولكنها مع ذلك كله،كانت واثقة بأنها لا تقوى على منافسة هذه الفرنسية، فرانسواز... فكانت رغم حقدها عليها تتظاهر بمحبتها وتكثر من إبداء مظاهر الاحترام والتقدير والحفاوة كلما التقت بها في محفل من المحافل. ولم تكن فرانسواز غافلة عما يروج في نفسية كلارا فكانت تعاملها بالمثل. وهكذا عاش الجيلالي بن الطيب المدعو مورينو الروخو بين امرأتين، ممزق الجسد والنفس، وتيقن من شيء واحد هو أنه إذا كان الله غفورا رحيما فإن المرأة لا تغفر ولا ترحم.. ولذلك كانت الجنة والنار مؤنثتين...!!.

- 9 -

كَرَّتِ الأيامُ بعضها خلف بعض، والجيلالي لا يعْرفُ من دنياه إلا هاته الدُّنيا، ولا من أناسِها إلا هؤلاء الناس... وتوالتْ اجتماعاتُ مجلسيْ ماري، وأمها وأبيها، وانتظم انعقادُهما كل مساء سبت. وكان الجيلالي يتردد على المجلسين معا صحبة كلارا مزهوّا ببذلته الأنيقة، باذلاً كل ما في وسعه من مهارات لخدمة الحاضرين وإرضاء طلباتهم، بشوشاً هادئاً لَبِقا. لا يعكر مزاجه احيانا إلا مشاكسة الشاب المحامي له واستغلال كل فرصة لإذلاله من جهة، وحقد مجلس أم ماري وأبيها على المغاربة والوطنيين حقدا جنونيّاً لا حَدَّ له من جهة أخرى. وعندما كان الحاضرون يستغنون عن خدماته،كان يجلس قرب باب الدار متكئا على سارية من المرمر، يبحث في مياه المسبح عن أيامه الضائعة، أو يتأمل مفتتنا أجساد النسوة المسترخيات تحت أشعة الشمس الناعمة على الكراسي الطويلة في كل أرجاء الحديقة، وأحيانا كان يتلهى بمراقبة سلوك لقلاقين أقاما منذ مدة فوق نخلة باسقة بجوار إصطبل الخيول، لقلاقين مزهوين ببياضهما الناصع نصاعة الحليب. كان يحلو له أن يتفرَّس قسمات أعضائهما عله يكتشف رسوم القاضي الذي كاناه قبل أن يتوضأ بالحليب متسائلا عما إذا لم يكنِ البشر صورا جديدة لكائنات حيوانيّة قديمة. كان يضحك أحيانا إلى أن تمتلئ مآقيه بالدموع وهو يتخيل كل فرد من أفراد عائلة الضابط، وكل خدامه وضيوفه، في صورة ما يقابله من أصول حيوانية مختلفة : الضابط في صورة الكركدان، وزوجته في صورة قردة شمطاء، والشاب في صورة ابن آوى، وصديقهما سيباستيان في صورة أسد هرم لا مخالب له تحط على ظهره الأعجف عشرات الطيور الملونة بألوان قوس قزح مالئة الدنيا بزقزقاتها الرائعة. وسوزان... سوزان هي هي، لا يقابلها في

مخيلته إلا البياض. أما ماري وكلارا فملاكان من ملائكة الرحمن، تتجلى فيهما الروح المحمدية... الكلمة الأولى... التي بها قال الله للعالم كن فكان. ولم يكن يستفيق من خيالاته، إلا على دقات جرس الخدمة، وعندئذ يهرع مهرولا نحو الاتجاه الذي يأتي منه الرنين مسترسلا، محتجا، ملحاحا.

ـــ نعم، سيدي... أنا في خدمتك... قال الجيلالي بن الطيب المدعو مورينو الروخوبصوت خافت متهدج، غاضا بصره، منحني الرأس إلى الامام علامة على الطاعة... كان جو الغرفة غائما بدخان التبغ، مشحونا بانفعالات الحاضرين وأنفاسهم، مثقلا بروائح الشراب والحوت والمخللات المختلفة. وجوهٌ متباينة الأشكال، ملتحية، مرداء، ذات تجاعيد غائرة أو ندوب ملتئمة تحكي عن معارك زمان في الهند الصينية وصحاري إفريقيا وجبال المغرب العربي وغاباته وتلاله. عمامةٌ واحدةٌ، ناصعةُ البياض، في حجم عجلة سيارة، تستريحُ فوق وجه قمحي اللون تنِمُّ قسماته عن النعمة والوجاهة، وجلباب بزيوي أبيض فضفاض. لاشك في أنه من أعيان البلد... قد يكون «كلاويا»، أو «متوكيا»، أو «بغداديا»... وعلى كل حال، ف «القياد» في هذه الأيام كثر، وزياراتهم دار الضابط أصبحت متواترة متكررة... وبرور الضابط وزوجته بهم أصبح يفوق الوصف والخيال... كان الضابط يشرح على خريطة تحليله للوضع في المغرب في علاقته ب«المتربول» ومجريات الأمور في الجزائر وتونس وتطورات الوضع في العالم العربي وفلسطين. كان متشائما خائفا على الوجود الفرنسي في المغرب من أن تنهار أسسه وأركانه، مطالبا بسياسة فرنسية حازمة تقضي قضاء مبرما على الوطنيين الذين كان يحلو له أن يسميهم بعنجهية استعمارية متعالية ب «الصراصير» الذين يمنعون فرنسا من أداء مهمتها الحضارية النبيلة... «سيتكفل التاريخ بتلقين درس لهؤلاء »كان يحلو له أن يردد ، فالتاريخ لا يرحم... لا يرحم المتخاذلين من أبناء فرنسا الذين يتلكؤون في تحقيق مهماته الحضارية بالمدفع والسياسة والهيمنة الفكرية والروحية، كما لايرحم هؤلاء «الصراصير» الذين يظنون أنهم يقاومون فرنسا في حين أنهم يقاومون إرادة التاريخ ذاته... كان يتكلم كمن يخطب، والحاضرون يتابعون تحليلاته، يناقشونه في بعض التفاصيل

ويتفقون معه في الاتجاه والموقف العام. ولم يتميز عنهم إلا الوجيه المغربي ذي العمامة البيضاء والجلباب البزيوي... الوجيه ابن الوجيه الذي طالب بإنشاء قوة سرية ضاربة تكون مهمتها اغتيال زعماء الوطنيين ونفي محمد الخامس وتكسير التظاهرات الاحتجاجية المطالبة بالاستقلال عن فرنسا وإقبارها في المهد. وفي هذه الاثناء، كان بيير جاكوب المحامي يتفرس وجه الجيلالي بن الطيب الذي بقي واقفا أمام الباب لا يعرف ما يفعل بنفسه... يتفرسه بنظرة ماكرة اعتاد الجيلالي أن يلحظها لديه عند كل فرصة سانحة لإذلاله والتخلص من وجوده. لم يكن الجيلالي يفهم، رغم تفانيه في الخدمة، لماذا يكرهه هذا الشاب كرها شديدا، ولماذا يمعن في إذلاله... والظاهر أن بيير جاكوب كان يغار من الحظوة التي أصبحت للجيلالي داخل بيت الضابط... لدى ماري وأمها، ولدى الأرملة فرانسواز... كان يعرف بحكم تجربته الطويلة أن ثقة هؤلاء قد تتحول في يوم من الأيام إلى رصيد في البنك، أو عقارات وأسهم في الشركات، أو إلى قدرة على التحكم في رقاب الناس.. كل شروط التحول متوفرة: ضابط يتربع على امبراطورية عقارية في سايس والحياينة وتادلة والحوز وحوض ملوية ولا من وارث حقيقي إلا ماري... وأرملة ثرية ذات ضيعات عديدة لتربية البقر الحلوب، وعمارات في وسط الدار البيضاء وفاس ومكناس، وأسهم في عدد من الشركات أبرزها الشركة الشريفة للفوسفاط... وأرملات أخريات يرمقهن بيير جاكوب كل مرة بيقظة وحذر وهن لا يترددن في إظهار إعجابهن ببداهة الجيلالي وأدبه وقدرته الخارقة على التعلم، وتناسق جسده وقدراته الخارقة في مجال الحب والغرام. من الذي يمنع ماري من أن تتزوج بالجيلالي مثلا، ومن الذي يمنع سوزان من أن تتزوجه... ومن الذي يمنع هاته الأرملات اللواتي لا يعرفن كيف يدرن أملاكهن ولا كيف يتصرفن في حياتهن وهن على حافة اليأس بعد سقوط أزواجهن في ساحات القتال داخل المغرب وخارجه، من أن يغدقن هداياهن الثمينة على الجيلالي... هو الذي رأى، وهو الذي جرب وعرك وخبر. ولم تكذبه التجربة في هذا المجال أبدا... وعندما كان يختلي بنفسه في شقته المليئة بقنينات العطور الآتية من الشرق والغرب وزجاجات الخمر المعتقة المتلألئة

بشموس « تولال » و« كروان »، محتسيا خيباته مع قهوته وسيجارته، كان يرى مورينو الروخو واقفا في ثوب العريس مرة إلى جانب ماري،ومرة إلي جانب أمها، ومرة إلى جانب فرانسواز، ومرة إلى جانب الأرملات الأخريات... كان مهووسا بمورينو الروخو، هذا الخادم اللعين المنعدم الأصول.. غير أنه في إحدى خلواته المهلوسة اكتشف أن مورينو الروخو ليس إلا الوجه الآخر لبيير جاكوب ذاته...

لذلك كله وجد نفسه يتعقب أخبارمورينو الروخو يوما بيوم، منقبا عن أصله وفصله تدفعه الغيرة والخوف والشك في هويته.. من يكون هذا المورينو الروخو الذي لا يعرف عنه الناس إلا أنه وجد من بين الجرحى الميؤوس منهم داخل قاعة الأموات بالمستشفى العسكري، مجردا من ثيابه، ومن كل الأوراق التي تثبت هويته، لا يتقن الفرنسية، ولا الإسبانية، ولا العربية ولا البربرية...كومة صامتة من اللحم والدم والعظم بلا معنى ولادلالة. كان هذا هو السؤال الذي يراود بيير جاكوب كلما التقى بالجيلالي أو تذكره إثر حديث أو حلم ... وللبحث عن جواب لهذا السؤال نفسه، انفق بيير جاكوب المال والوقت والجهد مستغلا علاقاته بعدد من رجال المخابرات المختلفة سواء في المغرب أو المتروبول أو في الهند الصينية، وتلقى عددا من الشهادات والأخبار والمعطيات إلى أن تكون لديه ملف ضخم متكامل عن هوية الجيلالي بن الطيب المدعو بمورينو الروخو.. وعندئذ فقط، اطمأن بيير جاكوب على مستقبله. وأخذ يتحين الفرصة الذهبية لإخبار الجميع بحقيقة هذا الخادم اللغز.وفي انتظار ذلك كان بيير جاكوب يمعن في مشاكسة الجيلالي ومطاردته بل يمعن في إذلاله جهارا... حتى تعود الجيلالي على تحمل إهاناته بصبر. وفي كل مرة كان الجيلالي يتلقى إهانات بيير جاكوب ببسمة هادئة مرددا بصوت خافت: هذا من لطفك سيدي... شكرا لك... غير أن الجيلالي في هذه المرة، أحس بغرابة الموقف وببرودة تجتاح ظهره رغم حرارة الجو، فتوجس شرا وتأهب لاستقبال ما لاتحمد عقباه.

— لا تبق واقفا مورينو، خذ كرسيا واجلس!...

— العفو سيدي.!. أنا في الخدمة...

ــــ لابأس... اجلس... قال الضابط للجيلالي... دعونا نفكر أيها السادة والسيدات في كيفية تأسيس القوة الموازية المدافعة عن الحضور الفرنسي. ولتعلموا أنها لن تتعرض لمحاربة الوطنيين فقط بل يحتمل أيضا أن يقاومها الساسة في «الميتربول»، وبعض العناصر من ضعاف القلوب في الإقامة العامة... ولذلك، فيجب أن تحافظ على سريتها المطلقة، وأن يتلقى أفرادها تدريبا متكاملا دقيقا صارما... نريد كتيبة من أخير المدافعين عن الحرية و الحضارة وإرادة التاريخ.

ــــ إذا كنا سنتداول في هذه القضية، فيجب أن نتداول في مواصفات العناصرالتي ستتكون منها كتيبة الحرية... نعم... لنسمها كتيبة الحرية...

ــــ موافقون.!!.. موافقون.!!.

ــــ ... وفي طرق تمويلها...

ــــ وفي المدربين وأماكن التدريب ووسائله...

ــــ وفي العتاد والمعدات كلها...

ــــ فليخرجنَّ مورينو من القاعة لتكون الجلسة سرية في هذه القضية الخطيرة... صاح بيير جاكوب بملء فيه ملوحا بيده في الهواء كمن يتوعد عدوا...

تصفد العرق غزيرا من مسام جسد الجيلالي بن الطيب، وأحس كمن ألقي به على حين غرة من أعلى مرتفع بالمدينة، أو كمن وقع بين أسنان مصيدة للفئران... لماذا يمعن هذا الشاب التافه، بيير جاكوب، في إذلال، أي ذنب جنى، وأي جريرة ارتكب حتى يستحق هذا الكره كله؟!! ...

ــــ عيب عليك !. قالت سوزان غاضبة . مورينو الروخو محط ثقتنا جميعا...

ــــ محط ثقتك أنت وحدك... ونحن نعلم جميعا السبب والعلة. وقهقه عاليا وتبعه آخرون وأخريات... بَيْدَ أن سوزان تمالكت غضبها قائلة :

ــــ أَلَيْسَ حراما على أرملة عانت الأمرين في حياتها من جراء سقوط زوجها برصاص هؤلاء المتوحشين فداء لفرنسا ورفعتها، أن تمارس حريتها في تدبير حياتها الخاصة.؟!. من لم يكن منكم خاليا من الخطيئة فليقذفني بحجر...

ـــ لكن . . . ليس مع هذا الذي لا نعرف له أصلا ولا فصلا...

ـــ وأنت... هل تعرف نفسك...؟ هل نعرفك حقا؟!.. من منكم أيها السادة يعرف بيير جاكوب على وجه الحقيقة... رجل انتهازي، عديم المروءة، يخون أصدقاءه ويكذب عليهم بنفس السهولة التي بها يلتهم الطعام ويشرب الشراب... قف مكانك وإلا هشمت رأسك بهذا التمثال. صاحت فرانسواز وهي تتفرس وجه بيير جاكوب بنظرات متوحشة غاضبة ممسكة بتمثال صغير من البرونز. وعندما لزم بيير جاكوب مكانه، طفقت تحكي وتحكي... والحاضرون يرهفون السمع إلى ماتقوله... ولم يبق في فضاء الغرفة إلا الدخان وصوتها وذبابة واحدة تسللت من فتحة النافذة ينافس أزيزها صوت فرانسواز الملتهب كلما كانت هذه الأخيرة تضطر إلى السكوت قليلا لاستجماع قوتها قبل أن تستأنف الحكي من جديد...

- 10 -

لنبدأ بك أنت، يا «مارتان»، ياكبير صناعيّي البلد... أتتذكرُ اليومَ الشتويَّ الذي أتى فيه بيير جاكوب إلى مكتبك مقدِّما نفسه إليك، عارضا خدماته عليك... أتتذكر لهجته الضارعة المتوسلة، ولغته التي كان يحرص على انتقاء ألفاظها وعباراتها بعناية بالغة. لم يكن يخاطب فيك عقلك فقط بل غرائزك أيضا. سيدي الفاضل المحترم، إنني أعرف ما يجري في سوق المال والأعمال معرفة جيدة، أعرف أسرار أصدقائك وأعدائك فضلا عن خبرتي القانونيّة، ويمكنك أن تجربني إن أردت دون أن تدفع ولو سنتيما واحدا... فما يهمني هو خدمة رجل ناجح فاضل مثلك ليزداد قوة ونجاحا... فأنا أفتخر بالقرب من الرجال الناجحين الأقوياء مثلك، وأهيم حبا في خدمتهم وإرضاء رغباتهم ورغبات عائلاتهم. فرغباتهم أوامر في نظري .ولعلك تسألني سيدي عن حبي الغريزي لخدمتك وخدمة أمثالك من النابغين . . . أجيبك سيدي بأن الخدمة إرث ورثته عن جدي الأكبر جاكوب... نعم «جاكوب بنيامين» الألزاسي كبير خدم الأمبراطور نابليون بونابارط... رافقه في أطوار حياته العظيمة. رافقه في حروبه وحملاته على مصر، وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا وروسيا، ذاق معه حلاوة الانتصار ومرارة الهزيمة، وأصبح مع مرور الزمن رجل دولة محنك سهر على تربية أبنائه تربية حقوقية ووطنية عميقة... غير أن جدي المباشر، القريب، رغم ثقافته الواسعة ومساهماته في التأليف والإبداع الفني، ابتلي بارتياد دور القمار مفنيا ثروة جدنا الكبير والجدود الذين استخلفوه، منهكا أعصابه إلى أن وجد نفسه وحيدا بين السماء والارض، بين الكلاب والمتشردين. كانت جدتي رحمها الله، وهي بوربونية الأصل، تبحث

عنه في كل مكان وعندما كانت تجده في العراء أو في حضن مومس كان يضربها ضربا مبرحا، ولم يكن ينقذها منه إلا أبي أي ابنها الذي اضطر ذات يوم إلى تهديد أبيه بالقتل، واضعا سكينه على حنجرته إذا لم يقلع عن عاداته السيئة وعن ضرب أمه. وعندئذ فقط لاحظ الجميع تحولا جذريا في سلوك الجد، صار منكمشا على نفسه، لا يخرج من غرفته نهارا ولا ليلا، يكثر من شرب القهوة وتدخين السجائر، ومن الصلوات وكتابة الأشعار... بعض تلك الأشعار تدرس في المدارس الرسمية حتى الآن... وفي إحدى الليالي الحالكة الباردة، ترك جدي رسالة قرب وسادة جدتي يطلب منها المغفرة إذا لم تجد بالقرب منه سعادتها في هذه الحياة التي لو أعطيت له فرصة أخرى لعاشها بطريقة أحسن وأفضل... وخرج هائما على وجهه إلى أن وصل إلى برج «إيفل» فاعتلاه إلى أن أصبحت باريس ماثلة أمامه مثل جوهرة متلألئة، ودعها بنظرة شاملة مبللة بالدموع، وأغلق جفنيه كأنه يستدخلها في صميم كيانه إلى الأبد. نزل من البرج، وتوجه إلى نهر السين، خلع معطفه الأسود وربطة عنقه، وقذف بنفسه في أغوار المياه الباردة.

ظن أعداء آل جاكوب الألزاسي أننا انتهينا. بيد أننا في الواقع نشبه طائر الفنيقس، لا نموت إلا لننبعث من رمادنا. ذلك أن أبي كان قد درس في مدرسة البوليتكنيك، وحاول بكل ما أوتي من جهد أن يعيد بناء أسرتنا. وعندما علم بقرب غزو فرنسا للمغرب كان من أوائل المتطوعين. فعين مهندسا وطوبوغرافا في «لاليجيون اترانجير» منذ حادثة الدار البيضاء. نجا من هجوم «ولاد زيان» بأعجوبة. رافق «بيجو» في غزواته، شارك في قتل «الهيبة ماء العينين»، شارك في معركة «الهري» الشهيرة. وأصبح مقربا من الجنيرال «ليوتي» يستشيره في ملمات الأمور. وأنا سيدي غصن من تلك الشجرة. ربيت أحسن تربية. ستجدني مربيا للأولاد، ومحاميا، ومستشارا ماليا متتبعا لأخبار الأسواق النقدية في الغرب والشرق، ومسليا إذا ما ألم بك ضيق أو ضجر. وهذه شواهدي وبيانات مؤهلاتي... وأرجو ألا تحرمني من خدمتك...

ـــ أجبني يا مارتان، صاحت فرانسواز بأعلى صوتها، هل هذا الكلام الذي سمعته مني صادق أم كاذب ؟!

ولم يكد مارتان يفتح فمه قصد الجواب حتى كان «روجي» يؤكد مندهشا:

ـــ بل هو عين الصدق ! كيف عرفت ذلك ؟!

ـــ وكيف عرفتَ... ياروجي... أنت... أيضا... إنني لا أتذكر أنني رويتُ لك ذلك... صاح مارتان مستغربا منذهلا .وقد امتقع وجهه بالانفعال والغضب...

قهقه «روجي» بهستيرية وهو يتهجى كلماته:

ـــ عرفت ذلك... لأنه زارني في مكتبي كما زارك، وقص عليَّ نفس الحكاية، وعرض عليَّ نفس الخدمات، وقبلته في خدمتي كما قبلتَه أنت... قل لي يامرتان متى كان ذلك ؟!

ـــ كان ذلك قبل خمس سنين، في شهر أبريل.

ـــ وأنا أيضا... زارني هذا الوغد في نفس التاريخ، في نفس السنة والشهر. ولم يخبرني بأنه يعمل لصالحك.

ـــ ولا أنا... لا علم لي بأنه يعمل لصالحك.

ـــ «أوَافيقوا من القلبة بجوج» كما يقول المغاربة، قالت فرانسواز بلهجة مغربية رطنة.. إن هذا الشخص، بيير جاكوب، لا يعمل إلا لصالحه. أليس كذلك يا «إدغار»؟

ـــ بلى فرانسواز... بلى... لقد أُصِبْتُ بذهول وأنا أسمع ما أسمع وأرى ما أرى... وإنني أتساءل هل هذا إنسان أمْ شيطان... ذلك لأن هذا الوغد زارني في نفس التاريخ الذي زار فيه روجي ومارتان وعرض عليَّ مثل ماعرض عليهما فقبلتُ استخدامه...

ـــ وإذن اسمعوا مني... قالت فرانسواز وهي تشير بأصبعها...أنت يا مارتان المعروف بصولاتك في البورصة وبضيعاتك في «سايس» و«الغرب» و«تادلة»، وأنتَ يا إدغار المشهود لك بالباع الطويل في تجارة التصدير والاستيراد، وأنت... وأنت أيضا... اسألوا نساءكم عن تفاصيل جسد بيير جاكوب، فقد خبَرْتُهُ قبلهن كما اختبَرْتُ طباعَه وعاداته... أما ملفات القضايا التي يبتزها منكم مستخدما زوجاتكم فإنه يبيع أسرارها إلى جهاتٍ تنافسكم. هذا هو السر في ضياع عدد من الصفقات الهامة منك ياروجي ومن شركائك كصفقة كوكاكولا

والمشروبات الغازية، صفقة الإسمنت، صفقة استيراد الجرارات، صفقة بناء المطار، والقائمة طويلة... وعندما كنتَ غائبا تطارد الصفقات الممكنة كما لو كنتَ طفلا يطارد فراشاته بحرقة وانبهار، كان بيير جاكوب يلبس سراويلك الداخلية ويطلع على ملفاتك السرية ويحث زوجتك على تطليقك... وهذا ما فعلته المسكينة ظانة أنه سيتزوجها بعدك... ثم اكتشفت أنها تتبع السراب... وقصة انتحارها معروفة للجميع... وليكذبني المسيو «جاك» إذا كنت كاذبة... وإذا كانت قد أفلتت منه هذه القضية، فليسأل زوجته عن الخبر اليقين...

كان «جاك» عميدا لشرطة المدينة لا تعزب عن باله تفاصيل حياة القوم... استدارصوبه الحاضرون مندهشين متسائلين، غير أنه زم فمه وأطرق برأسه واجما لا ينبس ببنت شفة... أرغى روجي وأزبد، وتعالى لغط النساء الحاضرات منكرات مستنكرات، واختلط بدمدمات الازواج ووعيدهم واستفساراتهم القلقة لبيير جاكوب الذي لم يعرف لهذه الورطة مخرجا... وتوعده بعضهم بالمبارزة، وسبه بعضهم، وانسحبت النسوة وأزواجهن وسط قلق عارم، وتوترات لا حد لها. أما روجي فغمغم ذاهلا كالمجنون أو كمن أصيب بصاعقة ماحقة بعد أن أكد له عميد الشرطة صدق أقاويل فرانسواز: سأقتلك يابيير .!!. سأقتلك!!... وفي هذه اللحظة كانت فرانسواز ترمق الجميع بنظرة احتقار عميقة ضاغطة على يد الجيلالي بن الطيب، لا تمنع قهقهاتها من الانطلاق عند كل عثرة تمنى بها إحدى غريماتها في الطريق، أو لطمة ترتطم على خد بيير جاكوب الذي لم يأبه به أحد وهو يهمس بصوت مبحوح:

ـــ ولكن... ملفه عندي... ليس هذا الخادم موريسكيا ولا مسيحيا بل هو منهم... منهم... وأخرج الملف من محفظته الجلدية الأنيقة، وتناثرت بعض أوراقه في القاعة من جراء هرج الحاضرين ومرجهم مما جعل بيير جاكوب ينشغل بجمع تلك الأوراق من بين أرجلهم مهمهما من بين أسنانه بكلمات غامضة غاضبة.. حاول الضابط وزوجته بكل الأساليب تهدئة الأوضاع، وإرجاع الناس

إلى رشدهم ، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل أمام هذا السيل الزاخر بالانفعال والمشاعر العنيفة الملتهبة ... .وران صمت رهيب على القاعة بعد أن انسحب المنسحبون ولم يبق إلا الضابط وزوجته وجاك وبيير جاكوب وفرانسواز والجيلالي بن الطيب والوجيه بن الوجيه صاحب العمامة البيضاء والجلباب البزيوي وثلة من الرجال الذين لم ترد أسماؤهم ضمن لائحة فرانسواز...

ـــ اخرجْ ياموريـنو إلى الحديقة... سأدعوك متى احتجتك... قال الضابط بلهجة الآمر...

ـــسمعا وطاعة سيدي .!!..

حاولت فرانسواز أن تعترض. بيد أن الضابط قاطعها بسرعة وحزم قائلا : ـ فرانسواز أرجوك... لا تنسيْ أن مورينو خادمي قبل كل شئ.؟!..

خرج الجيلالي متمزقا خائفا على مصيره، تتقاذفه المشاعرالمتباينة الملتبسة من كل حدب وصوب. تهالك بكل قامته على كرسي قرب مدخل الدار مسندا ظهره على أسطوانة مرمرية... ووجد نفسه يحسد لأول مرة ذاك اللقلاق الأبيض الواقف في هدوء على رجل طويلة واحدة وسط عشه الضخم المستريح على أكتاف النخلة الباسقة الشامخة. وَدَّ لو كان قاضيا حتى يتوضأ بالحليب فيتحول بذلك إلى كائن لقلاقي متحرر من عبودية البشر وإكراهاتهم ومكرهم، قادر على الرحيل على متن الهواء الطليق متى أضناه المقام بحثا عن آفاق مغايرة، ومدارات أخرى مترعة بالخصب والحب والربيع والشمس... ود لو... بَيْدَ أنه سرعان ما سمع رنات الجرس ملحةً، مسترسلةً، فاندفع نحو مصدر الصوت، إلى أن وجد نفسه أمام باب الغرفة التي يجتمع فيها مجلس ماري، مجلس جمعية «صداقات المغرب»... دلف من الباب مطرقا .كان الجو حارا مشبعا بروائح التبغ والشراب وأنفاس البشر... وكانت ثريا الكريسطال المتدلية من سقف الحجرة تلمع أحجارُها من خلال غيمات الدخان. وكان الحاضرون يتناقشون كعادتهم بحماس وثقة بالذات طالما استاثرت بإعجاب الجيلالي بن الطيب تاركة فيه أطيب الانطباعات... ولم يكن بين هؤلاء الحاضرين إلا عجوز واحد بينما الآخرون كانوا شباباوشابات في الأغلب الأعم. ولم

يكونوا كلهم فرنسيين بل كان منهم يهوديان مغربيان يتميزان بقبعاتهما الأوروبية السوداء الواسعة، وثلاثة مغاربة مسلمين يلبسون لباسا إوروبيا ويغطون رؤوسهم بطرابيش حمراء، من الطراز الفاسي البديع... كان اليهوديان صحافيين مسؤولين عن إصدار جريدة أسبوعية شهيرة تدعو إلى قيم التسامح والصداقة بين أتباع الديانات السماوية الثلاثة في المغرب... وكان المغاربة المسلمون الثلاثة من البورجوازية الفاسية التي ارتبطت منذ القرن التاسع عشر بالشركات والأبناك الفرنسية والأوروبية بعلاقات مالية واقتصادية وثيقة وطيدة. ولذلك كانوا يرتبطون بالأوساط الإدارية والمالية الفرنسية بروابط الصداقة والاحترام، خاصة بعد أن تخرج بعضهم خلال الحرب الأخيرة من السربون، وتعرف عن كثب على الحضارة الفرنسية واستبطن قيمها وامتلأ وَلَهاً بلغتها وآدابها... بَيْدَ أنهم كانوا يرون أن الوجود الفرنسي على النحو الذي هو عليه أصبح ثقيلا على المغاربة... كانوا يتفقون مع ماري وزملائها الفرنسيين حول سداد تحليلات رجال من عيار جاك بيرك... تلك التحليلات التي ترى أن مصالح فرنسا في المغرب لن يدافع عنها إلا تحديث المغرب تحديثا شاملا. ولما كان المغرب بلدا فلاحيا فإن التحديث يجب أن يمس أولا البنيات الاجتماعية الفلاحية في اتجاه خلق إنسان جديد قادر بفضل المحراث الآلي، والجماعات المحلية بعد أن تتم دمقرطتها، على إطلاق مارد التنمية من عقاله. ثم بعدئذ يمكن للمغاربة وقد توفروا على أطرهم العصرية وتمرسوا بالتسيير الديمقراطي لشؤونهم المحلية والوطنية أن يختاروا فيما إذا كانوا راغبين في الاحتفاظ بعلاقات تبعية مثمرة مع فرنسا أو راغبين في الاستقلال الوطني. ولم تكن هذه التحليلات غريبة عن بعض الوطنيين المغاربة الذين تحلقوا حول محمد بن الحسن الوزاني بعد انفصاله عن زعيم الوطنية المغربية المعاصرة علال الفاسي.

أما هؤلاء المغاربة الثلاثة الحاضرون في مجلس ماري، الذين يتقنون الحديث بالفرنسية كما لو كانوا فرنسيين أبا عن جد، فلم يكونوا ينتمون لا إلى جماعة بلحسن الوزاني ولا إلى حزب الاستقلال، بل كانوا موظفين سامين في الإدارة: قضاة ورجال قانون يتكئون على رصيد عائلاتهم العريقة في التجارة ومخالطة

الأوروبيين، يحبون بلدهم على طريقتهم ويحبون فرنسا في آن واحد، ويودون من أعماقهم ألا تسوء علاقات المغاربة والفرنسيين إلى حد اشتعال حرب دموية تلتهم الأخضر واليابس على حد تعبير أحدهم. كانوا يعملون ما في وسعهم لكي تحل القضية المغربية حلا سلميا، في وقت أصبحت فيه رياح الحرب، ورياح القمع الاستعماري، ورياح المقاومة والبطولات الوطنية تهُبُّ لا على المغرب فحسب، بل على العالم برمته. كان الجيلالي واقفا أمام عتبة الباب مشدوها بما يراه ويسمعه، ينتظر أوامرمن طلبه. بَيْدَ ألاَّ أحدَ من الحاضرين فاتحه في شأن من الشؤون حتى أخذ يتساءل عما إذا كانت أذناه خانتاه هذه المرة... تنحنح بصوت مسموع وكأنه يقول للجميع: أيها الناس أنا هنا ! ابتسمتْ ماري وقد انتبهت إلى وجود الجيلالي فأمرته بأن يقترب منها ففعل. ربتت ماري على كتف الجيلالي وكأن بينهما تواطؤا قديما على أمور لا يعرفها سواهما، وقالت له:

ـــ أريدك ألا تغادر المنزل ليلا... فأنا في حاجة إليك حوالي منتصف الليل... تعال إلى غرفتي واحذر أن يراك أحد من أهل المنزل... أفهمت؟!..

ـــ سمعا وطاعة سيدتي !!... فهمت...

رمقه المغربيان اليهوديان بنظرة باسمة... أما المغاربة المسلمون الثلاثة فحيوه معتقدين أنه مغربي مسلم، غير أنهم لم يخفوا دهشتهم البالغة عندما أخبرتهم ماري بأنه مسيحي من أصل موريسكي...

انصرف الجيلالي بن الطيب مرة أخرى إلى مكانه، وتهالك على مقعده أمام باب المنزل الفسيح مسندا ظهره كعادته إلى العمود المرمري. بيد أن اللقلاق لم يكن هذه المرة قابعا في عشه فوق رأس النخلة... كان قد انصرف منذ مدة محلقا نحو زرقة سماء صافية تحلم بنجوم هاجرت ولم تعد بعد. وتساءل الجيلالي بن الطيب عما إذا كان اللقلاق قد سافر دون رجعة، وتمنى من أعماقه أن يعود لقلاقه إلى عشه آمنا.

انصرف ببصره نحو بنات بعض المدعوين وهن ينضين ثيابهن ويقفزن برشاقة في ماء المسبح... شابات رشيقات ناهدات في مقتبل العمر، يتقطر الشذى

من اجسادهن الغضة النابضة بالغواية والشهوة. بيد ان غياب اللقلاق كان قد ملأ كل مشاعره فلم يترك له مجالا لتأمل البنات وهن يلعبن كرة الماء بفنية عالية. كان صوت طفل صغير، يلبس جبة بيضاء تعرقل مشيه وركضه، قد غمر كيان الجيلالي آتيا من بعيد، نابعا من أغواره الباطنية السحيقة، كان الطفل يجري بين دروب المدينة القديمة، منشدا:

بلارج طار وجا
عينو كحلا عوجا
منقارو كيف السيف...

كان الجيلالي يبتسم وهو يرى الطفل الذي كانه منذ سنوات طويلة مديدة خلت، وكأنه يجرى أمامه في هذا المكان وفي هذه اللحظة بالذات.

وكلما كانت ضحكات البنات في المسبح تتعالى، كان نشيد الطفل يتعالى بدوره، إلى أن امتزجت الأصوات بالنشيد مكونة ما يشبه نشيدا كورسيا مثقّلا بالأحاسيس والمشاعر الدافئة الفيّاضة. وتذكر فجأة الموعد الذي ضربته له ماري. واستغرب من توقيته المتأخر، ومن تكتمها حوله وحرصها على إحاطته بالسرية. ورأى ماري في منتصف الليل وهي تفتح الباب فتتدافع منه أضواء الكهرباء هاربة في الفضاء الفسيح إلى ما لانهاية. رآها وهي تربت على كتفه بحنان بالغ فيتدفق الدم حارا من قلبه، ترتعش يداه وهو يحيط خصرها الضيق البديع بدراعيه جاذبا جسمها نحو جسمه، يتوحد بها وتتوحد به فيصيران أخف من الهواء محلقين نحو زرقة السماء... تعبث الرياح بشعرهما وبذيول أثوابهما. تتراءى لهما المدينة بيضاء صغيرة تتخللها بقع خضراء وحمراء وصفراء ورمادية ... التقيا باللقلاق عائدا فحياهما بلسان عربي فصيح متمنيا لهما رحلة ممتعة هادئة آمنة.. لغط، وضجيج، وصخب، وقهقهات، وأصوات مشي، وروائح تبغ وعطر تملأ الفضاء على سعته ورحابته...

لم يبق في المنزل من الضيوف أحد. كلهم خرجوا إلى الحديقة فور انتهاء أشغال المجلسين. فوقف الجيلالي احتراما منتحيا زاوية بعيدة مكنته من معاينة المنظر العام على نحو جيد. كانت الشمس حارة رغم اقتراب عقرب الساعة من الرابعة مساء. وكانت رياح غربية منعشة تهب خفيفة على أوراق الأشجارفتتمايل الأوراق ساطعة كقطع فضية. أجسام شقراء رشيقة ترتمي باضطراد في أحضان ماء المسبح الفسيح الذي تضاهي زرقته زرقة السماء. وأخرى تمتد على الكراسي الطويلة في الظل أو تحت أشعة الشمس... وخدمٌ يوزعون المشروبات والموز والتفاح والإجاص وبطيخ الجنة العذب البارد. وموسيقى شجية، وصوت صافي النبرات يَصَّاعَدُ في النفس نافورةً ممطرةً بعشق الحياة :

Non، rien de rien

Non، je ne regrette rien

نكتٌ متبادلة... ضحكاتٌ... رقصاتٌ... وصوتُ المغنيّة يتقطر شجوا

Ni le bien qu'on m'a fait
Ni le mal،
tout ça m'est bien égal.

شيوخ يتبادلون أخبار زمان وهم يدخنون غلايينهم، وكهول يرزحون تحت ثقل مسؤولياتهم في الجيش أو الإدارة أو الاقتصاد ودوائر المال يبدون كما لو كانوا يبذلون قصارى الجهد للانشغال باللحظة ونسيان الماضي والمستقبل.

الساعة الخامسة... فرانسواز ترقص كالأفعوان وسط غابة من الأجساد الرشيقة أو المترهلة أحيانا... لا تبالي بأي أحد... كأنها توجد وحدها في الحديقة، مسبلة العينين، تدعس البلاط بكعب حذائها الأحمر مصفقة بكفيها كما لو كانت غجرية حقيقية... لا يظهر لعينيها المسبلتين إلا طيف الجيلالي بن الطيب وهو يتابع ما يجري في الحديقة بعينين فيهما بريق ملغز غريب...

أما ماري... فكانت مهمومة قلقة رغم بهجة الاحتفال ورونقه... تتابع تحركات الحاضرين وكأنها تتحسب وقوع شئ مفجع لا ترغب فيه وتتأهب لتلافيه، فتتظاهر أحيانا بالطرب، وأحيانا تحث كلارا وبقية الخدم على تقديم الشراب لكافة الضيوف وعلى ألا ينسوا أحدا حتى لا يتسبب ذلك في أزمة حقيقية.

كمنجةٌ ملتاعةٌ راعفةٌ بالشذو... قيثارةٌ تهتز أوتارُها فيهتز القلب وتتقد الأشجان وتسيح الذكريات خلجانا عميقة الأغوار.. ونسائم «سايس» تلاعب خصلات شعر ماري، وتلامس في رفق أجساد الراقصين والراقصات اللواتي تحلقن حول فرانسواز وهي تراقص الجيلالي ببراعة نادرة، يدها في يده، العين في العين ، والصدر في الصدر، والسيقان تتداخل طورا وتفترق طورا آخر، والأحذية تلامس في خفة بالغة زليج الحديقة... وبيير جاكوب يسكب في حلقه دفعة واحدة ما تبقى في قنينة الويسكي وكأنه يطفئ بذلك حرائق مدينة كاملة، محطما القنينة على رأس أحد الليوث الحجرية المنحوتة التي ظلت تقذف بمياهها الصافية غير آبهة بما يحدث... وعندما تيقن من عزلته القاتلة انتحب كالطفل معانقا الصبايا المنحوتة إلى أن أحس بوخزة أصبع في ظهره، وعندما استدار وجد أمامه «روجي» وهو يتفرسه بنظرات يتطاير منها الشرر... فما كان منه إلا أن قهقه عاليا مظهرا استخفافه واحتقاره خاصة عندما ردد روجي «سأقتلك كما قتلتني غير أنني ساكون بك رحيما لأنني سأقتلك بصفة نهائية لا رجعة فيها. وهكذا ستذوق الموت مرة واحدة. أما أنا فقد حكمت علي أيها الوغد اللعين بأن أذوقه مرتين... مرتين...». كمنجة ملتاعة... وقيثارة تهز شغاف القلب... ونسائم سايس تعبث بخصلات الشعروأذيال الأثواب الحريرية الناعمة الملساء المنسابة على أجسادٍ قُدَّتْ من لجين... وفرانسواز والجيلالي يتراقصان وسط استحسان جماعيٍّ للمتحلقين والمتحلقات حولهما كخاتم الأصبع.. نقاشٌ حادٌ، سبٌّ وشتم، تهديدٌ وتحدٍّ... عيونٌ جاحظةٌ... أنفاسٌ متقطعة... واعترافٌ قاس بالخيانة والغدر والحقد... وطلقةُ رصاص خافتة تخترق قلب بيير جاكوب فتبتل بدمه الفوار مناديلُ الصبايا الناهدات

الخالدات في عريهن البارد الصامت المرمري.. طيورٌ بيضاء تغادر مرتاعة خمائلها محلقة نحو حمرة تتقطر من الشمس الغاربة في الأفق البعيد تَقَطُّرَ الدّمِ من قلب هذا الشقي المدعو بيير جاكوب، الذي لم يجد في ساعته الأخيرة إلا صدرصبية من المرمر المنحوت البارد يحتويه ويستقبل شهقته الأخيرة...كل الأخريات اللواتي عرفهن طيلة حياته، تنكرت صدورهن له، وبعضهن يوجدن الآن في حلقة الرقص راكضات وراء لذة هاربة باستمرار... هكذا ظل قلب بيير جاكوب ينزف في هدءة باردة طيلة فترة من الزمن، بينما كان الأكورديون والكمنجة يتبادلان عتابا شجيا تهتز له أجساد الراقصات والراقصين. ولم يسقط بيير جاكوب على الارض بل ظل واقفا محتضنا تمثال الصبية وقد دس وجهه بين نهديها وكأنه ينتحب حظه العاثر. وظل الخدم يمرون بالقرب منه ويخاطبونه بعبارات التحية ويضعون في طبق من البورسولين الأبيض المذهب بعض ما في صينياتهم من الحلوى والشراب دون أن ينتبهوا إلى خيط رفيع من الدم القاني وهوينساب على الزليج، رابطا بين قلب بيير جاكوب ومياه المسبح المتوهج بلألاء الفوانيس الكهربائية... ولم ينتبه الحاضرون إلى مقتله إلا بعد أن انتهت حلقة الرقص، وإلا بعد أن انصرفوا إلى موائد العشاء الفاخرة المضاءة في ساحة الحديقة بشموع ملونة يرعاها القمر بأضوائه الفضية الهادئة... وذلك عندما انتبهت ماري إلى الوضع المريب الذي كان عليه بيير جاكوب خاصة وأنه لم يتحرك منذ مدة. ظنت لأول وهلة أن هذا الوضع ناتج عن ألاعيب بيير جاكوب المعتادة وعن حبه للفت انتباه الناس إليه بمختلف الوسائل حتى أكثرها غرابة وحمقا، غير أن مرور الزمن وتمادي بيير جاكوب في وضعه الشاذ الغريب أقنعاها بأن أمرا رهيبا قد حدث فهرعت إليه تحركه فتلطخت يداها بدمه وسقطت جثته هامدة على الأرض. عندئذ، فقط، انتبه الجميع إلى هول الكارثة، فاصفرت الوجوه، وأشار البعض بعلامات الصليب على صدورهم مترحمين، وأغمي على البعض بينما لم يخف البعض ارتياحه... أما ماري فأصيبت بذهول شديد كاد أن يسكت أنفاسها لولا أن الجيلالي بن الطيب وأباها ساعداها على مغادرة الحديقة واستدعيا لها الطبيب لإسعافها.

في هذا الجو الكئيب المشبع برائحة الموت، المثقل بمواجع الصمت، وقف «روجي» بقامته الطويلة وسط الحاضرين، هادئا، لا أثر في وجهه لا للفرح ولا للحزن، سوّى ربطة عنقه بحركة رشيقة، ووضع المسدس فوق الطاولة مفرغا كأس ويسكي في حنجرته، وأخذ الكمنجة بين أنامله وحنا عليها حنو الأم الرؤوم عازفا عليها لحنا جنائزيا مؤثرا لم يثنه عن إتمامه حضور البوليس وإلحاحهم عليه بأن يصاحبهم إلى القسم. كان روجي في قمة نشوته وهذيانه وهو يُودِعُ الكمنجةَ أسرارَه ولوْعَتَهُ وعذاباتِه في الحبّ والحربِ وصراعاتِ الحياة، غير آبِه برجال الشرطة الذين اقتادوه عبر ممشى الحديقة وهو يعزف هاذيا والحاضرون في أثره إلى أن غادر الباب وركب سيارة الشرطة التي انطلقت مسرعة في طريقها تولول منذرة محذرة...

انصرف الجميع يجرون أرجلهم، لايلوون على شيء، مثقلين بالإحساس بالخطيئة والذنب، بعد أن أقلت سيارة الأسعاف جثة القتيل إلى غرفة الاموات بالمستشفى. فاقفرت الحديقة إلا من دم بيير جاكوب، ومن الجيلالي بن الطيب المدعو مورينو الروخو. بقيا وحدهما يتناجيان في خلوة تامة يجللها الصمت والسكون. ومن قال إن المناجاة مستحيلة بين دم ميت وحي؟! قال الجيلالي في نفسه. أليست حياة الأحياء مشروطة برموز الأموات وعلاماتهم منذ أن كان الإنسان إنسانا. يظن الحي لأيا من الوقت أنه يتحرر من قيود غريمه بمجرد ما يموت هذا الغريم، غير أن التجربة أثبتت كل مرة أن الميت وإن فني جسده في التراب يبقى حيّا بآثاره، يمارس حياته الأخرى من خلال حياة الأحياء، يمارسها في أفكارهم ووجدانهم وذاكرتهم، في شعورهم ولا شعورهم، في اللغة والطقوس والعادات، والأدوات. كل أديان العالم اعترفت منذ غابر الأزمان بسلطة الأموات على الأحياء، واستقرت تلك السلطة في مركز معتقداتها وطقوسها المتنوعة. ولما كانت كل سلطة تستلزم بالضرورة مقاومة، فإن الاحياء يظلون طيلة حياتهم يقاومون سلطة الأموات بالاختراع والإبداع والكذب والتأويل والتزوير والنسيان... ولبييرجاكوب الميت سلطته التي لا يجحدها جاحد. ومن آياتها هذا الملف الذي وجده الجيلالي ملقى على الارض، بين

شجيرات أزير، بالقرب من تمثال الحسناء التي لقي بيير جاكوب حتفه بين أحضانها. أحس الجيلالي كما لو أن الملف هو الذي يتأبطه لا العكس. نارٌ محرقةٌ تنبعث سريّةً منه تخترق الجلد لتستقر في سويداء القلب وهلوسات المخيلة. حاول الجيلالي أن يتخلص من هذا الملف، أن يلقي به في سلة القمامة، في ماء المسبح، في دورة المياه، أن يعيده إلى مكانه متجاهلا وجوده. مالذي يحتويه هذا الملف الجلدي المختوم بعناية فائقة. لا شك أنه يحتوي سرا... لا، ربما يكون ملف قضية من تلك القضايا التي اعتاد أن يترافع فيها بيير جاكوب أمام المحاكم... وربما يكون مجرد محفظة ضخمة مكتنزة بالأوراق المالية.. لم لا أفتحها لأرى ما بداخلها.. آهٍ لو كانت النقودُ هي التي تتخمَّر داخلها آجْلِيوَل... عندئذ ساخفيها عن أعين الجن والإنس... وساصبح غنيا موسرا قادرا على العيش فوق الأرض باسم آخر، لايهم إن كان عربيا أو غربيا أوصينيا أو حبشيا... وسأبني بيتا فسيحا تلتجئ إليه طيور العالم على اختلاف ألوانها وأغاريدها، وسأتزوج... أحسن الفتيات... سأتزوج سيدة الحسن والدلال، تلك التي من ابتسامتها تشرق الشمس، ومن دموعها تتقطر الأمطار... لكن يا أنا... من أنا حتى أتزوج هذه التي كلما نظرت الى عينيها كلما وجدت نفسي ضائعا تائها بنشوة هي أشبه بنشوة السكران، منحل الأوصال، منحبس اللسان... من أنا... وهذا الدم... هذا الدم المسعور المجلل بالسواد كذئب تقطر أنيابه بشهوة الابتلاع، يطاردني، يتماهى بذاكرتي، لم تلدني أمي مجرما، لست أخا لهابيل،.. لست أنا القاتل فلماذا أتصرف وكأنني المذنب القاتل... لكن... أَلَمْ أقتل بيير جاكوب في سري عشرات المرات في اليوم دون أن أفلح في التخلص من مطارداته ونظراته الهادئة المسمومة التي دوما كانت تقول لي بأوضح عبارة: إيه آجويليلي، لستَ إلا حشرة جاءت بك الرياح، وآن أوان اختفائك إلى الأبد. سأسحقك بقدمي هذه... وكانت قدم بيير جاكوب اللعين تكبر في عيني آلاف المرات مانعة إياي من التمييز بين الأشياء في واضحة النهار، ولم أكن أجد بدا من مغادرة المكان الذي يوجد فيه علني

استعيد توازني المفقود، وفي بعض الأحيان كنت أختفي عن الأنظار، ملتجئا إلى المرحاض، صارخا بأعلى صوتي، لاكما الجدار حتى يختلط دمي بطلائه الأبيض الناصع. تبا لبيير جاكوب.. اتفو عليه... وعلى من باضه... ثعبانٌ مهووسٌ بالغواية والشر، من سلالة الثعبان الأصليّ، الشيطانيّ، الذي نفث من أعلى شجرة النعيم فحيحَه الجهنمي في أذن أمنا حواء، فكان الشقاء والمكر والحرب والخراب من جزاء السلالة الآدمية. آجويليلي...أنت تخرف...أترك عنك هذا الهذيان المحموم وافتح الملف وانظر مافيه..حسنا سأفعل... سألقي نظرة فقط... إرواء لهذا الفضول العارم الذي يهزني هزا..

ــ مورينو... مورينو... أين أنت.؟!.

هذا صوت فرانسواز... يجب ألا ترى الملف في يدي مفتوحا وإلا ظنت بي الظنون... سأتظاهر بتنظيف الدم من زليج الحديقة...أين الجفّاف. آتفو... أخذُمه حيا وميتا... ابن الكلب...

ــ لا تمسح الدم... اتركه على حاله إلى أن ينتهي التحقيق في القضية... اذهب، وغير ثيابك، وتعال، رافقني إلى البيت... قالت فرانسواز بلهجة آمرة... قبل أن تستطرد سائلة عن الملف الذي يتأبطه... تلعثم لسانه عندما حاول أن يكذب... فأخبرها بالحقيقة... لم تصدق... إلى أن رأت خط بيير جاكوب واضحا على الملف، فألحت على أن يتركه لها الجيلالي للاطلاع عليه قبل أن تسلمه إلى البوليس عله يساعدهم في إعادة بناء ملابسات الجريمة... ولم يجد مفرا من تلبية رغبتها كالعادة. فناولها الملف ولسان حاله يقول: لك أنت فقط... رغم عنادك... رغم صلفك أحيانا وكبريائك، رغم حقدك الذي لا حد له، وحبك الذي لاقرار له، لا أقول لا... لا في السر ولا في العلانية...

-11-

سجى الليلُ، وجادت الزُّهورُ بعطورها، وتألقَتِ السّماءُ مُخْتالَةً في أبهى حُلَلِها، وأَسْدَلَتْ أشجارُ النخيلِ والزّيزفون ظفائِرَها في خشوع تام. واستسلم اللقلاقُ الأبيضُ لحلمه الطويل اللانهائيّ، منغلقاً على نفسه، مستجِمّاً في فضاءاتٍ تتموّجُ بالألوانِ قبْلَ أنْ تتماهى بالأبيضِ إلى الأبد. فالأبيضُ هو كل شئ، هو الوجودُوالعدمُ، والحياةُ والموتُ، والحركةُ والسّكون. هذا ما ظل الجيلالي يعتقده بمنأى عن الشك والريب. ولأمر ما انبثق في ذهنه صهريجُ الدِّباغَةِ فوّاحاً بروائح غريبةٍ تنتمي إلى مدارات أخرى، مَوّاراً بتموُّجات الألوان...

سجى الليلُ، وهدأتِ الأكوانُ كلُّها، أَوْ هكذا ظنّ الجيلالي بن الطيب. بَيْدَ أنّ بُرْكَاناً متفجّراً بالحِمَم، منتفِخاً باللّهَب، كان قد استقرَّ عميقا في صدر الجيلاني بن الطيب. لابد من أن يجد متنفسا لانفجاراته وانهياراته العميقة. هل يبكي أم يقهقه ؟ هل يشتكي أم يصرخ؟ هل يعتذر أم يهدد؟ هل يستسلم أم يتمرد؟ وحدَه العواءُ نافِعٌ الآن. فَلأعْوي بملإٍ ما في جوفي مِنْ نارٍ وحِمَم. وَحْدَهُ العواء نافعٌ مادامتْ شريعةُ الغابِ تَحْكُمُ العَالَم...

أخذ يعوي كالذئب... في الحديقة. تعالى صوتُه حادّاً، شاكياً باكياً غاضباً حاقداً معا. انتفختْ عروقُ عنقه ويديه، جحظتْ عيناهُ، امتقعَ لونُه، أرغى وأزبدَ وهو يعوي... ويعوي... ويعوي. وسكونُ الليْل يهزأُ به. وحدها كلارا كانت تراقبه من شُرفَةِ بيتها المتوهِّجَة بالضَّوء منذ أنْ شاهدتْ سوزان معه تحادِثُهُ في أمْرِ الملف. أشفقتْ من حاله .فاقبلتْ عليه مسرعةً علها تهدئ من روعه.

كانت تتخطى درجات الدرج وعتبات الأبواب في خفة بالغة دون أن تعي أو تشعر. ودَّتْ لو اختطفتْه ُمن هذه الثكنة التي لا أول لها ولا آخر،واجتازتْ به الجبالَ والبحارَ، إلى أنْ تصلَ به إلى جزر الواقْ واقِ التي طالما حلمتُ بالعيش فيها مع عريسها الموعودِ منذ طفولتِها المبكِّرة. وعندما وصلت إلى الباب الكبير المؤدي إلى الحديقة،تمالكت عواطفَها، وتظاهرتْ برباطةِ الجأش، وباللامبالاة. وأخذتَ تُرجِعُ ما سقط على ربيع الحديقة من كراسي ومزهريّات ومنفضات إلى أماكنها المعتادة. ولم يمُسِك الجيلالي عن عوائه العميق المنبعث من أصل غامض موغل في الحيوانيّة، لأنّه لم يرها. وسوف لن يراها أبدا مادام في حالته تلك. تبّاً للأنانية... لا وقتَ للتَّمْثيل... يجبُ أن ألحق به قبل أن يؤذيَ نفسه...

أمسكتْ بيدِه وهزته بعنف. أمسك هو عن العويل وقد تفاجأ بحضورها بغتة إلى جانبه. وفي خِضَمّ المفاجأةِ، وجد نفسه في حضنها، يشهق كالطفل في حضن أمه. مسحتْ دموعَه. وأعادته من جديد إلى حضنها وهي تلامس ظهره بأناملها في حنان بالغ، طالبة منه أن يستسلم لحضنها وأن يستريح مما هو فيه من عناء وألم.

استسلم الجيلالي بن الطيب إلى هذا الحضن الدافئ الناضج. وسرى خدر غامر في أعماق كيانه. ذبلتْ عيناه. وارتخت أوصاله. واختلج قلبه. وأحسَّ بلفح أنفاسها في وجنتيه. رفع رأسه قليلا فالتقت شفتاهما المسعورتان بطلب اللذة، واندمجتْ أنفاسُهما، وأحسَّ برحيق عسلي يسري في فمه وعروقه. العسل هو عسل بلادنا... لا غير.!!. هكذا كان يقول أبوه... وَوَدَّ لو ذابت شفتاه إلى الأبد... كانت عيناهما مسبلتان... بَيْدَ أنّ عينَ الأعْور ـــ التي لا تفوتها حركاتُ كلارا في السّر ولا في العلانية ـــ كانت جاحظة غاضبة ًمندهشةً مستغربةً، تَرْمُقُهما بحقدٍ من وراء الظلام الدامس.عبثا حاول الأعور أن يعكر ما جاد به القدر على كلارا والجيلالي، تجشأ مرات بصوت مرتفع. ألقى بحجر في ماء المسبح. أسقط مزهريّة على الأرض... طارت بعضُ العصافير منزعجة ًمرتعبة. وارتعدت أغصان شجيرات أزير عندما اندست

فيها هرة مذعورة. غير أن الجيلالي وكلارا لم يشعرا بأي شئ. فقد أصبح وجودهما الواحد المتحد هو الوجود، وأنّى لهما أن يشعرا بأي شئ خارجه.

ـــ تعال معي إلى غرفتي.!!. قالت له بدلال واضح.

ـــ سمعا وطاعة...!! ... لكن... سوزان... تنتظرني... غمغم مترددا...

ـــ سوزان..!!. سوزان..!!. دائما سوزان.!!. أأنت متعلق بها إلى هذا الحد؟!... قالت كمن تلومه... وقادته من يده إلى الباب الكبير، فلم يمانع... مرّا قرب الشجرة التي كان يختبئ وراءها الأعور دون أن يشعرا بوجوده. اجتازا عتبة الباب وارتقيا الدرج جنبا إلى جنب ترافقهما عين الأعور إلى أن غابا تماما...

كفكف الأعورُ عينَه الوحيدةَ بمنديلٍ مطرّزٍ كان قد التقطه إثر سقوطه ذات يوم بعيد من حقيبة كلارا. وتيقن بإنه تعيس الحظ، تتبعُه العينُ الشرّيرة. فتلى تلقائيّا كعادته في مثل هذه الظروف العصيبة آية الكرسي. واستجمع أطرافه المنهارة، وقرّر أن يلاحق طريدتيْه بعينه الحادة من ثقْبٍ وراء الباب، لا بل من ثقب في الحائط الفاصل بين غرفة كلارا وغرفته، كان قد صنعه منذ مدّة لهذا الغرض.

انغرستِ العينُ في الجدار متلهفة لرؤية الجسدين منهمكين في صلاتهما الأبديّة. وتحسّس الأعورُ جسدَه. غير أن العينَ لم تر شيئا مما كانت تتحرقُ لرؤيته وتسجيله في الوجدان والذاكرة. لم تر إلا شبح جسدين نائمين مرتخيين هامدين غارقين في ظلام الغرفة. قُضِيَ الأمرُ إذن. لام الأعورُ نفسه على التأخر الفظيع الذي ارتكبه. وقرر أن يعاقبها لكي لا تُكَرِّرَ هذا التأخر مرة أخرى. وفي غمرة انفعاله، كان يتصرف كالسّكران أو المجنون. كانتْ عينُه تحمَرُّ وتجحظ، وأنفاسه تتعالى فتنتفخ أوداجه وعروقه وينكمش جلد وجهه فيصبح منظرُه صارماً قاسياً حادّاً متوحّشاً رهيباً. ويفقد السيطرة على حركاته وسكناته فيصبح غولا حقيقيّا، يكسّرُ ويحطمُ ويحرقُ ويسبُّ ويشتمُ ويخدشُ ويعضُّ ويهذي ويولولُ وينتحبُ ويقهقهُ. ثم يعودُ إلى صوابِه، فيصيرُ هادئاً رزيناً خجولاً مطيعاً متسامحا، قليل الكلام. أما في هذه المرة، فقد

قرر أن يعاقِبَ نفسَه على التّأخر الذي ارتكبه، عقابا حقيقيّا. ربما مَلَّ تدميرَ الأشياء تكفيرا عن أخطائه، فأختار تدميرَ ذاته بدلا من الأشياء.

تهالك الأعورُ على الكرسيّ. ووضع راحتيْه على الطاولة. وأطرق برأسه مفكرا عندما سمع صوتا ينبعث من غرفة كلارا، فنط كالهر إلى الجدار مرة أخرى. وانغرست العينُ في الجدار متلهفة لرؤية الجسدين منهمكين في صلاتهما الأبدية. بيد أنه لم ير شيئا جديدا... كان كل شئ على حاله كما كان. فعاد إلى مكانه متوترا حاقدا حانقا متوعدا إلى أَنِ التقَتْ عينُه ببريقِ سكّين وسط صحن مليئ بالبرتقال، فأمسك به بيمناه، وتحسّس شفرته بيسراه. التمعت عينه حبورا وفرحا. كان سكينا جيدا حاداملائما. فأسبل يده اليسرى على الطاولة، وتأملها إلى أن جمدت نظرته على عرق نابض فيها. ثم رفع السكين باليمنى في الهواء، وقهقه كالوحش، ونزل به على اليد اليسرى، فانغرس السكين في اليد إلى أَنِ اخترق خشبَ الطاولة. فأصبحت اليد والطاولة متكاملتين... أصبحت إحداهما امتدادا للأخرى.

انبجس الدم من اليسرى دافئا، قانياً، متوتراً، غزيراً. تحسّس الأعور دمَه مندهشاً، كأنه لم يكن ينتظر أن يخرج منه كل هذا الدم. فغارت قهقهته. وأحس بألم جارف يعتصر كيانه. كانت يده ترتعد بقوة وعنف. وتساءل في نفسه: لماذا ترتعد هذه اليد اللعينة رغم إرادته.. على غير عادتها.؟. هل انفصل جسمه عنه إلى هذا الحد؟... لا... يا للسخافة... أنا وجسمي كائن واح... إسمان لمسمّى واحد... وهذا الألم الذي يعصر كلَّ مُكَوِّنٍ من مكونات وجودي شاهدٌ على ذلك.

حاول أن يخرج السكين من يده فلم يستطع .كانت السكين قد غارت في عمق الطاولة. حاول مرة أخرى وهو يتلوى من الألم. وأيقن أن نهايته وشيكة. فتضاعف ألمه بخوفه على حياته من الموت. وحاول نزعَ السكين مرة ثالثة فلم يفلح. غير أن صحن البرتقال سقط فجأة على الأرض محدثا دويا كبيرا. وتدحرجت البرتقالات الواحدة تلو الأخرى على الأرض.

ـــ ما الذي يجرى هنا؟... هل أنت بخير؟ قالت كلارا وهي تفتح الباب الذي كان الأعور قد أهمل إغلاقه بالمفتاح، واندفعت داخل الحجرة والحيرة بادية على محيّاها... ووراءها لمح الأعورُ طيفَ الجيلالي وهو لا يزال منهمكا في إغلاق أزرار قميصه. فأطبق الأعور ولم يجب. وكان الجيلالي على وشك الكلام،غير أنه جمد إلى جانب كلارا عندما رأى السكينَ منغرسا في اليد وقد تضرجتْ في بركة من الدم الذي ما انفك ينزف على صفحة الطاولة قبل أن يقطر على الأرض.

ـــ بحق النبي، لا تقف مشلولا هكذا. أزلِ السّكينَ من يَدِ عبّو الدّيْليمي... ماذا تنتظر؟!!...

ـــ صاحت كلارا في وجه الجيلالي.

أخرج الجيلاليُّ السكينَ من يد الأعور. ولفَّتْ كلارا اليدَ في خرقة نظيفة أحضرتها من حجرتها على وجه السرعة. غامت عينُ الأعور وشعر بدوار رهيب أغمي على إثره. فاضطر الجيلالي إلى حمله والخروج به عبر الدرجِ والبابِ الكبيرِ المؤدي إلى الحديقة. كانت اليدُ تنزف دما والأعور مغمى عليه وجسم الجيلالي يتصفّد منه عرق بارد. يجب أن يتّجه لِتَوِّه صوْبَ مرأب السّيارات والإصطبل، فالوقت لايرحمُ، وكلُّ دقيقةٍ تمر يمكن أن تحمل معها الموت الزؤام...اتْفُو !! على الموت... على أنيابِه الزرقاء التي لا تكل ولا تشبع، على عينه الوحيدة التي لا تنام في الليْل ولا في النهار. مثلها في ذلك مثل عين الأعور. مُحالٌ أنْ يقتل الموتُ شبيهَهُ. ألا يحِنُّ قلبُ الأعور على الأعور؟ تهذي آجْويليلي! وما أدراك أنَّ للموتِ عينا ؟ وهل هذا وقتُ الهذيانِ؟ آه كَمْ هو ثقيلٌ هذا الأعْورُ ؟ ربّاهُ احفظه من الموت وارجع إليه عافيته؟ وأخيرا قطعتُ به الدرج. أرجو ألا يشعر أحد آخر في هذا البيت بما حدث. ربنا سترك الشامل الذي لا ينقطع ولا يزول. أوف!! كم هو ثقيلٌ هذا الأعور. سأستريح في الحديقة، لابأس، لا بأس مطلقا...

وما إن وصل الجيلالي إلى الحديقة، حتى صادف في طريقه سوزان التي جاءت من بيتِها غاضبة تستفسِرُه عن تأخّرِه الممضّ الطويل. لكن غضبها سرعان ما

تلاشى عندما علمت بما حصل. فأعانت الجيلالي على حمل الأعور إلى سيارتها، غير عابئة بكلارا التي أطلت من الباب الكبير المشْرِف على الحديقة. وبسرعة البرق، اندفعت سيّارة سوزان، وعلى متْنِها الجيلاليُّ والأعور، تحت أنظار كلارا خارج الثكنة. واندفع معها شلالٌ هادرٌ من الحقدِ والترقُّبِ والخوفِ والأمل. تنهدتْ كلارا بعمقٍ... كان هواءُ الليل باردا... تنهدتْ كمن يرزح تحت ثقل كبير... أحسَّتْ بأنّ سوزان أحرزت كسباً جديدا. أحست بالحقد والكراهية... وأحست بأن المسافة بينها وبين قلب الجيلاليّ أصبحتْ تتّسِعُ وتَطولُ بعد أنِ اعتقدتْ أنّ هذه الليلة تُشَكِّل منعطفاً في حياتها. آتْفُو !! على سوزان. حسناً.!. فَليَكُن... لابُدّ لي أن أصبر ياسوزان على غطرستك. ولتعلمي أنك امرأةٌ قبل أن تكوني من هؤلاء القوم الذين تسلطوا علينا بقوة الحديد والنار. ولا أخالك إلا عالمَةً بأنّ قلب المرأة للمرأة كتابٌ مفتوحٌ لا سِرَّ فيه. وهل يَقْدِرُ على كَسْر مَكْرِ النّساء إلا النساء؟ وإنّ غداً لِناظِرِهِ قَريبُ...

- 12 -

أطل صباحٌ آخر على المدينة. أسوارٌ مضرّجَةٌ بحمرة الزمن تخرج لتوّها من ضبابٍ داكنِ اللون. قبابٌ خضراءُ تَشْرَئِبُّ إلى مركز السّماءِ باحثَةً عنِ اللانهائيِّ والمطلق. سطوحٌ متفاوتةُ الأحجامِ والأشكالِ والألوانِ تتداخل مكوِّنَةً ما يُشْبِهُ خلايا جبح النّحل. أسرابٌ من الخطاطيف السّوداء تستحم بتيارات الهواء النقيِّ المنعش لا تبالي بما يخبؤه الزمن. دخانٌ تتصاعد أعمدتُه هنا وهناك ملتويةً على أكتاف الرِّيحِ، معلنةً دبيبَ الحياة في الأفران والحمّامات. وثمّةَ لقلاقٌ أبيضُ اللونِ يُداعِبُ أُنْثاهُ في عشّهما الفسيح المعشوشب. يتثاءبُ راضياً بالحياةِ. يقهقهُ فيصيرُ منقارُه شبيهاً بالمقصّ في يد عازفٍ من عازفي گناوة.

آگناوي ناوي ناوي

آگناوي سيدي ميمون...

همس الجيلالي وهو يردّدُ أغنيّةً كناويّةً شهيرة. لم يكن يدرك معانيها أحياناً بَيْدَ أنّهُ كان يُحِسُّ بأنغامِها كما لو كانت تَنِزُّ من مسامِّ جلدِه. تتدفق في إيقاعها الوحشي شلالاتُ نياجارا، ومياهُ نهر النيجر، ورمال الصحراء الكبرى.

آ گناوي ناوي ناوي

اگناوي سيدي ميمون

رددتْ سوزان بصوتها الرقيق الذي تظفي عليه رطانتُها مُسْحَةً ظريفةً عذبةً، وهي تُحِسُّ للمرّةِ الأولى بحبٍّ حقيقيٍّ جارفٍ لهذا الرّجلِ الملغز الساحرِ بصمتِه ونطقِه معا. وارتعد جسمُها البضُّ الغضُّ على إيقاع كناوة فتناثر عبَقُ شعرِها

ليلفّ سطحَ اصطبلِ صهريج الشّواني بغُلالةٍ سحريّة. كانت ترقصُ منتصبةً واقفة. وحاول الجيلاليُّ تقليدَ الرقصِ الكناويّ بحركاتٍ دائريّة سريعة تنزل بالجسم القرفصاء وتعلو به تدريجيا إلى العلياء.. لكنْ بدون جدوى. واعترف الجيلالي لسوزان بفشله، لأنّ هذا النوع من الرقص يُعاشُ ولا يُقلَّدُ مادامت التجربةُ الصوفيّةُ مادّتَهُ الأولى، وأصلَهُ، ونسغَهُ السّرّي. فعندما يهتزّ المرءُ بحُلُولِ الواجِدِ فيه بعْدَ طولِ تأمُّلٍ، ينفجرُ الجسدُ حركاتٍ دائريّةً تصِلُ السّماءَ بالأرضِ على نحْوٍ منتظِمٍ خاشِعٍ مبتهِلٍ. بَيْدَ أنَّ تجربةً باطنيّةً أخرى لا تقلُّ رسوخاً في الأغوار السّريّةِ للكائنِ البشريِّ سرعان ما تمتزجُ امتزاجَ الماءِ بالماء بالتجربة الصوفيّة، محدِثةً هذه الرقصَةَ الكناويّة.. أتعرفين ياسوزان ماهي؟ إنها زخم الحياةِ الغريزيّةِ الفوّاحةِ بروائحِ الأدغالِ الوحشيّةِ الموغِلَةِ في القِدَم. ولذلك كانت هذه الرقصةُ تركيباً للمقدَّسِ والمدنَّس، زواجاً لا انفصام لعُراهُ بين الدينيّ والدنيويِّ، بين الغريزةِ والثقافة. استحسنتْ سوزان هذا الكلام ضاغطةً على يد الجيلالي ضغطاً لطيفاً.

كان الجيلالي وسوزان يراقبان طلوعَ الصباح من أعلى سطح الاصطبل بعد أن سلَّما الأعورَ لمصلحة المستعجلات بالمستشفى العسكري. كان كلٌّ منهما يلتصقُ بالآخر على نحْوٍ حميمي.

آلگناوي ناوي ناوي
آلگناوي سيدي ميمون
جاب خادم كناويّة
تتاكل اللحم خضر
تتاكل البرانيا

تابع الجيلالي معتصراً أنغامَ كناوة من خلايا جلده، و سويداءِ قلبه، وكهوفِ ذاكرتِه المنهكةِ اللاهثةِ الرّاعِفَة. أحسَّ بحضور المرأةِ إلى جانبه إحساساً غريباً، وشعر أنَّهُ شغوفٌ بهذا الحضور. هل يحبُّ سوزان حقاً؟ هل يكرهُها؟ لطالما تساءل في سره فلم يهتد إلى جواب. كان يحسُّ بنوع

من التناقض الوجْدانيّ تجاهها. كان يحبها ويكرهها في الآن نفسه .هي الحبيبةُ العدوّة، الصديقةُ المستغِلّة، السيِّدةُ الخادِمَة، الحقودَةُ المتسامِحَةُ، الماكِرَةُ السّاذَجة... وكان يحسُّ بأنها تعاني من المشاعر المتناقضة ذاتِها نحْوَه. لكِن بِبُعْدٍ ماساويٍّ جليٍّ واضِح. ولم يكن يغترُّ بصفاء إحساسها نحوه رغم إعلانِها ذلك مراراً له. أمّا هو فلم يتجرّأ في يوم من الأيّام أن يعلن لها عن مشاعره نحوها. وعندما كانت تطالبه بذلك كان يطرق مبتسما مداعبا إياها مكثرا من المزاح والملاطفة والمداعبة.

ـــ أصحاب المقهى آتون... وسيكثر روادُها عمّا قليل...

ـــ هيّا بنا... حتى لا يلمحنا الجنودُ هنا... فيظنّون بنا سوء الظن...

قهقها مازحين. ونزلا السلم الحجريَّ العتيقَ جرياً كما لو كانا في الطفولة الأولى. وأحسا بزوال أهوال الليلة الماضية من نفسيهما .هل يعيش المرءُ حياتَه مرتين ؟! فلماذا ينغِّصُ توازنَها بألوان التّفاهاتِ؟!. ركبا سيارة سوزان فانطلقت بهما بسرعة جنونيّة وهما يصرخان بملء الحناجرِ: لتحيا الحياةُ ! والمجدُ للذة ! وعندما وصلا إلى باب الثّكنة أحسا بحركة غير عاديّة. حراسةٌ مشدَّدَةٌ على بابِ الثّكنة. سياراتُ «جِيبْ» تجري في كل حدب وصوب كما لو كانت هررا مذعورة وجلة. صفوفٌ من الجنود بلباس الميْدانِ يذرعون فضاءات الثكنة ذهاباً وإياباً وهم مسلحون بالرّشّاشاتِ، ويرددون نشيدَ «لاليجيون» بصوت رهيب. أحسَّ الجيلالي بمذاق الموتِ في فمِه. واصفرّ وجهُ سوزان فخفّفتْ سرعةَ السّيّارة.

ـــ ما الذي يحدث ؟

ـــ لا أدري!.

ـــ سأسال أحد حرّاس الباب.

وقفتِ السيّارةُ بين نصبين حديدين يمثلان مدفعين ضخمين رهيبين. تقدم الحارس منها وطلب من سوزان بطاقة المرور فقدمتها له مؤكدة له أنَّ مورينو يصاحِبُها وأنّها تَضْمَنُه وتتحمَّلُ مسؤوليَّتَه. وبعد أن استردتْ منه بطاقتها استفسرته عن سبب الجلبةِ، فامتنعَ عن الجوابِ آمراً إيّاهما بالدّخول فوراً.

قطعتِ السيّارةُ مساحاتٍ خضراءَ يتضوع منها العبير، وأخرى يصطف فيها الجنود منهمكين في أعمالهم، وأخرى تكثر فيها البنايات السّامقة الشّامخة، وأخرى تتكدَّسُ فيها الشّاحناتُ والآليّات العسكرية المصفحة. شعرت سوزان بزهو وهي ترى ذلك كله. وشعر الجيلالي بمذاق الموت والخيبة في فمه.

ـــ لقد وصلنا. أنظر... يوجد خلق كثير في بيت الضابط!!..

ـــ في وقت مبكر جدا... عجبا.!!.

نزلا من السّيّارة بعد أن أودعاها المرأب. وانصرف الجيلالي إلى أشغاله المعتادة. بينما اتجهت سوزان إلى الصالون عبر الحديقة وهي تحيي معارفَها من السادة والسيدات... والكلُّ لابسٌ لباسَ الحِداد... أيكونُ الضابطُ قد مات... لا... مستحيلٌ أن يموت... يموت الناسُ إلا هو... تذكَّرَتْ وهي تجتاز البابَ الكبير مختلف المواقع التي حارب فيها الضابط في أوروبا خلال الحرب العالميّة الأولى، قبل أن يشارك في هزم مقاومة عبدالكريم في شمال المغرب. تذكرت إشرافه على تنفيذ سياسة «التهدئة» في الأطلس حيث جُرِحَ مرّات، ولم ينجُ من الموت إلا بفضل امرأةٍ من قبائل آيت يوسي وجدتْه بين أشلاء القتلى وهو يُشْرِفُ على الموت بسبب جرح في صدرِه، فَرَقَّ قلبُها له. ولم تتردَّدْ في حمْلِه سرّاً إلى بيتها حيث أسعفتْهُ إلى أنِ استردَّ عافيَتَهُ. فقرر الزواج منها فتزوجتْهُ. غير أنَّ الشهودَ الذين عقدوا قرانهما سرعان ما أفشوا السّرَّ بين الناس الذين اعترضوا سبيلهما. وكان اشتباكٌ مسلحٌ أفضى إلى قتلِ المرأة وفرارِ الضّابط ونجاتِه... تذكرتْ وقائعَ أخرى غريبةً، مفجِعَةً، لا تقل عن هذه غرابة ومأساويَّة. ولذلك استحال عليها أن تقبَلَ فكرةَ موتِ الضّابط... كلُّ الناس يموتون إلا هذا الضابط... كلُّ الناس يموتون... بسهولةٍ غريبة.. يموتون كما يحتسون القهوةَ في المساء على ضوء موسيقى الجاز... يموتون كما يستحمّون وينامون ويستيقظون ويتناسلون في منتصف الليل أو في الظهيرة... يموتون كما يدخنونَ كما يُحَيُّونَ بعضَهُم البعضَ الآخر في آناء الليلِ وأطرافِ النهار... يموتون كما مات زوجُها «إيدوارد» في أول معركةٍ، في أول مناوشةٍ،

بأول طلقةِ رصاصٍ. مات في حِجْرِ هذا الضابط عينِه... هناك أناسٌ لا يموتون ربما لأنهم عقدوا مع الموت عقدا قبل مجيئهم إلى هذا العالم، يعني قبل ولاديهم، أو لأنهم أدواتُ الموتِ نفسِه، أو لأنَّ دماءَهم ودماءَ الموتِ من طبيعةٍ واحدة... وكيفما كان الحالُ فهي غير مستعدَّةٍ أبداً لتصديق فكرة موت الضابط... الضابطُ لا يموت... لايموت...

ـــ هذا أنتِ... سوزان... بحثنا عنكِ في كل مكان... قالت ماري وقد ظهر عليها الحزنُ والعياء...

ـــ ماذا يجري هنا.. هل أصابَ أباكِ مكروه... هل مات هو الآخر؟ قالتْ سوزان بصوتٍ مرتعشٍ خائف...

ـــ ماذا تقولين.؟!. أجننتِ؟!.. قالت ماري مستنكرة...

ـــ المعذرة ! لم أقصِدْ إيلامَكِ. تعرفينَ مكانةَ أبيك عندي وأمِّكِ وأنتِ وكل أفراد عائلتك. إنني أخشى على فراقِكُم مثل ما أخشى على نفسي... وإذن... ماهذا الذي يجرى هنا.؟!!. الشكنة... البيت... الكلُّ في حالة استنفار... قالت سوزان متعجبة...

ـــ ألا تدرين ماذا حدث؟! عجبا!!..

ـــ أُقْسِمُ بشرفي إنني لا أعلم!!..

ـــ ما حدث ياسيِّدتي العزيزة أن بيير جاكوب مات مقتولا البارحة!! وانت تعلمين ذلك...

ـــ اعلم ذلك !!!. لكن مقتل بييرجاكوب لا يفسر هذه التعبئةَ في الشكنةِ، ولا كثافةَ حضورِ الناسِ في البيت... عجباً..!!. مِنْ أين لهـذا «الشيء» هذه القيمة العظيمة التي جعلتِ الدولةَ وشخصياتها تحزن لمقتله.؟!!. أنا لا افهَم.!. لا أفهم.!. قالت سوزان مستغربة بصوت حاد...

ـــ أصدقاؤك في جماعة «الحضور الفرنسي» هم الذين اتفقوا على أن يخلقوا من بيير جاكوب، المحتال المخاتل، الفاتن بإغراءاته ووعوده ومعسول لسانه، شهيدًا مات في سبيل مجد فرنسا العظيمة... قالت ماري بحرقة جارحة...

ـــ لكن... انتظري قليلا... «روجيه» هو الذي قتل بيير جاكوب بسبب ما تعرفينه جيدا.!.

ـــ لا لم يقتله «روجيه»... بل قتله رجال الحركة الوطنية لإرهاب الفرنسيين. هذا ما اتفق عليه أصدقاؤك !!

ـــ لا!! مستحيل.!!. مستحيل.!! هُراء لا يقبله العقل !!

ـــ الحقيقةَ يا عزيزتي تعرفينها كما نعرفها جميعا... غير أن صحافة هذا الصباح تقول بصوت واحد بأن ملثَّمِين من الإرهابيِّين المغاربة تسللوا إلى البيتِ وقتلوا بيير جاكوب في ظروف غامضة، وتركوا رسالةَ تهديدٍ بالقتل لكل الفرنسيِّين الموجودين في التراب المغربي. أنظري الجرائد... هاهي... وأمدت ماري سوزانَ بجرائد الصباح واحدة تلو الأخرى وكلها تشهد باستشهاد البطل بيير جاكوب. وتهيب بجميع الفرنسيين وبرعايا السلطان بأن يتعبؤوا لمحاربة الإرهابيين، وتنظيم جنازةٍ مهيبةٍ تليقُ بشهيدِ «الحضور الفرنسي بالمغرب»، بشهيدِ الحقِّ والعدلِ والأُخوَّة بين الشعبين الفرنسيِّ والمغربي!!

ـــ لا أصدق.!!. لا أصدق.!!. مستحيل.!!. هراء.!!. هذا كذب.!!. هتفت سوزان كالمجنونة ..

ـــ لا.!. بل هذه هي عين الحقيقة.!. قالت أُمُّ ماري وهي تلتحق صحبةَ الضابط بابنتِهما وسوزان...

ـــ اتفقنا على أن تكون هذه هي الحقيقة... وأنت معنا في ذلك... إنها حقيقتنا... ومادمنا أقوياء، فإنها ليست حقيقتنا فقط بل هي الحقيقة، وما سواها باطل. قال الضابط بصوت حاد لا يخلو من وعد ووعيد... وتابعت أم ماري مستفسرة سوزان :

ـــ هل أنت معنا... أم لا... نريد أن نعرف... لكي نتصرف معك تصرفا ملائما...

ـــ أنا معكم... لكن بهذه الكيفية تصنعون لبيير جاكوب مجدا ليس له.!!.

ـــ لقد استعْمَلنا منذ أن عرفناهُ وهو حي؟..: أفلا يحِقُّ لنا أن نستعمله وهو ميِّت... ماذا يضيرك أو يضيره ذلك.؟!.

سكتتْ سوزان... بَيْدَ أنَّ ماري لم تتمالك نفسَها من البكاء... فأجهشتْ به وارتفع نحيبُها وسط اندهاش أبويها وتعجب الحاضرين جميعا؟. وتساءلتْ سوزان في سرها عما إذا كانت ماري تبكي أسفا على مقتل بيير جاكوب أم إنها تبكي بسبب هذه المؤامرة التي اسْتُخْدِم فيها مقتل بيير جاكوب لمحاربة الحركة الوطنية المغربية وتأليبِ الرأي العام عليها. ومتى واجهت ماري أبويها وكل أعضاء جماعة «الحضور الفرنسي» بالدموع، حتى تواجههم اليوم بهذا النحيب؟!. كلُّ الناسِ الذين يعرفون ماري يعرفونها فتاة قويّةَ الشخصيّةِ، قادرةً على الدفاع عن رأيها برباطة جأش. لا تحابي فيما تعتقِدُه الحقَّ والصوابَ ولا تداهِنُ ولا تُهادِنُ أبدا. فكيف بها اليوم تواجه خصومها بالنحيب؟! عجبا! لا! ثمّةَ سرٌّ يجِبُ اكتشافه. كانت ماري تتَّجه مُسْرعةً إلى الحمّام قصد غسْلِ وجهِها من الدموع... وكانت سوزان تستغرب من أمرِها ومن أمرِ هذا العَالَم الذي كانت تدَّعي أنَّها تفهمُه... وهاهي الآن تكتشِفُ أنَّها أصبحتْ لا تعرفُ له معنى ولا دلالة. عالَمٌ مجنون... عبثٌ عبث... كلُّ ماهو موجودٌ عبث... أنا، هو، هي، نحن، هم،... عبثٌ... عبث... الجيلاليُّ وحدَهُ الحقيقَة... وحدَه مَنْ ليس عبثا... ودَّتْ لو بقِيَتْ مع الجيلالي خارج الثكنة... ودتْ لو اصطحبته إلى أقصى نقطة في العالَم؟، وعاشتْ معه بقيّةَ عُمْرِها دون خوفٍ أوْ كَدَر.. ربّاهُ ما هذا الذي يجْري تحت عيني.؟!. هذا راهبُ الكنيسة.!. وذاك... مالذي أتى به... هنا.؟!. هو شيخ الزاوية الكتانية!.. فهل كان بيير جاكوب مسلما من أتباع الزاوية الكَتانيّة.:. زاوية عبدالحي الكتاني... تخيّلتْ في لمح البرق بيير جاكوب وهو لابس زي الصوفية الأبيض، وفي عنقه السبحة ذات الحبات الكبيرة، وهو منهمك في جذبة صوفية طويلة سال لها عرقُه وجحظت لأهوالها عيناه واصفر وجهه خشيةً وخوفا، وتعالى صوتُه في حرم الزاويّة: الله حي! الله حي! الله حي!!! إلى أن أصيب بالشطح الصوفي ثم أغمي عليه، وصار يتلوى على الحصير الملوَّن تحت أضواء ثريا الزاوية كما يتلوى الثعبان وهو يصارع الموت الزؤام. وما هي إلا هُنيْهةٌ حتى تقدَّمَ لنجدتِه عبدالحي فلفَّهُ في «حنبل صوفي» وضمَّه إليه وقرأ في أذنه بعض الأذكارِ

والأورادِ حتى استفاق من اغمائه، وحمد الله. ومسح عرقه. وخلع كساء الصوفيّة. ولبس لباس الإفرنجة. وغادر الزاوية فرحاً متوجهاً إلى بيت القِمار بشارع «كورو»، ومنه إلى كانتينة «مادام لافونتين» حيث قضى بقية ليلته في الشراب إلى أن أغمي عليه مرة ثانية فحمله بعض أصدقائه إلى بيته وهم يلعنون الساعة التي عرفوه فيها! تخيلت سوزان ذلك كلَّهُ وهي ترى الكاهِنَ والشَّيخَ يقدمان تعازيهما لكل من صادفاه من الحاضرين. وتساءلتْ عمّا إذا كانت صلاة الجنازة ستكون في هذه الحالة على مذهب النصارى أم على مذهب شيخ الزاوية. غير أن حبل تفكيرها انقطع عندما شاهدت ماري وهي تخرج من الحمّام متألقة كعادتها. هذه هي ماري التي تعرفها... وأقسمت أن تبحث عن سر هذا الغموض الذي يحيط بسلوك ماري تجاه قضية بيير جاكوب.

تناول الحاضرون القهوةَ بالحليب. وأكلوا ما طابَ لهم مِن ألوانِ الكعْك. وشَربوا ما حَلا لهُم مِن المشروبات.. وكان الجيلالي المدعو بموريـنو الروخو يجري بين الحاضرين كرقّاصِ الساعةِ، تُساعِدُهُ كلارا... أمّا الأعورُ...

ـــ أين الأعور... لا أرى له أثرا... قالت أمّ ماري ...

ـــ لا أعلمُ سيدتي... قالت كلارا.. ربما يكون سيدي قد أرسله في مهمة كالعادة...

أرادت أم ماري أن تسأل زوجها عن الأعور. بَيْدَ أنَّ الضابط كان منهمكا هناك قرب تمثال العذراء في حديث وُدّيٍّ مع الراهبِ والشيْخ. فأرجأتْ ذلك إلى وقتٍ لاحق... وانشغلتْ عن الموضوع برمَّتِه بإظهار الود والمحبة لكبار شخصيات الدولة الذين حضروا لتشييع جثمان «شهيدِ الحريّة» السيد بيير جاكوب.

عندما أُحْضِرَ نعْشُ بيير جاكوب ملفوفاً في العلم الفرنسي الثلاثي الألوان على متن سيارة عسكرية فخمة، اصطف وراءه كبار رجالات الدولة عسكريين ومدنيين يتقدمهم الراهبُ والشيخ معا. وعندما تحرك موكب الجنازةِ، كانت

الفرقة الموسيقيّة العسكريّة تعزفُ لحنا جنائزيا رهيبا. وكانت طلقات البنادق تسمع من بعيد إعلانا للحداد على «الشهيد». كان الموكب يتحرك ببطء وكأن الناس تسير على أرض مليئة بالجليد. وكانت حرارة الجو قد ارتفعت ارتفاعا جعل بعض الشخصيّات السمينة تشعر بالاختناق في ملابسها الرسميّة، وُتقَرِّرُ خروجا عن المألوف نزع ربطات العنق بحثا عن متنفس لأبدانها من هذه الحرارة التي شبت في نهاية هذا الصباح على غير العادة.

اجتاز الموكب باب الثكنة. كانت شوارع المدينة فارغة إلا من رجال الشرطة والمخبرين وبعض المارة الذين وقفوا على قارعة الطريق احتراما للموكب. صمتٌ وخشوعٌ ودموعٌ وابتساماتٌ أحيانا، وحكاياتٌ مهموسةٌ عن حالة المال والأعمال، يتداولُها رجالٌ التقوا في هذه الجنازة بعد طول غياب. صحفيّون يلتقطون اللحظات المؤثرة بكاميرات لا تقِلُّ دِقّةً وقوّةً عن عَيْنِ الأعور. حرارةٌ مفرطةٌ. عرقٌ وإحساسٌ بالعطش. عماراتٌ ناصعة البياض ومقاهي ودكاكين وسيارات مختلفة الألوان والأشكال يجري بعضها على بعض في الشوارع الفرعيّة المجاورة. ونخيلٌ ترتخي سعفاته الخضراء في الريح، تُنافِسُ الشمسَ في بهائها الأبدي. كانت ماري تبكي بحرقة. وكانت سوزان تراقبها عن كثبٍ... بعيونٍ مندهشَةٍ. وكانت الأمُّ منشغلةً عن ابنتِها بمسايرة تقاليد الجنازة. غريبٌ أنْ تبكيَ ماري على حيوانٍ دنيءٍ، ظلَّ طيلة حياتِه يفتش عن ثقب ينفذ منه داخل حصنها الرفيع دون جدوى، فاكتفى بخدمتها، ومرافقتها هنا وهناك، متى طلبت منه ذلك. غريبٌ أمرُها. لابد أن يكون في الأمر سرٌّ. لابُدَّ... وتذكرتْ سوزان مشهدَ ماري وهي تسقط مغمى عليها عندما اكتشفت مقتل بيير جاكوب. وعندما تذكرت ذلك، سرت قشعريرة في جسدها. وأحستْ بشكها يقوى ويتزايد مالئا كيانها كله، وبفضول المرأة يتحرك في أعماقها دافعا إياها إلى البحث والتنقيب والسؤال. كان الموكب قد وصل إلى المقبرة عندما قررت سوزان ألا تسأل ماري عن سلوكها الغريب، اعتقادا منها أن ماري لا تفتح قلبها لأي أحد مهما كان. فقد كانت ماري منذ طفولتها المبكرة لا تعتمد في شؤونها الخاصة إلا على نفسها، حاملة آلامها وخيبات أملها في

الناس والحياة على عاتقها وحدها. كل الناس يشتكون لماري، بينما ماري لا تشتكي لأحد أبدا.

عندما انتهت مراسيم دفن جثة بيير جاكوب الالزاسي. كانت سوزان قد قررت أن تبحث عن سر ماري لا لدى أمها، ولا لدى أبيها، ولا لدى أصدقائها وصديقاتها من جمعية «صداقات المغرب»، ولا لدى رئيس المخابرات الذي يُكِنُّ لسوزان ودا واحتراما... بل لدى... أتعرفون لدى من؟

نعم... لدى الأعور !!

- 13 -

بدا الأعورُ سعيداً في سريره النظيف الأبيض. ونَسِيَ جرحَ يده. وتمنَّى أن يمكث في هذا المستشفى إلى الأبد. ففي هذا المكان وحدهُ اكتشف الأعورُ آدميَّتَهُ بعد أن أصبح محط عناية الآدميين جميعا: سوزان والجيلالي والطبيب والممرضات... هو الذي ظل طيلة حياته يُسَخَّرُ لخدمة أغْراضِ النّاسِ، فرادى وجماعات، كما تسخَّرُ الحيواناتُ والأشياءُ تماما، هاهو ذا يكتشف للمرَّة الأولى في حياته أنّ الناس مسخرون لخدمته أيضا. جلس في سريره متكئا على الوسادة البيضاء ورأسُه يلامس الجدار الأبيضَ ورنا إلى يده الملفوفة في الضماض الأبيض. وقهقه كالمعتوه وهو يتذكر قولة الجيلالي بن الطيب: الأبيض هو الأصل. الأبيض هو الوجود. ولا شئ غيره.

ـــــ لم يكن الأعور يظن أن أحداـ منذ أن اكتشف هويته ـ سيهتم بأحواله في يوم من الأيام. ومتى اكتشف الأعور هويته؟!!

قال الراوي :

لعلكم تندهشون من غرابة هذا السؤال؟ فمن غير المألوف أن يسأل المرء عن تاريخ وعيه بهويته وذاته، وحسبه ونسبه، ومركزه في بيئته ومجتمعه. ومن دون شك: لا ينتمي هذا السؤال إلى نظام المألوفِ والمعتادِ بل ينتمي إلى نظام الشّاذ والخارق للعادة. ومتى كان الأعور عاديا حتى يكون السؤال عنه عاديا؟ ثمة غرابة مستديمة متجددة في كل مايمت للأعور بصلة. هذا قدره. ولذلك يعتبر السؤال عن تاريخ اكتشاف الأعور لهويته سؤالا مشروعا. فلتعلموا أيها السادة والسيدات أن ذلك الاكتشاف المأساوي كان ذات يوم خريفي بعيد عندما

٢

تشاجر مع أحد زملائه في الخيرية أثناء مقابلة في كرة القدم. وكاد ينتهي التشاجر كالعادة بصلح يعيد الود إلى سابق عهده، لولا أن ذلك الزميل عيَّره بكونه من «أولاد الحرام». كل الأولاد الموجودين في الخيْرية أيتامٌ أوْ فقراء. أما أنتَ أيُّها الأعورُ المنحوس، أيُّها البَلاءُ المسلطُ على البلادِ والعباد، فلا يعرف لك أحدٌ أباً ولا أمّا. الحكومةُ نفسُها لا تعرف أصلك وفصلك. هي التي تعرف كم سوسَةَ توجد في أسنانك. لا تعرف، مع ذلك، من تكون أنت أيها الأعور. وإذا كانت الحكومةُ نفسُها احتارتْ في شأنك، فكيف لا نحار فيك نحن بسطاء الناس. انهال الأعور على غريمه باللكم والركل والعض. وتحلق الأطفال حولهما محرضين إياهما على الاستمرار في تبادل الضرب فرحين مسرورين. وكثر اللغط والصراخ إلى أن استفاقت للاحليمة، حارسة هذا الجناح، المكلفة بهؤلاء الأطفال من غفوتها الطويلة. وتململت عجيزتها الضخمة التي فاضت على الكرسي قبل أن تنتصب بقامتها العريضة الطويلة أمام الأطفال واقفة متوعدة. منذ ذلك اليوم الأسود اللعين انفتح جرح عميق في ذاكرته ووجدانه؟. كل جروح العالم لا تعادل جرحه أبدا. كل الجروح تُنظَف وتُخاط، بما فيها جرح يده، فينقطع نزيفُها، وتسكن آلامُها وتلتئمُ، إلا جرح ذاكرته، وسع السماوات والأرض. هكذا كان الأعور يناجي نفسه في خلوته محدقا في المرآة... سبحاني ما أعظم شاني. رأسٌ ضخم أشعث الشعر مغبر اللون منغرسٌ بين الكتفين مباشرة، وجهٌ أسمرُ تعاونت الأشكال الهندسية جميعها في رسم قسماته الشكلية، فهو بين المستدير والطويل والمديد والقصير والمربع والنحيف والمكتنز. أنفٌ طويل حاد أشبه مايكون بمنقار الإوزة. فمٌ قوي عريض منتفخ الشفتين مبلل بسوائل ومخاطات لا تنضب أبدا. أسنانٌ متنافرة تطل الأماميتان منها قسرا بين الشفتين المطبقتين. أذنانِ طويلتان جديرتان بذئب جائع. يدانِ منتفختان قصيرة الأصابع. جذعٌ قصير وأطراف طويلة ضخمة هائلة. وفتحةٌ خامدة تحت الحاجب الكثيف الأيسر تتناقض مع العين الكبيرة المنغرسة يمينا تحت جبهته العريضة الشبيهة بعين الفرس، مشرعة على

ما لا نهاية له من العوالم والأسرار والألغاز، موارة بالذكاء والمكر، تعلم الظاهر والباطن وما تكنه النفوس والأبدان. بذلك اشتهر بين أقرانه منذ أن كان في الملجأ. فاستعان مدير الملجإ بمهاراته النادرة في تتبع موظفي الإدارة وزبنائها، وإحصاء أنفاس الأطفال وتتبع حركاتهم وسكناتهم، لا تخفى عليه خافية. هكذا! تحكمت خلقة الأعور في رسم معالم دوره ووظيفته في الحياة والمجتمع منذ أن كان طفلا صغيرا. وازداد ذلك الدور قوة ورسوخا في نفسه عندما أقسم أن يثأر لنفسه من ظلم الحياة والناس وقسوة أبويه المجهولين وعنف القدر. وأصبح تتبع أسرار الناس ديدنه في الحياة. أصبح فعلا ملازما لهويته... لوجوده. أصبح مقوما جوهريا لكينونته. أنا أتجسس إذن أنا موجود. أنا موجود إذن أنا أتجسس. لا يهدأ له بال، ولا تقر له عين إلا إذا اكتشف عيوب الناس وأحصى مساوئ كل منهم. كان ولعه الهوسي باكتشاف أسرار الناس في البداية فعلا مجانياً لا يُرْضي به إلا ذاته. غير أنه كلما كبُر، كلما أصبح ذلك الفعلُ دورا ووظيفةً في الحياة، بل رسالةً يحرص على القيام بها لفائدة مدير الملجأ، ثم لفائدة الدولة. كم كان فرحه عارما عندما نودي عليه لتلقي تدريب في التجسس على يد ضباط متخصصين في المكتب الثاني التابع للجيش الفرنسي. ولن ينسى أبدا التنويه الخاص الذي كان أساتذته الفرنسيون يغدقونه عليه خلال مدة التدريب الذي اجتاز أطواره بنجاح كبير. أدى مهماته الاستخباريّة بكفاءة في مختلف الأوساط الاجتماعية التي كلف بتتبع أسرارها وخفاياها: الأحياء الشعبيّة المليئة بمهاجري الأرياف ضحايا أعوام الجوع، أحياء المدينة القديمة الضواعة بعبق التاريخ، رجالات الحركة الوطنية في حلهم وترحالهم، رجالات الفلاحة والصناعة والمال فرنسيين ويهودا ومسلمين، ضباط الجيش، ضباط المخابرات ذاتها... لم يُخَيِّب الدولة أبدا... غير أنه سرعان ما أصيب برصاصة طائشة أثناء دخول الأمريكيين إلى المغرب خرج على إثرها من المستشفى أعرج أعوج. وعندئذ وهبته الدولة عن طيب خاطر ليعمل لصالح الضابط وزوجته وابنته ماري. وهكذا تحول من خادم للدولة إلى خادم لأحد خدام الدولة.

رضي بحظه وحمد الله. وعاش في بيت الضابط كما لو كان ظلا، شبحا، لا يشعر أيٌ أحد بوجوده. أما هو ،فلم تكن تعزب عن عينه تفاصيل كل من دخل البيت أو خرج منه.

أحب كلارا حبا عظيما. أحبها منذ أن رآها في كانتينة الثكنة، حليقة الرأس، ترتدي «جيبَّةً» حمراء وقميصا كاكيا وحذاءً ذا كعب عال تتعثر مشيتها به فتضج القاعة ـــ المختنقة بدخان السجائرــــ بالضحك والمزاح والاستهزاء. كان البعض يقرص فخذها أحيانا، والبعض يربت على كتفها في حنان بالغ، والبعض يداعبها، والبعض يطاردها مانعا إياها من سقي الزبناء. وكان الكل لا يناديها إلا ب «الشيكي لقرع»... إسم غريب دون شك، أطلقه عليها أحد الجنود عندما أرسلتها الإدارة للعمل في الكانتينة لأول مرة وهي ترتدي سروالا عسكريا، فبدت كما لو كانت رجلا حليق الرأس. كانت تبدو له، وهو يراقبها من النافذة كما لو كانت فراشة تحترق على ألسنة النار. رآها وهي تقاوم الأعاصير من كل حدب صوب. تنجح أحيانا. وتفشل أحيانا أخرى. وعندما كانت تفشل كان الجنود ينهشون لحمها الواحد تلو الآخر بعد تكون قد استقرت تماما في قعر بركة خمر. وعندئذ كانت عينه الوحيدة، تمتلئ بغيمة منتفخة بالدمع. يتحسس جسده كما لو كان محموما... يكور قبضته فيضرب بها الأرض والجدران والصدر. تنحبس أنفاسه وتمتلئ حنجرته بغصة خانقة. فلا يستطيع حراكا. مهمته في هذه الحياة هي أن يرى لا أن يفعل. هذا قدره. وهذه سُنَّة الله فيه. ولن تجد لسُنَّةِ الله تبديلا.

عندما كانت كلارا المدعوة ب «الشيكي الأقرع» تنزوي أحيانا ،بعد فراغ بعض الجند من أفعاله فيها،لتبكيَ حظها العاثر، كان الأعور يخرج من مخبئه مواسيا إياها، ماسحا دموعها بمنديله. غير أن مواجعها كانت تكبر مع مرور الزمن. وعندئذ قرر الأعور، أن يخرج من سلبيته، وأن يطلب من ماري نجدتها. رق قلب ماري للشيكي الأقرع. فطلبت من أبيها اتخاذ «الشيكي لقرع» خادمة في البيت بعد أن أخذ زواره يتكاثرون يوما بعد يوم. ومنذئذ نسيَ الناسُ اسم «الشيكي لقرع»، وحل محله اسم كلارا.

تألقت كلارا في ملابسها النظيفة الأنيقة التي وهبتها لها ماري. وأصبحت تملأ البيت بحركتها كما لو كانت فراشة تتنقل بنشاط بين الورود والرياحين. وبين عشية وضحاها، انقلب حزنها فرحا، وشقاؤها سعادة، ويأسها أملا. وأصبحت تشعر بإنسانيتها تنبعث من رمادها من جديد. بيد أنها كانت تشعر بضيق من هذه الأسماء التي سميت بها من طرف هؤلاء الفرنسيين، وكانت تحن دوما إلى اسمها الحقيقي الذي نقشته ـ خلال حلمها ويقظتها ـ في قلبها وذاكرتها بأحرف من نار لا تخمد أبدا. وفي الليل، عندما ينام الناس جميعا، كان يحلو لها أن تسهر في بيتها الصغير مع أحلامها وخيالاتها. كانت في كل مرة تشعر بحنين جارف إلى قريتها التي اضطرت إلى هجرتها رفقة أبويها العجوزين خلال عام الجوع. كانت تحملُ في كيانها السريِّ العميقِ سماءَ قريتِها الصافيّةِ الفسيحةِ، وأكواخَ الطينِ والتبنِ، واشجارَ «الْبُطْمِ» ذات العناقيد الحمراءِ والسّوداءِ التي تُعْرَفُ عند سكان قريتها الطيبين ب «أقْواوَش»، وأشجارَ السدرة المثقلة ب «النَّبَقِ» الشهيّ، وأشجارَ التين والزيتون والبرتقال و«الهَنْدِيَّة» و«الدُّوم» والقصبِ، والصلصالِ والماءِ... كانت ترى نفسَها صغيرةً بين يدي هذا العالَم البريئ النظيف الطاهر. تحرصُ على مناجاته كل ليلةٍ... في الهزيعِ الأخيرِ من اللّيْلِ.

أحيانا، عندما كان يشتد بها الحنين، وتجرفها الذكريات، كانت تفكر في الهرب من هذه الشكنة. بيد أنها كانت تتذكر أيضا أن قريتها التي تحملها في غياهب كيانها الصميمي ليست هي القرية التي ستجدها في حالة هروبها. فقد طوتِ الموتُ كل أقاربها واحدا واحدا. وقبل أن يموت أبواها كانا قد باعا كوخهما وما يملكانه من متاع قليل، استقرا بماله في أحد دواوير فاس. تذكرت مرافقة أبيها إلى سوق الدلالة حيث امتهنت معه بيع الأمتعة المستعملة في جوطية مولاي إدريس. وفي القيساريَّة، كانت تستمع أحيانا إلى طلبة القرويِّين وهم يحدثون صغارَ التجارِ في شؤون الدين والسياسة، داخل دكاكينهم الصغيرة المليئة بأنواع لا تحصى من السلع والبضائع. فكانت تستلذ خِلْسَةً بما تسمعه. وتصير رؤيتها إلى الناس والأشياء أكثر وضوحا ودقة.

أحبت الوطنيين وعاشت معهم ردحا من الوقت. شاركت في بعض المظاهرات. صفقت للزعماء وهم يتبارون في بلاغة الخطاب. وتعرفت على أحدهم كان يعمل دباغا فهامت بحبه... وتتبعت خطواته دون أن يشعر إلى أن شاركته في انتفاضة شعبيّة قمعها جيش الاحتلال بوحشيّة وعنف كانت إحدى ضحاياه. جُرحَتْ إلى حد الإشرافِ على الموت. وقبل أن ينقلها الجنود إلى المستشفى العسكريِّ رأت صديقها الدباغ مدرجا بدمه يصارع الموت. كانت ذكرياتها تتكدس في ذهنها وتزدحم. تنهال في نفسها الصور كما ينهال المطر على المدينة. تفرح حينا وتحزن أحيانا. بيد أن الواقع أقوى من الحلم والذاكرة. فلتتكيف مع متطلبات اللحظة الراهنة، ولتستغل ما تحبل به من آلاءٍ ونِعَمٍ مهما قلّ شأنُها وصغر. هكذا كان يخاطبها عقلها الباطني. يأمرها فتأتمر. وبينما كانت كلارا منغمسة في لجج خيالاتها، كانت عين الأعور تراقبها مخترقة سمك الجدار. تسهر عليها، لا تفوتها كبيرة ولا صغيرة من الحركات والسكنات. يحزن لحزنها ويفرح لفرحها. ويشعر كما لو أن جسده المشوه القبيح مكمل لجسدها الفاتن الساحر، أو انه الجزء القبيح الذي لفظه جسدها ليحافظ على نضارته ورونقه. بيد أن ما كان يحز في نفس الأعور أكثر من أي شئ آخر هو عدم اعتراف كلارا بفضله عليها. وهل اعترف الناس بفضل المسيح المخلص في أول الزمان حتى تعترف كلارا بفضله، هو، في آخر هذا الزمان. كان يحلو للأعور أحيانا تشبيه نفسه بالمسيح المخلص. فهو أيضا يصبر على الأذى كل يوم، وهو أيضا يغدي البشرية بلحمه ودمه، كل فضاعات العالم وقبحه استقطبها جسد الأعور إليه، رَكَّزَها وكثَّفَها فيه، كيما يَسْلَمَ من هولها بقيّةُ البشرِ، وبقيّة العالَم. ومع ذلك كله، فلا أحد يحبه حبا حقيقيا صادقا.حتى أمُّه لا تحبه... وإلا لِمَ سلمتْهُ إلى البرد والموت عندما تركته ملفوفا في خرقة بيضاء على الرصيف وهو في يومه الأول وولتْ هاربة منه لا تلوي على شئ. آه! لعنةُ الله على البشر! لعنةُ الله على العالَم برمته! ماعدا هذه «الياقوتة»، هذه «الديامانطة» المكنونة التي سمَّتْها ماري باسْمٍ يُحِبُّهُ ويَهيمُ بهِ: كلارا... كلارا... حبيبتي!!... لو نظرتِ إليّ مرةً واحدةً بنظرةٍ وُدٍّ، لأصبحتُ شابا وسيمَ الطلعةِ شبيهاً بملائكة الرحمن في هذه الدنيا قبل الآخرة. تبّا

لجسدي. يفسد عليَّ كل شئ. يحكم عليَّ بالدونية والشقاء الأبدي. بيد أن نظرة واحدة منكِ أيتها «الديامنضة» المكنونة، كافيةٌ لكي تحدث المعجزة!

نظر إلى يده المكلومة. وتذكر ما حدث البارحة. وتيقن أنَّ نظرتها لن تقع عليه أبدا. هي تهوى مورينو الروخو ولا ترضى عنه بديلا. وتتصرف معه كما لو كانت تعرفه منذ زمن بعيد. كما لو كان قريبا من أقاربها، من لحمها ودمها. وتسعى إلى التقرب منه. وأحَس الأعور بتفاهته وهو يتذكر كيف أنه قبل خاضعا مستسلما طلبَ كلارا بالتجسس على مورينو وسوزان وموافاتها بأخبارهما ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم. شعرالأعور ـــ وهو يتذكر ذلك كله ـــ بالخيبة والإحباط والتفاهة. وأحس بفراغ كالموت يداهم كيانه، ويفرغه من كل معنى ودلالة. سابح في فراغ لا جاذبية فيه ولاسحر إلى ما لا نهاية. ذرة متدحرجة لا تعرف لها مستقرا ولا غاية. حملق في المرآة مرة أخرى، وقرر للمرة الأولى في حياته قرارا حاسما. سينقله من كائن مراقب ناظر، إلى كائن فاعل مؤثر... لو نفذه... لو نفذه حقا... فهل سيملك القدرة على تنفيذه ؟

ابتسم الأعور لنفسه البادية على صفحة المرآة. واسترخى على الوسادة البيضاء. ونام نومة هادئة.

- 14 -

طائرتان عشكريتان عموديّتان تلمعان في زرقة السّماء. تحلقان بطريقة بهلوانيّة ملفتة للنظر. تقذفان المدينة بآلاف المنشورات المتساقطة تساقطَ أوراقِ الخريف. ذعر الناس في شوارع المدينة ودورِها ودروبِها ورفعوا أنظارهم إلى السماء متسائلين عما يجري. انتفض اللقلاقُ في عشه هلعا وغادر أعلى الشجرة بعد أن سقطت عليه أوراق إحدى الطائرتين. غادرها وهو يحتج على صلف هؤلاء الآدميين وبلادتهم: وإلا كيف أباحوا لأنفسهم إقلاق راحته بمنشوراتهم وكأنهم يجهلون انه لا يعرف القراءة والكتابة؟. ما أتفههم! ومن عليائه رأى الناس في شوارع المدينة صغارا يتسابقون على المنشورات قصد إشباع فضولهم. رأى ماري وأمَّها في حديقة البيت الكبير وهما يتجادلان في موضوع المنشور الذي كان يستريح في يد ماري. رأى مورينو الروخو وهو يجمع بعصى طويلة كل المنشورات التي غطت مياه المسبح ويقذف بها في صندوق القمامة الأزرق، رأى سوزان وهي تدخل في سيارتها الفخمة حِمَى البيت الكبير. رأى كلارا وهي تحمِلُ صينيّة فيها كل ما تشتهيه النفس والعين. رأى الضابط متكئا على سارية العلم الثلاثي الألوان وهو يقرأ المنشور على صفوف متراصة من الجنود تلمع أسلحتهم ونياشينهم وأزرار معاطفهم الذهبية لمعانا غريبا. وقرر أن يحاكي الطائرتين عله يثير أنظار الناس وفضولَهم فيصبح مشهورا بينهم. هو الآخر يعاني من أزمة شهرة قاتلة. وإلا كيف يفسر أن الناس لا تعرف له في العربيّة إلا اسما واحدا هو «اللقلاق» ولا تعرف اسمه الثاني «اللقلق». لم يكن واعيا بانخفاض شهرته إلا بعد أن سمع وهو يستريح على

سطح إحدى البنايات حديثا بين علماء في الأدب واللغة حول قصة قصيرة لقصاص مشهورمحبوب عنونها باللقلق.

فقال العالِمُ الأول : هذا القصّاصُ ضعيف في اللغة.

أجابه العالِمُ الثاني : لفظُ اللقلق لا وجود له في العربيّة.

العالِمُ الأول : اللقلاق وحده موجود.

العالِمُ الثاني : قد يكون خطأ مطبعيا...

العالِم الأول : الخطأ المطبعيُّ لا يتكرر في الإسم خلال الأقصوصة كلها.

وَدَّ اللقلاقُ لو كان قادرا على التواصل مع العالمين الجليلين. ولما تأكد من عجزه نفض جناحيه في الريح واشرأب بعنقه على شكل ألِفٍ ثم أدخل عنقه بين كتفيه فاختفى الألِفُ إلى الأبد. وقهقه ساخرا بمنقاره الطويل محدثا لحنا كناويا ملتاعا، معربدا، ساخرا باكيا، شاكيا محتجا. لحظتئذ، شعر اللقلاق بانخفاض شهرته بين الأنام. ومنذئذ وهو يفكر في طريقة يسترد بها شهرة أجداده المقدسين. بيد أن إحدى الطائرتين مرت بالقرب منه دون أن يشعر بها فطوحت به بعيدا وكأنها تحذره من مغبة المحاكاة. كأنها تذكره بما وقع للضفدع الصغير عندما استبدت به فكرة تقليد الفيل الضخم. ومن دون شك، فما وقع في الأرض قد يحدث مرة أخرى في السماء. فقد اللقلاق التحكم في طيرانه، فقرر أن ينزل إلى عشه توا طالبا السلامة. وعندما استقر به المقام في العش وهدأ روعه، انتبه إلى وجود ماري وأمها وسوزان وهن جالسات في الحديقة قرب المسبح يقرأْنَ المنشورَ ويتجادلْنَ في محتوياته بأصواتٍ عاليّة.

ـــ لا... لست متفقة... سأبذل كل ما في وسعي إلى جانب محبي السلام والإخاء بين شعوب العالم لكي نفشل هذا القرار، هنا في المغرب، في فرنسا، وفي الأمم المتحدة... قالت ماري بلهجة حادة صارمة.

ـــ تدافعين عن محمد بن يوسف وكأنه من عائلتك..تدافعين عن هؤلاء الوطنيين الذين يعملون على مصادرة ممتلكاتنا وطردنا من هذا البلد وكأنهم أعمامك... قالت سوزان مستهزئة...

ـــــ إنني أدافع عن كرامة الإنسان، وحقه في العيش دون اكراه أو عسف. قالت ماري محتجة مستنكرة.

ـــــ لم تمارسِ الإقامةُ العامّةُ إكراها على أحد. الشعبُ المغربي ممثلا في قواده وأعيانه وعلمائه وشيوخ قبائله وزواياه هو الذي حاصر تلقائيا قصر محمد بن يوسف،ألم يقل الكلاوي للملك، قبل ذلك، أثناء تهاني عيد المولد بأنه افتقد بتحالفه مع الوطنيين ضد الحماية صفة ملك المغرب وصفة أمير المؤمنين، وأصبح ملكا للشيوعيين والملحدين، لأن الوطنيين يتحالفون مع الشيوعية العالمية، وهم في معظمهم ضالين ملحدين وشيوعيين... وهذا يعني أن الكلاوي جرد الملك من شرعيته الدينية والسياسية. أما الأقامة العامة فلم تعمل إلا على تنفيذ قرار ممثلي الشعب المغربي ذاته. قالت أم ماري بلهجة متعالية.

ـــــ أنت تعرفين يا أمي أن الشعب برئ في هذه القضية. وأنت تعرفين أن هؤلاء الأعيان لا يمثلون الشعب المغربي بل يمثلون جماعات فرنسية كجماعتكم جماعة «الحضور الفرنسي». وإنني أرى في هذا المنشور أسماء عدد من الأعيان الذين ترددوا في الآونة الأخيرة على بيتنا للحضور معكم في ندوات الحضور الفرنسي. وأسماؤهم توجد، هنا، انظري، هنا، في قائمة الموقعين على التهديد بإقالة السلطان من الحكم... وطفقت ماري تقرأ أسماءهم واحدا واحدا... إلى أن قاطعتها سوزان غاضبة...

ـــــ بالله عليك.!!. هل أنتِ معنا أمْ معهم... أقصد هل أنت إلى جانب مصالح فرنسا أم إلى جانب المغاربة... فقاطعتها أم ماري مؤكدة ضاربة بكفها على الطاولة :

ـــــ لو لم أكن أعرف ابنتي حق المعرفة ،لقلت عنها إنها خائنة.

ـــــ أنا لست خائنة. أنا فرنسية مخلصة لمثل أجدادنا العظام، بناة التقاليد الجمهورية. تلك المثل التي بذل أجدادنا دماءهم الزكية في الدفاع عنها. لن أتنكر أبدا لفولتير وروسو وديدرو ومونتيسكيو. لن أتنكر أبدا لأرواح شهداء الثورة الفرنسية، لأرواح كومونة باريس، لأرواح المدافعين عن الحرية في الحربين

الأخيرين... قالت ماري بحماس وانفعال كبيرين وهي تضرب بيدها على الطاولة بين الفينة والأخرى.

ـــ هراء... دعينا من الجمل الطنانة... للدول مصالحُ تدافع عنها. ومن واجبها أن تدافع عنها بكل الوسائل. اعترضت سوزان محتجة .فأجابتها ماري بلهجة صارمة حادة :

ـــ مصالح فرنسا في المغرب تقتضي ألا تعتدي الإقامة العامة وعملاؤها كالكلاوي والكتاني على رمز وحدة المغرب الملك محمد الخامس، مصالح فرنسا تقتضي أن تتكيف سياسة فرنسا في المغرب والعالم بمتغيرات ما بعد الحرب الأخيرة. وعلى رأس تلك المتغيرات حركات التحرر الوطني في بلدان العالم الثالث. مصالح فرنسا تقتضي أن نمد يدنا لمحمد الخامس ولحزب الاستقلال وللشيوعيين ولكل وطنيي هذا البلد. أن نبحث عن صيغة حكم ذاتي... وإذا رفضوا الحكم الذاتي فلنساعدهم على الاستقلال وليساعدونا على ان تظل علاقة بلادهم وطيدة متينة بفرنسا، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا... كل منا محتاج الى الآخر...كل منا...

ــــ ماري..!!. ماري..!!. قالت سوزان مقاطعة مستنكرة... أراك تخرفين يا عزيزتي... أيكون حزنك على بيير جاكوب قد أفقدك الصواب؟ قالتها بمكر واضح.

نهضت أم ماري غاضبة، واتجهت صوب مدخل البيت... أما ماري فتمالكت نفسها وقالت :

ــــ فليرحمه الرب. وعلى أية حال، لم يكن بيير جاكوب من جماعتنا بل من جماعتكم... ونهضت من كرسيها البلاستيكي الأبيض متأثرة بما سمعت، ممتقعة اللون، مرتعشة الأوصال، وغادرت الحديقة بدورها بخطى مسرعة. فبقيت سوزان لوحدها في الحديقة تتأمل ما يجري بعيون ماكرة مندهشة وهي تردد في سرها :

ــــ سرك ياعزيزتي سأعرفه حالما يفتح الأعور عينه.

رفعت رأسها إلى السماء... كان الجو جميلا... والسماء صافية إلا من بقع صبير أبيض تتخذ في كل مرة شكل حيوان أليف أو متوحش أو أسطوري... رمقت اللقلاق وهو ينظف بمنقاره الطويل سلهامه الأبيض المطرز ببقع سوداء داكنة متوهجة. فتذكرت مورينو الروخو، وأحست بالحاجة إلى وجوده إلى جانبها. وما إن نادته حتى أقبل عليها مهرولا وكأنه لم يكن ينتظر إلا إذنها لكي يمثل أمامها متمليا جمالها الفاتن. كل عرق في جسده يناديها الآن... لا يدري ما السبب... أصبحت تسكن خلايا جسده، لا تفارقه ليل نهار... أصبحت مخدرا، بلسماً لآلامه وجروحه النرجسيّة. لا يقوى أبدا على فراقِها. وتعجب من حاله... هو الذي كان يظن أنه لن يحب هذه المرأة المتغطرسة الماكرة أبدا... ها هو ذا يحبها... يحملها في كيانه أينما حل وارتحل...

كان يود الاختلاء بها كالعادة. وبينما هما متوجهان إلى سيارتها إذا بالضابط يدخل الحديقة صحبة أعضاء جمعية الحضور الفرنسي مزهوين بأنفسهم، مسرورين فرحين. اعتذرت له سوزان والتحقت بالجماعة التي كانت تظم عددا من الأعيان المغاربة متبخترين في جلاليبهم وسلاهيمهم الناصعة البياض. وعندما التحق الكل بقاعة الاجتماع في أقصى البيت الكبير، اضطر مورينو الروخو إلى البقاء وحده في الحديقة، وجها لوجه مع اللقلاق الأبيض الذي كان يرمقه بعينين ذكيتين لامعتين.

ــــ إنها النهاية... قالت له ماري بعد ان استدعته إلى حجرتها... إنها نهاية فرنسا في المغرب. فلنعمل كل ما في وسعنا لكي تكون نهاية غير مؤلمة جدا، لا تضر بروح الإخاء بين الشعبين... لنعمل ما في وسعنا... الآن قبل الغد. وأكثر مما مضى... أرجوك مورينو أن تحمل هذه الرسالة إلى هذا العنوان متى وجدت إلى ذلك سبيلا... واحرص على أن يبقى أمرها سرا بيني وبينك. وليكن في علمك... أن الضرر سيكون كبيرا في حالة سقوطها في يد غريبة...

ــــ سمعا وطاعة سيدتي...!! تعرفين مدى إخلاصي لك...

ودعته وهي تشعربدوار ينتابها . . وعندما كان خارجا من بيتها استدعاه أبوها إلى حجرته . فخاف الجيلالي المدعو مورينو الروخو على ماري وعلى نفسه، وأخفى الرسالة في أعماق جيبه قبل أن يدخل على الضابط...

لاحظ الضابط قلق الجيلالي المدعو بمورينو الروخو، فهدأ من روعه . أجلسه بالقرب منه، ومنحه سيجارا كبيرا من سجائره المفضلة، ومنحه كأسا من الشراب الفاخر . وأخبره بأن جماعة الحضور الفرنسي جندته إلى جانب خيرة من الشباب الأوروبي في المغرب ليكون ضمن أعضاء «المحاربين من أجل الحرية» في المغرب ضد إرهاب الوطنيين المغاربة .

ارتبك الجيلالي ارتباكا شديدا. كانت المفاجأة أقوى منه . التصق لسانه في أسفل فمه . فلم يستطع أن ينبس ببنت شفة . فقال الضابط مبتسما : كنت أعرف مسبقا أنك ستفرح فرحا لا يوصف بعنايتنا بك وتشريف جماعتنا لك . فلا تخيب رجاءنا فيك... وعليك أن تُقبِلَ على التداريب العسكرية منذ صباح الغد لكي تقوم بمهامك الكفاحيّة خير قيام . . وستجد منا الدعم اللازم... أتسمع... مورينو . ؟!!

ـــ نعم سيدي .!. نعم .!.

ـــ إذن اتفقنا... وستربح حريتك... ومقادير من المال... وقسطا كبيرا من الممتلكات على شكل أراض وعقارات مختلفة...

ـــ أدام الله نعمتك سيدي... وخرج الجيلالي من الحجرة متعثرا، مرتبكا، وجلا، يتقطر العرق من مسام جلده . وتمنى في هذه اللحظة أيضا لو توضأ باللبن فأصبح لقلاقا حرا طليقا لا يأتمر بامر أحد أبدا . أبدا...

- 15 -

خرج الجيلالي من الثكنة سرا ... لم يعلم بخروجه أحد... كانت السماء تزدحم بالألوان... وكانت أسرابُ الطيور تعود إلى وكناتِها مستحمّة في وهج الشمس الغاربةِ الحمْراء. وكانت شوارع المدينة الجديدة تزدحم بالأوروبيين من كل الجنسيات والأعمار. غير أنّ علاماتِ الثروة والنعمة كانت تبدو على الفرنسيّين أكثرَ من غيرهم. تبدو واضحَة في لغتهم، في قسمات وجوههم، في البستِهم الأنيقَةِ، في موديلات سيّاراتهم الفاخرة، في المقاهي والمطاعم والملاهي التي يرتادونها. وفي المرتبة الثانية كان الإسبان والإيطاليون. أما اليهودُ المغاربةُ فكان معظمهم قد اندمج في النخبة الفرنسية تعليما ولباسا وطراز عيش منذ القرن الماضي، قرن الحمايات القنصلية الشهيرة. بعضهم فضّل الهجرة إلى إسرائيل. وبعضهم اندمج في الحركة الوطنية المغربية اندماجا تاما وتبوأ فيها أعلى المراتب. أما الأعيانُ المغاربة فقد احتلوا المرتبة الأخيرة. وبين البدلة الأوروبية والطربوش الآحمر المغربي ضاعت هويتهم بعد أن أصابهم المسخ. هكذاكان الجيلالي يفكر وهو يقطع الشوارع واحدا واحدا إلى أن وصل إلى نقطة المرور بين« حمرية » و« الروامزيين »، الواقعة على قنطرة واد بوفكران حيث كانت خوذات الجنودورشاشاتهم تتراءى له معلنة حدا فاصلا بين عالمين مختلفين تماما:

عالمُ المدينة القديمة بدروبها الضيقة الملتوية، وأسوارِها المتربة المضمخة بعطور أزمنة ولت، ومساجدِها وأبوابها الشامخة التي لم تنقطع لحظة واحدة عن رواية أمجاد الأولين وفتوحاتهم فيما وراء البحر ورمال الصحراء الممتدة إلى ما لانهاية. وعالم المدينة الجديدة الأوروبية بساحاتها وشوارعها الفسيحة،

وعماراتها السامقة الشاهدة على عظمة الحضارة الغازية، ومقاهيها ومسارحها وأبناكها وشركاتهاوأضوائهاالغامرة.. خوذات ورشاشات، وقهقهات عالية، وتفتيش ومراقبة للمارين الراجلين والراكبين على دوابهم أو في السيارات وأغنية ألزاسية يرددها مذياع داخل بيت الحراسة الخشبي الرمادي اللون. لم يشعر الجيلالي وهو يردد مع المذياع، ولربما مع بعض الحراس رغم برودة حديد رشاشاتهم، مقاطِعَ من الأغنية:

أنا حبّةُ رملٍ صغيرةْ
يدفعها النهرُ أنَّى يريدْ
في المساء أو في الظهيرةْ
عن مساري لا أَحِيدْ
أنا قمرٌ ونجمةْ
أسبَحُ في جلالِ العتمةْ
أكشِفُ لغزَ الكَوْنِ
بالعقل والهمَّةْ
تنهشُني الرّزايا
تطارِدُني المنايا
ألوذُ بالمحبةْ
محبّة الإنسانِ
أنا حبة رمل صغيره
أنا قمر ونجمه
أكشف لغز الكونِ
بالعقلِ والهمّه

ابتسم الجيلاليُّ وهو يؤوبُ إلى نفسه متذكرا بيير جاكوب الألزاسي رغم أن روح الأغنيّة بعيدة تماما عن روح بيير جاكوب. اتفو!! اتفو!!.. منحوسٌ حتى بعد موته، يلاحقني وهو ميّتٌ، فماذا لو امتدَّ به العمر؟ مسح الجيلاليُّ

جبينه بكفه كمن يطرد من ذاكرته أطيافَ بيير جاكوب. و انتبه وهو في غمْرة خيالاته وهواجسه إلى أنه اقترب من مركز الحراسة، فاضطر عندئذ للوقوف قصد البحث عن ثغرة في الحدود تمكنه من المرور خِلْسَةً إلى الضّفَّة الأخرى دون مراقبة الشرطة العسكرية.

خرجت سوزان من بيتها الفخم وهي تشعر بقلق لا تدري مصدرَه. قلقٌ معربدٌ مُدمِّرٌ جارفٌ يمر بها أحيانا فيترك وراءه الخراب واليباب والحرائق. كانت تحمدُ اللهَ دوماً على أنه لايصيب بشرة وجهها بسوء وإلا لكانت الآن تبدو بمظهر عجوز شمطاء. تذكرت بودلير و رامبو اللذين أعجبت بسيرتهما وفنهما منذ أن كانت تلميذة يافعة. ووجدت في تجربتهما الشعرية مع هذا النوع من القلق الذي يداهمها بين الفينة والأخرى عزاء ومتنفسا. وأصبح القلق في نظرها علامة على التميُّز والعبقرية. ولذلك كانت تستقبله بهدوء، وتودعه بهدوء. وعندما كانت وطأته تزداد على نفسها شدّة وشراسة، كانت تهرب منه إلى حضن مورينو الروخو، وتطفئ حرائقه في أنواع الخمور المعتقة، وطاولات القمار الملونة بالأبيض والأحمر والأسود، وتنشغل عنه أحيانا بالتنقيب عن أسرار الناس ومثالبهم. خرجت سوزان من بيتها وهي لا تدري وجهتها. اجتازت الجسر الحديدي مهرولة. ألقت في مياه النهر الرقراقة الصافية ما بيدها من ورود بحركة آلية لاإرادية. وقررت أن تزور الأعور في المستشفى علها تجد لديه جوابا شافيا للأسئلة المحيرة التي ظلت تطرحها في موضوع سلوك ماري بعد مقتل بيير جاكوب. كانت الشمس قد غربت وراء التلال البعيدة. وكان الليل قد أرخى سدوله شيئا فشيئا. غير أن المدينة سرعان ما احتمت بأنوار الكهرباء من غَلَسِه الكئيب، وعتمته الزّاحفة الرّاعفة.

نفذ الجيلالي من ثقْبٍ وجده في الأسلاك الشائكة. وتدحرج على بساطٍ نديّ من الحشائش المبللة إلى أن وطئت قدماه مياه النهر. اجتاز النهر وسط أجمةٍ من القصب وشجيرات أزير. ووجد نفسه في الضفة الأخرى، في مدينةٍ أخرى، وتاريخٍ آخر، وثقافةٍ أخرى. أخرج رسالة ماري من جيبه وقرأ العنوان المكتوب عليها بخط جميل واضح، وهو يمشي في شارع الروامزيين. تتالت الدروب

الضيقة المرصفة بحجر صقيل ينبعث منه ألق فاتر تحت ضوء مصابيح كهربائية قديمة، وتوالت قراءاته لأسمائها المكتوبة بخط عربي مغربي على لوحات من الزليج أو الرخام: «درب سيدي علي منُّون»، «سينما أبولو»، «درب العين الفوقي»، «درب ابن ابراهيم»، «درب الحاج الصديق»، «درب الحاج ادريس»، «درب عبدالسلام البوخاري». أعاد قراءة العنوان المثبت بالخط الجميل على ظهر الرسالة: «درب عبدالسلام البوخاري» ..هذا هو الدرب الذي يطلبه ويسعى إليه... عاج يمنة وسار في الدرب إلى أن وصل إلى رقم الدار المبين في الرسالة، عندها توقف هنيهة ليتأكد من أنه لم يكن متبوعا من طرف أي أحد. مسح عرق جبينه بمنديله. وحبس أنفاسه قليلا ثم زفر زفيرا عميقا كيما يخفف مابه من قلق وخوف. شعر بهدوء شامل، وطرق الباب الخشبي الضخم المزدان بقطع نحاسية منقوشة، طرقه طرقا قويا بيدٍ حديديّة وجدها مثبتة فيه إلى أن أحس بجلبة وراء الباب.

وقفت سيارة سوزان أمام باب المستشفى، عرّفت بنفسها، ودخلت إلى حجرة الأعور. وجدته واضعا ظهره على وسادته البيضاء مستندا على الجدار، يستمع الى دقات قلبه، وينتظر في صمت مستسلما خائرا منهكا. حيته بودّ بالغ فتألقت عينه بنور غريب، وشكرها على زيارتها. وعندما دخل الطبيب عليهما سألته سوزان عن حالة الأعور فأخبرها بأن حالته ستتماثل للشفاء شريطة ألا يتعب، وبأنه سيرخص له حالاً في مغادرة المستشفى إذا رغب في ذلك.

انفتح باب الدار، وظهر منه وجه شاب قوي البنية يستفهم عن هوية الطارق. تأكد الجيلالي من اسم صاحب الدار، وأخبر الشاب بموضوع زيارته. انغلق الباب واختفى الشاب قبل ان ينفتح الباب مرة أخرى ليظهر وراءه رجل في الأربعينات من عمره، طويل القامة، مربع الكتفين، قوي البنية، صبوح الوجه، ذا أدب ولباقة، يتحدث الفرنسية بطلاقة. رحب بالجيلالي في غاية اللطف و الأدب، وأخذ منه رسالة ماري وفتحها وانهمك في قراءتها. كان بهو الدار واسعا فسيحا مربع الأركان، تتوسطه نافورة تندفع منها المياه إلى السماء عاليا ثم تنكسر

وتتساقط على شكل شذرات من الألماس الملون بأشعة النور المنبعثة من مصابيح منبثة هنا وهناك. وكانت أشجار الأرز والليمون تزين المكان مشبعة إياه بأريج أزهارها البيضاء العطرة. وكانت الورود والأزهار وشجيرات الياسمين تتمايل في وسط البهو وأرجائه الفيحاء الواسعة الفسيحة. أما الأرض فكانت مرصفة بحجارة منحوتة بديعة الشكل. وبدت للجيلالي من بعيد أقواس مدخل البيت ونوافذه ذات الزجاج الملون بالأزرق والاخضر والأصفر. وعندما دخل الجيلالي الدار وراء مضيفه وجد كل الجدران مزينة بالزليج والفسيفساء والأرابيسك المنقوش بفنية عالية على الجبص والنحاس والخشب. أما الأرض فكانت مفروشة بالزرابي الصوفية، تتخللها تحف عتيقة نادرة .كل علامات الفن المغربي الأندلسي كانت ماثلة في هذه الدار التي تندهش من تناقض مظهرها الخارجي مع مظهرها الداخلي الباطني: فقر وشظف وزهد في الخارج، وغنى وثراء ورونق في الداخل والباطن. وكأن هذه الدار ترجمة مادية للمبدأ الصوفي العربي الإسلامي، المغربي الاندلسي، القائل بأن التصوف تخلية وتحلية، وبأن الوجود ظاهر وباطن، ظاهره الخلق وباطنه الحق.

لم يتمالك الجيلالي نفسه من التعبير عن إعجابه بروعة الدار لمضيفه الذي قدم نفسه للجيلالي تحت اسم السي موسى. و رمق بنظرة خاطفة تفاصيل المكان الذي كانا يخترقانه بخطى وئيدة: أبواب منقوشة لغرف متعددة استرعت إحداها اهتمامه بسبب ما يتعالى منها من جدال أعتذر عنه السي موسى مفسرا أن الأمر يتعلق باجتماع إحدى خلايا الحزب. طنافس وأرائك مزركشة بالصقلي الأصيل، ومزهريات ومرشات فضية لماء الورد والزهر، ومبخرة بديعة الشكل تعطر بالمسك والعود أرجاء المكان، وساعات من مختلف الأحجام والأشكال والعصور مثبتة على الجدران، هنا وهناك، كأنها تعبر عن اهتمام صاحب الدار بالزمان وإحساسه المأساوي بقيمته، وجرائد ومجلات عربية مغربية ومشرقية وفرنسية، وكتب للعقاد وطه حسين ومحمد عبده وابن عربي وابن رشد وسارتر وكارل ماركس وجان جاك روسو ومونتسكيو، وكتابات للزعيم علال الفاسي متناثرة هنا وهناك ...

جلس الرجلان في الصالون الفسيح وتناقشا طويلا في موضوع الزيارة، وفي أحوال المغرب وفرنسا والعالم، وتقاربت وجهات نظرهما إلى أن أحس كل منهما وكأنه يعرف صاحبه منذ زمان بعيد. لحظتئذ قرر موسى ألا يخفي أي شئ عن الجيلالي، قرر أن يشركه في موضوع رسالة ماري.

قالت سوزان للأعور وهي تربت على كتفه برقة وحنان بالغين:

ــــ قل لي من فضلك...

ــــ ماذا قلت.؟!. قلت: من فضلك... أول مرة يخاطبني آدمي بهذا الكلام.!!.

ــــ أنت تستحق كل خير. الناس لا يعرفون قدرك.. أما أنا فأعرف كيف أقيّم الناس على حقيقتهم..وأنت ياعبو الديلمي تستحق كل خير...

ــــ وتخاطبينني أيضا باسمي.؟!.كل الناس يخاطبونني بالأعور... إلا أنتِ... شكرا لك سيدتي شكرا!! وحاول تقبيل يدها، غير أنها سحبتها بخفة قائلة:

ــــ العفو.!!. العفو.!!. أريدك أن تحدثني عما تعرفه عن علاقة ماري بالمرحوم بيير جاكوب... وأرجوك ألا تخفي عني أي شئ مهما كان تافها... وليكن في علمك أنني سأساعدها بفضل معلوماتك في محنة تمر بها إثر وفاة بيير كما ساعدتك في محنتك.

وبالرغم من أن الأعور توجس شرا... فلم يكن له بد من أن يحل عقدة لسانه وأن يبوح بما لديه من أسرار ماري.

اعتدل موسى في جلسته وهو يشرح للجيلالي مضمون رسالة ماري. إنها تلح علينا في هذه الرسالة أن نضعك في الصورة، ونعرفك بنا، ونخبرك بعلاقتها بنا، وأن نجيبك على كل أسئلتك قدر المستطاع، وأن نثق بك... إنها توصينا أن تكون... أنت... همزة وصل بيننا وبينها لعدة اعتبارات تذكرها بوضوح في رسالتها... أتدري ياسيدي الفاضل؟! انني تعرفت على ماري في مناسبتين هامتين:

الأولى كانت في باريس، وفي جامعة السربون بالضبط. لا تندهش!. كنتُ آنذاك طالبا في نفس الجامعة أكمل تعليمي في شعبة القانون. وكنت

عضوا نشطا في حركة طلاب شمال إفريقيا، ومراسلا لبعض الجرائد العربية والمغربية المدافعة عن قضايا المغرب... وكانت هي قد أتمت رسالة الدكتوراه في الفلسفة. عرفتها بالضبط يوم مناقشة رسالتها عن «الحرية والضرورة: بين روسو وسارتر»، وذلك بعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها. سمعنا أن شابة من المغرب ستناقش الدكتوراه في الفلسفة فتعجبنا وانقسمنا بين مصدق ومنكر، وكنت من المصدقين، وأذكر أنني قدمت بين يدي رأيي دليلا هو أن أمي سمعت عن السينما، وكان البعض يحرمون دخولها تحريما، فأصرت أمي وهي التي لا يستطيع أحد التشكيك في إيمانها الديني على دخول السينما. ولم يهدأ لها بال إلا عندما رافقتها ـ وهي تلبس الجلباب والنقاب ـ إلى الروامزيين لكي تشاهد فيلما رائعا نسيت الآن إسمه للأسف. فهل ستناقش هذه المغربية رسالتها في الفلسفة بالجلباب والنقاب؟ كنت أختم كلامي مازحا. فيما بعد، عندما علمت ماري بهذا الجدال الذي دار بيننا كانت تضحك وهي تقول والله لو كنت على علم بما جرى فيما بينكم للبست الجلباب والنقاب... وأثناء المناقشة انقشع استغرابنا، فقد علمنا أن الأمر يتعلق بفرنسية من المغرب، واستمتعنا بمناظرة فكرية شيقة خاصة وأن سارتر نفسه كان من بين أعضاء لجنة المناقشة. وعندما انصب النقاش على فكرة الحرية بين الفكر والواقع، أبلت ماري البلاء الحسن في الدفاع عن حرية الشعوب في العالم، وعن حرية الشعب المغربي بالضبط في تقرير مصيره بنفسه... وبعد المناقشة نظمنا لها حفل استقبال حاشد، فتوطدت العلاقات فيما بيننا من يومها الى الآن...

أما المناسبة الثانية، فكانت في المغرب، وفي مكناس بالضبط، حيث التقينا في مظاهرة حاشدة نظمتها ثلة من الشباب الوطني المغربي والشباب الفرنسي المناهض للاستعمار والإمبريالية. وأردنا لها، هم ونحن، أن تكون تظاهرة من أجل الحرية والسلم وتقرير مصير شعوب العالم، وأن تكون في نفس الوقت رد فعل حازم على اعتقال الإقامة العامة ونفيها لعدد من الوطنيين المغاربة بعد تنصيب الجنرال جوان مقيما عاما وبعد محاولة تحويل هذا الأخير الحماية الى استعمار مباشر خارقا بذلك اتفاقية 1912. قد تسألني وما علاقة ماري

بقضية المغرب.؟!. أجيبك بأن ماري تعتبر نفسها مغربية بقدر ماهي فرنسية. فقد ولدت في المغرب، فهي مكناسية المولد كما تعلم... فتحت عينيها أول ما فتحتهما على زرقة سماء مكناس وجمال أرضها وطيبوبة أهلها. لم تنس ترحيب «عمي حَمّو» بها وهي صغيرة... في طريقها إلى المدرسة الابتدائية... بلهجته الطفولية المرحة: «طوا... بيل جون فييت... حفظك ربي لوالديك!». لم تنس «أمي رقية» حارسة المدرسة وهي تقدم لها في كل صباح وردة على عتبة باب المدرسة وتدعو لها بأن يحلي الله كلامها ويفتح عليها من عنده... ولم تنس اليوم الماطر الذي رآها فيه «عمي حمّو» وهي تقطرمطرا وترتعد بردا فترك أشغاله وأركبها في «كروسته» الخشبية وغطاها بغطاء بلاستيكي وجر كروسته وراءه كالحصان إلى أن أوصلها إلى باب الثكنة حيث مسكن أبويها، غير أن حارس الثكنة ألقى عليه القبض بتهمة محاولة اختطاف ماري مودعا إياه السجن رغم عويل ماري وتضرعها له بأن يطلق سراحه. وبقي عمي حمو في السجن أسبوعا إلى أن رجع الضابط من سفره فحكت له ماري ماوقع لعمي حمو فبادر إلى إخراجه من السجن والاعتذار له بل ومكافأته. ومن يومها أضحت ماري لا تخرج خارج الثكنة إلا وهي مصحوبة بخادم خصصه لها أبوها يرافقها ولا يكاد يفارقها... وعندما أصبحت يافعة لم تكن تصدق أبدا القصص المختلقة الغريبة التي كانت تسمعها في المدرسة والأسرة والشارع عن توحش المغاربة وغدرهم وخيانتهم وتعصبهم وكراهيتهم للفرنسيين. بل كثيرا ما نجحت في التسلل إلى الأحياء المغربية للتثبت مما كانت تسمعه فلم تجد في واقع الأمر إلا أناسا انهكهم الفقر بسبب استيلاء الفرنسيين على أجود الأراضي المكناسية واحتكارهم مياهَ واد بوفكران ومنافسة بضائعهم المصنعة سلعَ الصناعة التقليدية المحلية واحتكارهم التجارةَ الكبيرة والبنوكَ وشركات المال والأعمال والتعليم والمناصب الإدارية الأساسية... ومع ذلك لم يكن هؤلاء الناس يكرهون الفرنسيين مطلقا بل كانوا يكرهون مستغليهم ومضطهديهم من الفرنسيين المعمرين والاستعماريين... أحيانا كثيرة كانت ماري لا تجد غضاضة في التصريح بأنها مغربية من أبوين فرنسيين. وقد تعمق اقتناعها بهذه الفكرة –مع مرور الزمن ـــ نتيجة لتجاربها الخاصة في الحياة من جهة، ولقراءاتها لكبار المفكرين والأدباء الفرنسيين والأوروبيين من جهة

اخرى.. ولا أعرف ما إذا كنْتَ تعرفُ أنّ ماري تعرّضتُ ـــ بسبب آرائها ـــ لمضايقات عديدة داخل أسرتها، وفي المدرسة، وفي بيئتها الفرنسية عامة وصلت أحيانا إلى الاعتداء البدني عليها...

ـــ ومع ذلك فهي لا تتفق مع الوطنيين المغاربة في المطالبة بالاستقلال عن فرنسا... نبّه الجيلالي بلهجة ذات مغزى...

ـــ أتعرف أن من بين الوطنيين المغاربة أنفسهم من يقول بنفس رأي ماري...

ـــ مافي ذلك شك... غير أن الأهداف والمرامي البعيدة تختلف...

ـــ أدركُ ذلك... تماما... ومع ذلك... لو تأملتَ قليلا لوجدتَ أن العبرة بالممارسة... وبالفعل... وممارسةُ ماري وأمثالها يصبُّ في النهاية في هذا النهر الهادر على المستوى العالمي، نهر الاستقلال وتقرير المصير، خاصة بعدما جرب الشباب الفرنسي هناك... في فرنسا نفسها... ذلّ الاستعمار الألماني وبشاعته أثناء الحرب الأخيرة... إن كل واحد من هؤلاء الشباب سيعاني في مثل هذه الظروف من تناقض وجداني مؤلم بل ومأساوي: فهو يريد الحرية ويضحي بدمه من أجلها ويكره الاستعمار والاحتلال لبلده، غير أنه ينتبه في الوقت نفسه إلى أنه ـــ هو ذاتُه ـــ مسْتعمِرٌ لغيره، عدوٌّ لحريةِ غيره... هذا هو التناقض المأساوي الذي يدفع أمثال ماري إلى مناهضة الإقامة العامة بالمغرب والسعي إلى ربط علاقات الود والاحترام مع الوطنيين المغاربة... يمكننا أن نلخص مبدأ ماري في عبارة شهيرة وردت في خطابها باسم جمعية الفرنسيين الاحرار: «رغم كل شيء، رغم مفاجآت التاريخ وتقلباته، وطيش حكامنا أحيانا بسبب المصالح الآنية، مكتوب علينا ـــ بحكم دماء شهداء الشعبين المغربي والفرنسي الممتزجة في معارك الشرف دفاعا عن الحرية ضد الفاشية والنازية ـــ... مكتوب علينا: نحن الفرنسيون وانتم المغاربة أن نتعايش ونتعاون ونتغلب على كل ما من شأنه أن يفرق بيننا ويزرع البغضاء في قلوبنا»... وأنت تعلم انها نجحت إلى حد كبير في فرض احترام آرائها حتى على أبيها وأمها رغم نزعتهما الاستعمارية القوية. بدليل أن بعض اجتماعات مكتب جمعيتها تنعقد على شكل حفلات أسروية في بيت أسرتها، داخل الثكنة. أليس كذلك؟

هذا هو الجانب الذي أخال أنك لا تعرفه من حياة ماري وشخصيتها، وأنت تعلم أنها لا تتحدث عن نفسها ولا عن تضحياتها. وقد ألحت عليّ في رسالتها أن اطلعك عليه لكي تتضح لك معالم مهمتك المقبلة.

ما أعرفه عن علاقة ماري ببيير جاكوب؟! تساءل عبو الديلمي الملقب بالأعور وهو يعتدل في سريره الأبيض ويمسح بكم قميصه سائلا لزجا تقطرّ خلسة من أنفه الأفطس، قبل أن يردف قائلا بصوت خافت كمن يخاف من انكشاف سر ما:

ــــ حسنا سيدتي سوزان، حسنا.!!. سأحكي لك ما أعرفه رغم خطورته ورغم حرصي على ألا يتسرب إلى أي مخلوق. لكن في سبيلك، ولأجلك سيدتي سوزان، كل محظور يصبح مباحا.

من أين سأبدأ؟... عليّ اللعنة!... تتداخل الصور في ذاكرتي وتتراكب وتتزاحم وتتدافع فتختلط البداية بالنهاية فيتعذر علي تثبيت الأحداث والوقائع ويستحيل حكيها وروايتها. وهل يستقيم الحكي دون وضع حد فاصل بين البداية والنهاية. ولذلك سيدتي سوزان كل حكي ليس في واقع الأمر إلا خيانة لما نود حكيه، أي لما تمّ في العالم من أحداث ووقائع، مادمنا نحن الذين نصنع البدايات والنهايات، ونفرضها على الأحداث موضوعَ الحكي سيدتي. أَنْ نحكيَ بأمانة، معناهُ أَنْ نصمتَ، ألا نحكيَ، أو معناه ـ على الأقل ــــ أن نحكيَ بصمت في أعماق أنفسنا لأنفسنا في هدءة الليل، أو على شاطئ البحرِ قرب المغيب دون حسيب أو رقيب، شريطةَ أن نكونَ قد أشرفنا من أعلى قمّة العمر على رهبة الموت حيث تنمحي الرهانات والمرامي والأغراض... أو تكاد.

لم تتمالك سوزان نفسها من الضحك.. صفعته برفق على قفاه وقالت له منبهة مازحة:

ــــ عبّو الديلمي.!! صديقي الأعور الذي لا تخفى عليه خافية... إنني أنتظر إفاداتك بفارغ الصبر ولا تهمني البدايات والنهايات لأن نسيج الحياة نفسه مكون من لعبتهما السرية الملغزة... أقول لك... اتكل على الله... وابدأ حكايتك...

ـــ نبهتكِ تنبيهَ خبيرٍ بشؤون الأخبار حتى تنتبهي إلى حدودها !

ـــ أعرفُ قدرةَ عينيكِ الخارقة لحجبِ الكائنات والأشياء... أريد الآن أن أتعُرف على مدى قدرتك على الحكي. احكِ يا عبْو الديلمي.!!. احكِ.!!.

انغرستِ الحروف الثلاثة في ذاكرته، كما تنغرس السِّهامُ في جسدٍ منهاكٍ من شدة الجري، خوفا من خطر محقق. ورأى نفسه وقد تحول عجائبياً إلى امرأة تدعى شهرزاد، بينما تحولتْ سوزان إلى شهريار الآمر الجبار. وابتسم وهو ينتبه إلى قرابته الحميميةِ بالمرأة شهرزاد التي لا تستمِدُ قيمتَها في وجود شهريار / سوزان إلا لكونها تمتلك ذاكرة موّارة بالأخبار والأسرار. وعندما تستنفد شهرزاد أخبارها تسكت مرة واحدة ـــ سكوتا أبديا ـــ عن الكلام المباح، وتموت في ذاكرة الناس ومجال وعيهم كأنها ما كانت.

ـــ إحكِ عبو الديلمي.!!. إحكِ.!!. لا زال الليل أمامنا طويلا... إحكِ.!!. وابدأ مما شئت...

إنها لا تعلم غفر الله لها أن البداية والنهاية تتجسد في هذه الآونة في علاقتي بها بالضبط والتحديد. ولكنها معذورة. فلو عملت مثلي في سلك المخابرات سنوات طويلة لعلمت مغزى ما أقوله لها في هذا الشأن. لكنها ابنة مدارس، وكتب نظرية، وهذا كل شيء..!!

ارتعد عبو الديلمي وهو يسمع دويَّ صناجات نحاسيّة تتمايل يمنة ويسرة، يطرقها عبد أسود ضخم الهيئة بدبّوس هائل من الخشب الأحمر اللامع، ووجد نفسه جالسا على أريكة فاخرة من الديباج الأخضر المزركش بخيوط الذهب، وقد ارتدى ملابس فاخرة تفوح منها عطور اليمن. غير أنه اندهش عندما أدرك فجأة ان تلك الملابس ملابس نسائيّة. فحاول أن يتخلص منها غير أنه خاف من أسنة رماح الحراس الشداد الذين يحيطون بالمجلس الفسيح الفخم الشبيه بمجالس هارون الرشيد، عفوا، بمجالس شهريار. وعندما رفع عينه إلى الأعلى، وجد سوزان في ملابس شهريار العظيم جالسة على عرش من الذهب المرصع بالألماس ترمقه بنظرة متواطئة وتأمره بأن يحك حكاية الليلة. فأسلم أمره لباريه،

وبسمل وحوقل وصلى على النبي وآله ونقر على العود لحنا بديعا، وأغمض عينه حتى توارى بريقها وراء جفنه، وأطلق للسانه العنان، يحكي ويحكي ويحكي بحرقة مريرة.

لندخل الآن إلى صلب رسالة ماري إذا سمحت سيدي الجيلالي بذلك. قال موسى مستأنفا حديثه وقد اشعل سيجارة عارضا أخرى على الجيلالي الذي اعتذر عن قبولها لأنه لا يدخن.

ـــ ورد في الرسالة أمران مهمان: الأول هو أن نعتمدك منسقا بين التنظيم الحزبي الوطني المحلي الذي شرفني إخواني فيه بتمثيلهم، وبين جمعية ماري. وعليه، فإن هيئة التنسيق تتكون من هذه الساعة ـ إذا ما تفضلت وأبديت موافقتك ـ من عضوين منسقين أنت وأنا.

ـــ يشرفني أن أقوم إلى جانبك بهذه المهمة! قال الجيلالي بلهجة واثقة.

ـــ لم يكن يخامرني شك بعد الذي سمعته عنك من ماري في أنك أهل لهذه المسؤولية... وإن كنتُ شخصيًا أوصيتُ ماري بألاّ تتحدث عني إليك، فَمَرَدُّ ذلك إلى كوننا نطبق في هذه المرحلة العصيبة بعض التوجيهات التنظيمية المركزية، وإلا فنحن نثق فيك ثقة تامة. ولذلك لا تتضايق من كوني سألتزم الصمت التام فيما يتعلق بتعريفك بتفاصيل شخصيتي. ولن يطول ذلك، لأنني أشم رائحة الاستقلال قريبة منا، وسنجد الوقت الكافي للتعارف الشخصي عندئذ بعد زوال البطش الاستعماري الغاشم وبزوغ عهد الحرية التي اقسمنا جميعا على أن نستمر في بذل دمائنا حتى نراها.

أما الأمر الثاني فيتعلق بمستجدات الوضع في المغرب في علاقته بفرنسا، وما يطرحه هذا الوضع علينا من مهمات وتدابير مستعجلة. وفي الرسالة أخبار مهمة لا باس من اطلاعك عليها ومناقشتها معك حتى تدرك وجهة نظرنا فيها.

تقول ماري بأن الملك رجع البارحة من زيارته لفرنسا، بيد أن الكلاوي بقيَ في باريس بطلب من الدوائر الاستعمارية الفرنسيّة لكي تتدبر الأمر معه فيما يتعلق بإقالة الملك من الحكم بعد موقفه المؤيد لوثيقة 44 وبعد خطاب طنجة،

وامتناعه المتكرر من التبرء من الوطنيين تبرؤا تاما ومن إعلان عدائه لهم. تقول ماري بأن الجنرال جوان وحلفاءه في الإدارة الاستعمارية عازمون على إقالة الملك من مهامه وتعيين ملك ضعيف محله، شرطَ أن تكون الإقالة بأياد مغربية حتى يتسنى للإقامة العامة تقديم الإقالة للرأي العام الدولي في شكل ثورة داخلية مغربية يقودها أعيانُ البلد وعلماؤها ضد ملكهم. فالامر لا يعدو ان يكون عندئذ شأنا داخليا لا يهم فرنسا ولا غيرها بل يهم المغاربة فقط. وفي هذا السياق ستدّعي الإقامةُ العامةَ أنّ دورَها ينحصر فقط في ضمان الحريات داخل البلد ومنع الفوضى واستتباب الأمن دونما تدخل في مسألة نظام الحكم في المغرب، فذلك النظام الذي يبقى أولا وقبل كل شيء من اختصاص المغاربة وحدهم.. مسرحية! أليس كذلك.؟!!..

ــــ ومن سيكون أبطالها ؟ الكلاوي... ومن أيضا ؟

ــــ الكلاوي، والكتاني عبدالحي، وعدد من القواد المعروفين بعمالتهم للإقامة العامة...

ــــ أعرف بعضهم لأنهم يزورون دوما الضابط... أعني أب ماري... ويرتبطون بالمعمّرين بعلاقات عضوية تتعدى المصالح الآنيّة لتطال المصالح البعيدة المدى... وهذا يعني أننا مقبلون على زلزال عظيم !!.

ــــ لكن ثق بي... سيخرج منه المغاربة الوطنيون والفرنسيون الأحرارمنتصرين... اشتدي أزمة تنفرجي... ألم تسمع بهذه القولة .؟.

ــــ لا علينا... ما الذي يتعين علينا عمله الآن؟!!..

ــــ أرجو أن تنتظرني هنا حوالي ساعة... لا تنصرف إلا بعد رجوعي... الأمر خطير يستدعي الاستشارة... زهرة ! آزهرة !

أطلت الخادمة من باب تفوح منه روائح الطبخ وهي تحمل صينيّة من الفضة مليئة بالمشروبات والحلويات : الشاي والقهوة والحليب وكعب الغزال والفقّاص وغُرَيِّبَة والزَّمِّيتَة وزيت الزيتون والزبدة الطريّة وشطائر الخبز.. ناولتْهما لموسى وانصرفت بخطى مسرعة. رحّبَ موسى بضيفه من جديد داعيا إياه إلى تناول مايحلو له من طيبات الصينية. وغادر المكان مهرولا.

سأبدأ الحكاية من ميلاد ماري، وإن كان الميلاد نفسه نهاية لمرحلة أخرى...
لم تكن ماري مدللة في صباها. فقد كانت أمها تحلم بأن يكون مولودها ذكرا واستبد بها الحلم إلى حد أنها هيأت كل ثياب ومستلزمات المولود منذ شهرها السابع، قبل الوضع طبعا، على أساس أن المولود سيكون ذكرا، وأنه سيشبه عشيقها «جون لاباساد» الذي أحبته حبا كبيرا قبل أن تضطرها الظروف للزواج من الضابط. وعندما أتت ساعة الوضع، وناولتها الممرضة مولودا صغيرا عاري الجسم يتقطر سائلا لزجا لتضمه إلى صدرها قائلة لها بنبرة فرحة: «على سلامتك... هذه ابنتك... إنها كالقمر»، لم تصدق أذنها ظانة أن الممرضة تمازحها .وعندما تأكدت من صحة الخبر بكت بحرقة بالغة. ولما كان أب ماري غائبا عن البيت في الغالب بسبب مساهمته في حروب الأطلس، ولما كان شعور النفور لا يزال يراود أم ماري تجاه ابنتها، فإن ماري نشأت منذ طفولتها المبكرة مهملة نسبيًا، تضطر في الغالب إلى سد حاجاتها ومجابهة مشاكلها بنفسها، لا تعتمد على أحد مهما كان. وسرعان ما أصبحت عنيدة متمردة، ذات حساسية مفرطة تجاه مظاهر الظلم والقسوة. ترفض التبعية لأي أحد رفضا قاطعا.

لا داعي للحديث عن بيير جاكوب، فسجله معروف لدى الخاص والعام، ولا داعي لذكر الظروف التي أتت به إلى التعارف مع أسرة الضابط، فأنت تعرفين أن أم ماري سبق أن استعانت بخبراته المتعددة في قضاء أغراضها ورغباتها عندما غاب زوجها شهورا عديدة وكثرت الإشاعات عن موته أحيانا، وعن زواجه بمغربية من قبائل زَيان إثر وقوعه في الأسر. ولما عاد الزوج ليشغل وظيفته في الأسرة، توجه نظر بيير جاكوب إلى ماري وقد أصبحت فتاة تملأ الدنيا بمفاتن الجسد والروح معا. كان يتبعها كما يتبع الكلب مولاه ليل نهار، ويحاول استمالتها إليه بمختلف الوسائل. عرف حبها للسباحة، فسجل نفسه عضوا في مسبح المدينة وأصبح عضوا في مكتبه المسير، وأخذ يتقرب منها في الماء والبر ملامسا جسدها البض بين الفينة والأخرى معتذرا في كل مرة. وعرف حبها لركوب الخيل والتجوال خارج المدينة، فاقتنى فرسا عربيا أصيلا وافتعل المناسبات لمرافقتها خارج المدينة في خرجاتها إلى إفران، وإلى مولاي عقوب، أو وليلي...

دافع عنهامرارا بوصفه محاميا عندما ألقي عليها القبض في المظاهرات واستغل كل وساطاته للإفراج عنها دون أن يدري والدها بالأمر. ولم يكن يترك أي فرصة تمر دون أن يستغلها ليغذق إطراءه على جمال ماري وظرفها وأناقتها معبرا عن إعجابه الشديد بها. كانت في البداية لا تدري قصده فتتورد وجنتاها من الخجل ولا تحير جوابا، خاصة وأن المسافة العمرية التي تفصلهما الواحد عن الآخر تمتد على عشرين سنة. لكنها عندما فهمت قصده صدته عنها بعنف. عرض عليها الزواج مرارا... وفي كل مرة كانت ترفضه مقترحة عليه أن تخطب له نساء في عمر أمها. وكلما رفضته كلما استعر غضبه وازداد بها عشقا وهياما، أو هكذا كان يخيل إليه. ووصلت به نزوته الى حد تخيلها في أحلام يقظته، ورؤيتها في أحلام منامه وهو يداعبها وتداعبه على سرير مخملي محمول على ماء بحر هادئ لا ضفاف له. سمى عمارته التي بناها بشارع « كورو » باسم ماري ،وسمى مهرته الشهباء بماري، وعملياته في البنك ـ هي الأخرى ـ سماها بماري 1 وماري 2 وماري 3 إلخ ...كلُّ عزيزٍ عليه سمّاه بماري حتى اختلطت عليه أسماء المقربين منه رجالا ونساء باسم ماري. رأيتُهُ مرّةً بعيْني هاته في حديقة المنزل وهو يجثو على ركبتيه أمام ماري تحت شجرة السّرو الضخمةِ التي كان يحلو لماري أن تجلس في ظلالها لتقرأ وتكتب فيما بعد الظهيرة، ضارعا باكيا راجيا منها أن تقبله عاشقا وزوجا وصديقا. بيْد أنها كانت تمعن في رفضه وإذلاله بعدما عرفت مغامراته، واكتشفت طباعه. وذات مرة أتاها شاحب اللون، دامع العين، في يده ألبوم صور عديدة لنساء ضاجعهن محاولا بذلك إثارة غيرة المرأة فيها. قلبت ماري الصور بين يديها من أول صفحة إلى آخر صفحة، وأغلقت الألبوم وزفرت قائلة من بين أسنانها: صور جميلة... لكنك للأسف، أهملت صور أمي !

ارتعد بيير جاكوب مندهشا مرتبكا . . .

ـــ أو تعلمين يا بنت ال...

ـــ قد أكون ابنتك... قاطعته ماري... قد أكون ابنتك دون أن تدري...

منذ هذه الواقعة، أقلع بيير جاكوب عن مطاردة ماري. واكتفى بأن يكون صديقا لها. بيد أن إعجاب ماري بخصال مورينو وعطفها عليه، واهتمام مورينو بها، كان في كل مرة يشعل نيران الغيرة والحقد والغضب في صدر بيير جاكوب. رأيته بعيني هاته ــ في مناسبات عديدة ــ وهو يتميز من الغيظ ملاحقا ماري ومورينو كلما اختليا في مكان ما داخل المنزل، أوفي الثكنة أو خارجها. كنت أسمع أنفاسه تتردد بعنف من بعيد. كنت أراه وهو يمسك بحنجرته كمن يحاول منعها من الاختناق. كنت أرثي لحاله دوما، فما أشبه حاله بحالي !

بكت عين الأعور. وتدحرجت قطرات من الدمع على خديه. بيد أن لسانه لم ينقطع عن الحكي مخافة أن يغضب شهريارسوزان غضبته التي تنهد لها الجبال وتتدحرج من هولها الرؤس على الأرض كالبطيخ.

كان بيير جاكوب لا يترك فرصة تمر دون أن يمعن في إذلال مورينو... ووصل به الحقد إلى حد محاولة اغتياله مرة بالسم...

ــــ ماذا تقول؟! لم نسمع بهذا قط.

قال شهريار سوزان مستنكرا متعجبا مقاطعا حديث الأعور عبو الديلمي...

ــــ يحق لكم أن تندهشوا. فأنا الوحيد الذي عاينت محاولة التسميم بعيني هاته... كان الوقت مساء عندما وقعت المحاولة أثناء حفلة نظمتها أم ماري احتفالا بترقية زوجها إلى مرتبة عليا. رأيت بيير جاكوب وهو يصب السم من قارورة صغيرة في كوب شراب مورينو دون أن ينتبه هذا الأخير إلى الأمر بسبب انشغاله في حديث طويل مع أحد الضيوف. كان عليّ أن أتصرف قبل أن يتحول الحفل مأتما... خرجت من مخبئي وتسللت إلى أن أصبحت قرب مورينو واختطفت الكاس من الطاولة دون أن ينتبه إليّ أحد، إذ كان جل الحاضرين سكارى من فرط الشراب، ووضعتها بعيدا أمام تمثال العذارى قرب المسبح . لم أنتبه إلى ضرورة إراقة ما بها من شراب مسموم إلا بعد أن رأيت شبحا يزحف نحو الكأس وسمعت مورينو وهو يعربد غاضبا سائلا عن كأسه. كان الشبح

كلبا ربته ماري وأحبته. وفي الوقت الذي أدركت ما سيقع، كان الكلب قد لعق الشراب من الكأس فمات لتوه. وعندما اكتشف الحاضرون الكلب الميت وأخبروا ماري، انقلب الحفل إلى مأتم حقيقي.

كثرت أقاويل الناس وتفسيراتهم للحادث. لم يشك أي أحد في أن الذي فعل الفعلة هو بيير جاكوب. وعندما غادر الحاضرون المنزل استدعاني بيير جاكوب وخيرني بين اثنين لا ثالث لهما إما رزمة نقود ناعمة لم يجد علي بها الزمان، وإما سكين حاد يتقطر من شفرتها الموت. فاخترت الرزمة طبعا وسكت. وفي الصباح، سبقت الجميع إلى تفقد الكلب الميت فوجدت لافتة معلقة في عنقه لم احسن قراءتها فقرأتها ماري التي لحقت بي متعجبة. أتدرون ما ذا كان مكتوبا في اللافتة؟

ـــ «مورينو الروخو» ؟!!

ـــ نعم... مورينو الروخو...

ولاحظت في الأيام الموالية أن بيير جاكوب يعاني من اضطراب عقلي أخذ يتحول مع مرور الزمن إلى خلل عقلي حقيقي.. فكلما حدث تقارب بين ماري ومورينو الروخو كلما استعرت نيران صدره واتقدت، وأخذ يهذي... هجر مهنته... عفوا مهنه... وتفرغ لملاحقة مورينو في السر والعلن. شكك في هويته.. وصرف الأموال الطائلة في البحث عمن يدله على هوية عدوه مورينو... سافر في سبيل ذلك إلى فرنسا... وقبيل مقتله المأساوي الذي تعلمون مواصفاته، كان قد عاد بملف ضخم يثبت هوية مورينو الحقيقية. سمعته يقول لنفسه في ليلة مقتله : بهذا الملف سأخنق أنفاسك يامورينو الكلب كما خنقت أنفاسي. وكانت كل تصرفاته تثبت أن الرجل أصبح مخبولا معتوها أو يكاد.. والنهاية تعرفونها إذا كانت هناك نهاية لأي شئ أصلا !!

ـــ لكن... إذا كان الأمر كذلك ،فلماذا أغميَ على ماري أثناء سماعها بمقتل بيير جاكوب في الحديقة؟!...

ـــ تعجبتُ مثلما تعجبتم... ولذلك سألتُ ماري عن الأمر فأخبرتني بأن الرجل كان صديقا لها كيفما كان الحال. ثم إن بيير جاكوب، وهذا هو المهم،

قُتِل في المكان نفسِه الذي قُتِل فيه كلبُها الأسودُ المحبوب. رأتهما في مخيلتها ممددين في نفس المكان تحت التمثال فانفعلت إلى حد أن أغميَ عليها!

ـــ مستحيل! أأنت متأكد مما تقوله أيها الأعور؟!

صرخ شهريارسوزان غضبا...

ـــ متأكد.!!. في نطاق ما يسمح به مجال الحكي... وسبق أن قلت لكم، سيدي سيدتي، بأن مجال الحكي مجال للالتباس والاختلاط، لا يدري المرء فيه حدودا فاصلة بين البداية والنهاية، والحقيقة والخيال، والصدق والكذب.

ـــ أنا أريد الحقيقة... أريد الصدق... أيها الاعور اللئيم... هذا الصبح قد انفلق وأشرقت أنواره وأنت تحكي لي طيلة الليل حكاية مختلقة، كلها أوهام وأباطيل وترهات... أضعت وقتي... وحرمتني من الكرى، حرمك الله من عينك الأخرى... أيها السياف!

ـــ نعم سيدي... سيدتي.!!. الأمر أمرك.!!.

قال السياف ذي البطن العارية الضخمة وهو يشهر سيفه الصمصام في الهواء...

ـــ أَحْرِكْ* هذا الرأسَ الأعورَ المليئ بالخيالات والخرافات... وأتيني به على صينيّة من الذهب لأبحث في ثناياه عن الحقيقة...

ارتعد الأعورُ وتبللت بالعرق ملابسُه الحريريّةُ المضمَّخةُ بعطورِ اليمَن، ورأى الموتَ رؤية العين يزحف نحوه كما لوكان عنكبوتا ضخما يملأ المكان بجسمه اللزج المترهل... رفع السيّاف سيفه الصمصام إلى الهواء. وعندما كان السيف يهوي على رقبة الأعور سمع شهريارسوزان صياح الديك. وعند صياح الديك يحرم على الملوك والسلاطين إراقة دماء الحكائين. وبمجرد ما سمع السياف عفو الملك، جمدت حركة يده، وبجمودها جمد السيف في الهواء على مسافة سنتميترين من عنق شهرزاد الأعور عبو الديلمي.

تقدم العبد بدبوزه الخشبي الضخم اللامع في أضواء ثريات القصر، وأطرق في الصناجة النحاسية الضخمة طرقات ثلاث غاب عبو الديلمي الملقب بالأعور عن رشده على إثر سماعها. وعندما استفاق من إغماءته وجد نفسه

باردا وحيدا يعاني من ألم حاد في يده ورأسه.. وحيدا كما العادة.. وحيدا كما خلقته أمه.

كان الجيلالي بن الطيب في الصالون الفسيح يحتسي شايه عندما طلع عليه موسى من فناء الدار بوجه مصفر من كثرة الجري، وهو يحمل غلافا متوسط الحجم. جلس منهكا على الفراش المزركش بالذهب ووضع حبة كعب غزال في فمه وأخذ يمضغها بتلذذ وهو يحاول تركيز أفكاره للتعبير عنها بأوضح عبارة ممكنة.

اتصلت بقيادة الحزب واتضح فعلا أن معلومات ماري صحيحة ونافعة. وعلمت أن جلالة الملك قد تقدم ــــ أثناء زيارته لباريس ــــ بمذكرة يشتكي فيها من تصرفات الإقامة العامة بقيادة الجنرال جوان، تلك التصرفات التي تتنافى مطلقا مع وثيقة الحماية، ووعود الحلفاء لجلالته في مؤتمر أنفا، ومع رياح الاستقلال وتقرير مصير الشعوب التي تهب على العالم منذ نهاية الحرب الأخيرة، ومع رشد الشعب المغربي وإرادة قواه الحية في ارتياد آفاق الحرية. لذلك كله طالب جلالة الملك بفتح مفاوضات بين الطرفين المغربي والفرنسي للنظر في الأوضاع المغربية، وفي علاقات البلدين الصديقين، لتحيينها وجعلها تتلاءم مع كل المعطيات المشار إليها آنفا.

ــــ وهل وجدت المذكرة قبولا من الطرف الفرنسي؟

تساءل الجيلالي باهتمام كبير.

ــــ لا... للأسف... الظاهر أن الميل الاستعماري المتشدد في الحكومة الفرنسية هو الذي يوجد الآن في مركز قوة، وهو يشجع الإقامة العامة في سياستها الرامية إلى زرع الشقاق بين الملك والحركة الوطنية. لذلك نتوقع أن الجنرال سيعبئ كل القوى داخل المغرب وخارجه لاستصدار بلاغ من الملك يدين فيه الوطنيين. وفي كل الحالات سيكون الملك في غاية الحرج: إذا أدان الحركة سيظهر أمام الملأ وكأنه يعاديها ويمنح الشرعية لعدوان الإقامة العامة عليها، وإذا امتنع عن الإدانة تعرض لمواجهة الإقامة وأذنابها من قوّاد وعلماء

وشيوخ زوايا خونة... وفي هذا الاحتمال الأخير يندرج بقاء الكلاوي في باريس. فالظاهر أن الكلاوي سيعود من باريس محمَّلا بتوجيهات ومخططات ترمي إلى عزل الملك إذا لم يناهض علانيّة الحركة الوطنية. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل هذه المعطيات، فإننا نستخلص:

أولا: إن المعركة من أجل الاستقلال قد استعَرَتْ ويجب أن نكون في كامل استعدادنا لقيادتها إلى النهاية. وقل لماري لتبلغ أصدقاءَها الفرنسيين الأحرار اننا لا نرغب في أي مظهر من مظاهر العنف في المغرب سواء ضد الفرنسيين أو غيرهم. إننا نلتزم بالحرص على صداقة فرنسا العظيمة صاحبة أول إعلان عن حقوق الإنسان،فرنسا العلم والأدب والفن والتقنيّة وسيادة الحق والقانون، كما نلتزم بمناهضة فرنسا الاستعمارية التي لا تضطهدنا فقط بل تضطهد شعبها أيضا، ولربما كان اضطهادنا وسيلة لاضطهاد الشعب الفرنسي العظيم من طرف حكامه. فقد أثبت التاريخ أن شعبا يضطهد شعبا آخر، لا يمكن أبدا أن يكون حرا. ومن ثم وجب علينا جميعا أن ننسق جهودنا لكي يتمتع المغرب بحقوقه الطبيعية التي لا تقبل التفويت في إطار جو خال من العنف وإراقة دماء الشعبين الصديقين.

ثانيا : في حالة ما إذا أرغمت الاقامة العامة ـــ بدعم من عملائها المغاربة ـــ محمد الخامس على إدانة الحركة الوطنية، وصدرت الإدانة فعلا، فإننا نعلم علما راسخا مواقف جلالة الملك الراسخة الحقيقية وسنفسر للشعب بمختلف الوسائل أن تلك الإدانة لا معنى لها مادامت قد استُصْدِرَتْ بالعسف والقهر، ونحتفظ بموقفنا المبدئي الذي يجعل منا جنودا لجلالته في سبيل استرجاع استقلال بلادنا من الطغيان الاستعماري الفرنسي.

فرح الجيلالي وهو يرى في هذا الحديث المباشر الصريح دليلا على ثقة الوطنيين به، وعلى ولوجه مرحلة فريدة من حياته المليئة بالمنعطفات والمفاجآت الغريبة. وردد في سره مطلع الأغنية الألزاسيّة: «أنا حبة رمل صغيرة». غير أنه

سرعان ما انتبه إلى أن حبة الرمل وإن كانت صغيرة الحجم فهي ذات قيمة لا ينكرها إلا جاحد ضعيف البصر والبصيرة. وسرعان ما طرد أفكاره بحركة يده اليمنى ماسحا لحيته، مقاطعا موسى :

ـــ وإذن... فالمغرب مقبل على مرحلة نوعية جديدة تضع الاستقلال في مقدمة جدول الأعمال كما قلنا سابقا؟ قالها بنبرة واثقة وهو ينظر إلى موسى باحترام ومودة، وكأنه يعرفه منذ تاريخ بعيد.

ـــ لذلك أرجوك أن تبلغ ماري رأينا، وأن تبلغها هذه الرسالة، خذها من فضلك الآن، لكي يكون أصدقاؤنا الفرنسيون على علم بما نفكر فيه. ومرة أخرى أرحب بك وأهنئ نفسي بمعرفتك والتعاون معك لما فيه خيرنا جميعا... عانق موسى الجيلالي عناقا حارا ورافقه إلى باب الدار. وعندما أغلق الباب، كان الجيلالي قد اختفى في ظلام الدروب التي لا تستنير إلا بأنوار نجوم متلألئة هناك... بعيدا... في سماء مدلهمة لا نهاية لها.

- 16 -

كانتِ السَّاعةُ تشيرُ إلى الثالثة صباحا، وكانتْ جحافلُ الليلِ تنسحبُ في هدوءٍ وهي تجرُّ ذيولَ الهزيمة. وبانسحابِها التَّدْريجيِّ، كانتْ معالمُ العماراتِ والأكواخِ والأشجارِ تَتَّضِحُ شيئاً فشيئا. وحدَها «أمُّ السّوالفِ»، تلك الشجرة السّامقة المخمليّة، كانتْ تهتزُّ أوراقُها الصغيرة طرباً على إيقاعِ نُسَيْماتٍ خفيفةٍ باردة. كان اللهُ في عَوْنِ ماري، وفي عَوْنِ الوطنيين، وفي عوني أيضا. فلن تكونَ المواجهةُ سهلةً ميسورة. تحسَّسَ الجيلاليُّ عنقَه وهو يجتاز عبر المياه والقصب ونقيق الضفادع كلَّ الحواجز التي نصبتها الشرطةُ والجيشُ بين حمريةَ الفيحاءَ والمدينة العتيقة المثخنة بجروح الحاضر، بانتصاراته وهزائمه.

كلابٌ ضالة تتهارش في ضوء أصفر يتقيؤه مصباح كهربائي محاط بخميلة داكنة. أشباح آدميين تمر سريعا في شوارع حمرية وساحاتها كما لو كانت اشباح خيال الظل، بعضها يترنح من شدة السكر، والآخر من شدة الألم، والآخر منهما معا. سيارات تقبع هنا وهناك أمام العمارات والخمارات تنتظر الذي يأتي ولا يأتي. وريح غربية تهب بين الفينة والأخرى عابثة بورق الجرائد واعقاب السجائر وأسمال النائمين في عراء الشارع سواء كانوا من أصل أوروبي أو مغربي. كان الله في عوني، أنا الذي أجدني فجأة ومن صدفة لأخرى أمام مسؤوليات لم أعدد لها حق الإعداد، وليس لي حق رفضه. كلفتني ماري بمهمة نبيلة سأبذل من أجل النجاح فيها كل ما في وسعي بما في ذلك حياتي إن اقتضى الحال. فأنا مدين بحياتي لماري، ومدين لهذه المدينة وأناسها الطيبين بالشئ الكثير. أحس في كل مرة أخلو فيها بنفسي بأن جسمي ودمي ولحمي وعظامي مثقلة بالشوق

الى الاتحاد بهذه الأرض والانصهار في طبيعتها الساحرة. بيننا قرابة سرية عميقة لاشك في ذلك. وفي كل الأحوال، ليست ماري أكثر مغربية مني ،ولا أسمح لنفسي أن أكون أقل سخاء، ولا أقل عطاء، في سبيل مستقبل أفضل للإنسانية منها أو من غيرها. أخلاق الواجب، وأخلاق الحق، وأخلاق الواقع والمنفعة، لم تعد ـ في منعطفات التاريخ الحاسمة ـ كافية للسمو بالإنسان وتقدمه والمحافظة على كرامته، فلا بد من أخلاق العطاء والهبة أيضا. لكن... وبالمناسبة... كيف سأتصرف مع الضابط وعصابته الإجرامية؟ هل أرفض مستعينا بماري وسوزان؟ وفي هذه الحالة سأضطر الى إذاعة سر الضابط وعصابته. ويلي... في أي مأزق حشرت. إذا لم يقتلني الضابط مراعاة لخاطر ابنته ،سيقتلني اصحابه مخافة أن يكتشف الرأي العام أمرهم. لقد أصبح بديهيا أن وجودي منذ الآن أصبح مقترنا بالعدم والتلاشي والموت والفناء...

الوجود والعدم... العدم والوجود... وجهان لشيء واحد يتعذر إدراكه دون أحدهما. وهذا أمر بديهي... بيد أن الجديد في الموضوع هو انني الآن مخير في أن اختار موتي وفنائي، بوعي مني، وبمحض إرادتي. لكن، عندما اختار الموت فأنا اختارفي الحقيقة حياة أرقى لا لذاتي فقط، بل للإنسانية جميعا. هكذا تضعني المرحلة في مهب الريح، في مخالب التناقض والمأساة والفجيعة... سأتحمل مسؤولياتي كاملة... سأعمل مع الضابط وعصابته، وسأكون عند حسن ظنهم بطريقتي الخاصة، وسأعمل الى جانب الوطنيين وماري... بل لقد بدأت العمل منذ الليلة ولن أتراجع أبدا. كان الله في عوني... لم يستفق الجيلالي من تفكيره وخيالاته وهذيانه إلا عندما وجد نفسه في باب الثكنة وقد أرسلت الشمس خيوطها الذهبية الأولى في سماء المدينة. وبينما هو يقدم أوراقه الى الجندي حارس الثكنة، وقفت سيارة سوزان على مقربة منه وانفتح بابها الأيمن الامامي، فتكلمت سوزان مع الجندي كلاما لم يفهمه غيرهما وهي تأمرالجيلالي بالركوب.

انطلقت السيارة داخل الثكنة بسرعة جنونية جعلت الحارس يرفع يديه احتجاجا وهو يغوص في دوامة غبار قاتم. ثم اختفت وراء أشجار السرو الكثيفة

التي طار منها سرب من الطير هلعا، مخترقا زرقة السماء عله يجد في أجوائها العليا أمنه. اجتازت السيارة الجسر الحديدي ووقفت بعنف أمام منزل سوزان التي لم تنبس في الطريق ببنت شفة.

ـــ من أنت؟ قل من أنت؟ صرخت سوزان في وجه الجيلالي وهي توقف محرك السيارة وتندفع من بابها صوب باب المنزل..

اندهش الجيلالي من تصرفات سوزان الغريبة، غير أنه دارى اندهاشه مازحا. وقال متصنعا لهجتها وهو يلاحقها مهرولا:

ـــ أنا الجني الأحمر خادم فانوس سيدة نساء العالم سوزان... شبيك... لبيك... اسألي ما يبدو لك... وأنا خادم بين يديك... وانحنى قليلا أمامها كما يفعل الجني في فيلم علاء الدين والمصباح السحري..

انفجرت ضاحكة رغم قلقها، فأمسك خصرها النحيف بين ذراعيه القويتين وجذبها إليه الى أن أحست بحرارة جسمه تلهب جسمها وتنتشر فيه تاركة وراءها حرائق مسعورة بالحب واللذة. فامتقع لونها وذبلت جفنتاها وسرى خذر عميق في كيانها واستسلمت لراحتيه كما لو كانت قطعة من حريرناعم. حملها على ذراعيه واجتاز بها بهو المنزل والصالون، واجتاز السلم الرخامي المؤدي الى غرفة النوم المطلة على الجسر الحديدي والنهر المنساب تحته انسياب نهر المحبة الذي كان يجري بين ضفتي جسدين منهمكين في صلاة لا حدود لها.

في ظلام غرفة النوم تحرك جسد سوزان ببطء وتثاقل. وانقشع الصمت عندما كررت سوزان طرح سؤالها السابق بكلام متثاقل من فرط العياء والتعب:

ـــ قل بربك... هل أنت مورينو الروخو... فعلا...

فأجابها الجيلالي مقلدا:

ـــ قولي بربك... هل أنت سوزان التي أحبها وأخلص لها وأتفانى في خدمتها؟

ـــ لا تراوغني... اجبني عن سؤالي وكفى... قالت سوزان محذرة...

ـــ الظاهر أنك جادة في سؤالك..!

قال الجيلالي بصوت خافت حزين.

ـــ نعم... أجابت سوزان مؤكدة... وأسألك لأنني قضيت هذه الليلة في المستشفى الى جانب الأعور الذي أخبرني بأن بيير جاكوب كان قبل موته قد أعد ملفا حول هويتك عندما أثار ظهورك المفاجئ في بيت ماري شكوكه بسبب عدم وجود أي أهل لك؛ فلا أمك معروفة ولا أبوك ولا إخوتك ولا أقاربك ولا أصدقاؤك... بل لا نجد من يعرفك قبل التحاقك ببيت الضابط...

ـــ وهل هذا مهم إلى هذا الحد ياسوزان.. أليس كلنا أبناء آدم وحواء.. وأنت بالضبط، ألا يكفيك محبتي وإخلاصي وبذلي الجهد في سبيل إسعادك؟

ـــ وحتى هذا الأمر ... لم أعد متأكدة من حقيقته بعد الذي سمعته هذه الليلة...

ـــ وماذا سمعت خلال هذه الليلة المنحوسة...

ـــ سمعت أنك تحب ماري، وأن ماري تحبك. وإذا لم تكن قد اجتمعت بك، فذلك يعود إلى انشغالها بالسياسة انشغالا لا يترك لها وقتا للانشغال بذاتها، كما يعود ذلك إلى عدم جرأتك...

ـــ ما هذا الذي تقولينه ياسوزان... أأنت واعية بما تقولينه... أجننت حتى تنطلي عليك حيلة الأعور ومكره... رباه... ظننتك امرأة عاقلة...

ـــ ألا يكفيك أنني أوجد في بيتك، وتحت فراشك، والى جانبك... ألا يكفيك ما سمعناه من كلام وإشاعات وخرافات حيكت حولنا وواجهناها معا... لماذا لا نواجه ماتبقى بنفس العزم والتصميم... ثم إنك تعرفين عني كل ما أعرفه عن نفسي... وأنا لا أعرف عن نفسي إلا ما أخبرني به الضابط تبعا لتقارير المخابرات العسكرية... ولذلك أرجوك ان تقلعي عن هذه الهلوسات والوساوس... فالأعور يكرهني لأسباب لا يد لي فيها... وهو يريد تدميري... فهل تريدين أنت أيضا تدميري...

ـــ حاشى معاذ الله... إنني أحبك... وأغار عليك... وهذا كل ما في الأمر...

ضمها إليه. واستسلما لغفوة قصيرة نهض الجيلالي على إثرها وقد افتكر موعده مع الضابط. جمع ملابسه من الغرفة وتفقد رسالة موسى التي كان قد أخفاها في جيب سري بمعطفه. وبعد أن استحم غادر سوزان مهرولا.

بقيت سوزان في ملابس نومها جالسة على حافة نافذة غرفة النوم ترقبه وهو يخرج من باب المنزل ويجتاز ساحة الحديقة الخضراء ويتوقف قليلا فوق الجسر متمليا بجمال مياه النهر. وعندما التفت رآها مستلقية على حافة النافذة وهواء الصباح العليل يعبث بخصلات شعرها وبأذيال ثوبها الابيض الناعم، فانحنى على وردة حمراء واقتلعها وقبلها وقذف بها بكل ماأوتي من قوة إلى سوزان، واختفى بين الاشجارالخضراء الباسقة...

كان الهواء منعشا. وكانت الهواجس والوساوس السوداء تنهال على نفس سوزان من كل جانب مقترنة بصدى حديث الاعور في المستشفى العسكري. وكانت مياه النهر صقيلة رقراقة تنساب بسهولة ويسر دون أن تبالي باي أحد. وكانت سوزان تقلب تفاصيل حديث الأعور وأجوبة الجيلالي المدعو بمورينو الروخو على تساؤلاتها الملحاحة، تقلبها على كل أوجهها المحتملة. فللغة أسرار لا يعي بها إلا هي. هي التي خبرت الزمان والناس وتعلمت أن اللغة هي الانسان وان اللغة قد تكشف الحجب عما يريد المتكلم حجبه، وقد تحجب ما يريد الانسان تبيانه والتصريح به... وانتبهت سوزان فجاة إلى حديث الأعور عن الملف الذي كان قد كونه بيير جاكوب عن مسألة هوية مورينوالروخو. وتذكرت أن الملف يوجد في بيتها، كانت قد تسلمته من مورينو الروخو بعد مقتل بيير جاكوب مباشرة. فهل اطلع مورينو على محتويات الملف. وهل هذا الملف هو الملف الذي تحدث عنه الأعور... ماالذي تنتظره... عليها أن تنط من النافذة لكي تبحث عنه وتستريح من هذه الهواجس الجارحة الممضة. عليها أن تقرأه حرفا حرفا وكلمة كلمة. فالموضوع خطير يتوقف عليه مستقبلها مع مورينو الروخو. وعندما فتحت دولاب فساتينها لتبحث في بعض أدراجه عن الملف، رأت وجهها في المرآة فتوقفت تتأمل تجاعيد خفيفة ظهرت في الآونة الأخيرة بين طرفي فمها ودقنها. تنهدت كمن يتخلص من هم ثقيل. وتحسست صدرها وخصرها وأردافها. واقتنعت أن جمال جسدها لا يزال رغم الزمن قادرا على كسب الرهان ولفت الأنظار لفترة مقبلة طويلة نسبيا.

بحثت في الأدراج درجا درجا، وجدت كل مجوهراتها، ووجدت الصندوق الصغيرالذي كانت قد وضعت فيه رموش مورينو الروخو، وابتسمت وهي تتذكر تلك الليلة الهوجاء، غير أنها لم تجد الملف. اغلقت الدولاب وذهبت الى مكتبتها

المحادي لغرفة النوم، وأخذت تبحث في ملفاتها وأوراقها بحثا منظما لم يثنها عن الاستمرار فيه إلا رنين الهاتف الذي فاجأها الى حد أنها ارتعدت فزعا. لم تكن تنتظر مكالمة من أي أحد... ثم إنها كانت مستغرقة كليا في البحث عن الملف... وضعت الملفات على الكرسي دفعة واحدة، ورفعت السماعة. كان المكلف بإدارة ضيعتها في سبع عيون على الطرف الآخر من الخط يستنجد بها لحل مشاكله مع العمال الفلاحيين الذين انخرطوا في النقابة وقرروا خوض إضراب لامحدود حتى الاستجابة لمطالبهم. لم تصدق أذنيها. النقابة؟ المشاكل؟ الاضراب؟ الاستجابة للمطالب؟ ماذا يقول هذا المعتوه... أيظن نفسه في فرنسا؟ إننا في المغرب ياسيد... والمغرب لا مشاكل فيه مادام العمل موجودا... الناس محتاجة الى العمل، الى الشغل. والنقابة لادور لها هنا، الفلاحون سعداء بأنهم وجدوا لدينا شغلا يكسبهم ما يقتاتون به، ويعتبروننا آباء وأمهات لهم، يقصدوننا في أعيادهم الدينية فنهدي لهم أكباشا في عيد الأضحى وألبسة لهم ولعيالهم في عيد الفطر،فيقبلون أيدينا ويدعون لنا شاكرين ممتنين. ليس بيننا وبين فلاحينا ومستخدمينا مشاكل... أتسمع... ولا نسمح بوساطات بيننا وبينهم كيفما كان شأنها... والنقابة مجرد مؤامرة شيوعية بلشفية ووطنية... سنكشف أمرها للناس قريبا. وإذا لم يرد فلاحونا استئناف العمل؛ فابحث عن غيرهم... العاطلون الجياع يعدون بالآلاف، يفطرون ب «الهندية» ويتعشون ب «النبق» ويتغدون ب «البقولة» أو بالشاي والخبز في أحسن الحالات... سيتدافعون أمام الضيعة بالمناكب كالعناكب... وإذا منع المضربون الكسالى إخوانهم هؤلاء عن العمل، فالجيش موجود للقيام بعمله... أتسمع؟ خرب الله دارك وعقلك. لا تسمعني صوتك بعد الآن إلا بعد أن ترجع المياه الى مجاريها. أفهمت أم أضطر الى استبدالك بأحد أفهم منك ؟

رجعت الى غرفة النوم مكفهرة غاضبة. ولبست سروال جين وقميصا من الساتان الأبيض ونظارات شمسية أنيقة.. وعندما فتحت الباب المطل على الحديقة ووطئت قدماها العشب الأخضر انتبهت الى أنها أغفلت لبس حذائها فرجعت إلى الحمام حيث اعتادت ترتيب أحذيتها المختلفة الألوان والأشكال. اختارت حذاء أزرق اللون.. لبسته وأطلقت رجليها للريح لا تلوي على شئ وهي تلعن هذا اليوم الذي لم يشرق عليها إلا بالشؤم والنحس وسوء الطالع.

اعتدل الضابط في جلسته عندما رأى الجيلالي قادما إليه بخطى واثقة، مطأطئ الرأس، مبديا استعداده للعمل. رحب به وهو ينظر إلى ساعة يده منوها باحترامه للوقت مفسرا أن احترام الوقت من الخصال التي بها يعرف الانسان الحديث ويميز عن غيره. وأمره بالجلوس على كرسي وثيرمن الجلد الاسود اللامع، ومد إليه يده بسيكار كوبي ضخم اعتذر عنه الجيلالي تأدبا.

تجشأ الضابط، وأخذ من السيكار المشتعل في فمه نفسا طويلا قبل أن يهتز صدره بسعال عنيف دمعت له عيناه... وأخرج من درج مكتبه قرص دواء شربه بجرعة ماء وهو يشكو من رداءة أحوال الطقس، وبرودته الشديدة في الليل. ثم انتقل إلى صلب الموضوع الذي من أجله استدعى الجيلالي للحضور.

كان الضابط يتكلم بهدوء قاطعا كلامه ــ بين الفينة والأخرى ــ برشفة من السيكار الكوبي مفسرا كلامه بحركات يده وملامح وجهه الملفوح بحرارة شمس جبال الأطلس. تكلم عن خطة متكاملة تلعب فيها الجمعيات اللاحكومية المؤيدة لاستمرار الحضور الفرنسي بالمغرب دورا فاعلا هدفهامن جهة أولى ردع الحركة الوطنية، التي ليست في نظره الا يدا للبلشفيك في المغرب، ومن جهة ثانية إثارة نظر الرأي العام الدولي إلى أن سكان المغرب مسلمين كانوا أويهودا أوفرنسيين متشبثون بالاستعمار الفرنسي ولا يريدون عنه بديلا، إذ لو لم يكن الاستعمار الفرنسي موجودا في المغرب ـــ على حد قول الجنرال جوان ـــ لظل المغاربة يقتاتون بالجراد كما كانوا قبل الحماية. تكلم عن مهمة فرنسا الحضارية التي القاها التاريخ بقوانينه الصارمة على عاتقها. فسر كيف أن كفاح

أنصار فرنسا الاستعمارية هو التعبير البشري العيني عن إرادة التاريخ العالمي وسيرورته الحتمية. استشهد على صحة أفكاره بأقوال الفلاسفة ورجال السياسة واستراتيجيي الجيش المشاهير. استشهد بالجنرال جوان مرات عديدة. وأردف قائلا بأن ثورة حقيقية ستنفجر قريبا في المغرب دفاعا عن الحرية والديمقراطية والأمن، وتعميقا للإصلاحات التي شهدها المغرب منذ حلول الحماية بربوعه. وفي هذه الأثناء كان الجيلالي يتفرس وجه الضابط الملفوح بحرارة الشمس، وجهه المتجعد بثقل السنين، وجهه الحامل لعلامات حروب مخضبة بالدم، مثقلة بالعار والإثم. رست نظراته على شفتي الضابط وهي تطلق الكلمات مدوية سريعة جارحة قاتلة. من أين لهذا الكائن الحربي هذه البلاغة القوية التي لا تضاهيها إلا بلاغة فوهات المدافع. لو لم يكن هذا الكائن الرهيب ضابط جيش استعماري لكان أستاذا جامعيا، أو لربما محاميا، أو نائبا برلمانيا.. لكن، يا للخسارة!! واكتشف الجيلالي في قرارة نفسه أنه لا يكره الضابط وإن كان يقر بأنه يكره تصوره للأشياء في وقت أثبت التاريخ ذاته أن هذا التصور لا يفضي في النهاية إلا الى الخراب والدمار الشاملين. وتعجب في قرارة نفسه من عجز عقول كبيرة في مثل عقل الضابط عن استيعاب درس الحرب العالمية الأخيرة. وأخذ ينقب في ذاكرته عن صاحب القولة الشهيرة «لو تناقضت البديهيات الرياضية مع مصالح البشر لحاولوا البرهنة على بطلانها بمختلف الوسائل والاساليب». كان الضابط يتكلم ويتكلم. وكان الجيلالي يتكلم هو الآخر. وكان الكلامان متساوقان متآنيان متزامنان. بيد أن للضابط كلاما مسموعا مجلجلا تهتز له الجدران أحيانا، في حين، كان كلام الجيلالي صامتا هامسا ينساب في دفء الأعماق السحيقة دون أن يسمعه أحد إلا هو. كلام يواجهه كلام آخر. ومع ذلك، لا حوار ممكن بين الرجلين !!

انتبه الضابط فجأة إلى شرود الجيلالي وانشغاله بتفحص المرآة واللوحة الزيتية النفيسة وصورة الجنرال جوان التي تهيمن من مكانها في الجدار ذي الصباغة الزيتية البيضاء على المكتب بكل مافيه. فنهض الضابط متوجها إلى المرآة ومشط

شعره بحركات نشيطة مرحة متمعنا في صورته متنهدا من الأسى على الشباب الذي راح ولن يعود. وأزاح المرآة قليلا جهة اليسار إلى أن ظهرت معالم صندوق مثبت داخل الجدار بإحكام شديد.

فتح الضابط الصندوق بحركات خفيفة وأخرج منه رزمة من الأوراق النقدية وناولها للجيلالي وهو يحدجه بنظرات ثابتة واثقة تشوبها فرحة غامضة. كان المبلغ ضخما لم يستلم الجيلالي نظيره طيلة حياته. فبدا على وجهه الاندهاش والارتباك والحيرة الى الحد الذي جعل الضابط ينبهه الى ان الأمر يتعلق بمبلغ بسيط فقط، وأن ما ستأتي به الأيام المقبلة أعظم بكثير. شكر الجيلالي الضابط بعد أن وقف لاستلام المبلغ وتمنى أن يكون في مستوى الثقة التي وضعها فيه وانتظر أن يكلفه بالمهام الواجب عليه تنفيذها. غير أن الضابط عاد إلى مكانه في هدوء يدخن سيكاره الكوبي منتشيا متلذذا بينما بقي الجيلالي واقفا ينتظر إلى أن دخلت كلارا بالقهوة وهي ترمق الجيلالي بنظرات ملغزة غامضة لم يألفها منها قط. وانصرفت مسرعة مطأطأة الرأس تماما.

تناول الرجلان القهوة معا، وهما واقفان، فوضع الضابط ذراعه حول عنق الجيلالي مسرا في أذنيه بأنه يريده أن يذهب الليلة إلى ضيعة مارسيل بضواحي المدينة دون أن يشعر به أحد مطلقا. وهناك سيجد جماعة من الفضلاء الذين سيساعدونه على فهم المهام الجليلة الجديدة التي عليه أن يقوم بها بتفان ونكران ذات. حدد له موعد اللقاء بدقة كبيرة: الساعة والمكان وكلمة السر والإشارة... وأوصاه بأن يتفانى في سبيل أن يكون في المستوى المطلوب. وقبل أن يفتح الجيلالي فمه للاستفسار عن مهمته الجديدة، كان الضابط يتخطى عتبة المكتب متوجها إلى الخارج بخطى وئيدة وهو يهمس:

ــــ أتمنى لك النجاح في مهمتك!

- 18 -

كانتْ عقاربُ الساعة تشير إلى الواحدة بعد الزوال، عندما اجتاز الجيلالي ساحة تجمُّع الجند الفسيحة التي يتوسطها عمودٌ ضخمٌ سامقٌ يرفرف على رأسه العلمُ الفرنسي. وعندما وصل إلى مابين «الشَّامْريّات» ذات القرميد القصديري، واجتاز الساحة التي كانت كلارا تنشر على أسلاكها الغسيل، تذكر الغرفة التي ظل بها محجوزا على ذمّة التحقيق شهورا طويلة ممضة. وتذكر لطفَ ماري وخادمتها... وتذكر مأساتَهُ الأليمة بسبب فقدانِ ذاكرته، وضياع تاريخه، وتبدُّد هويّته. وتساءل للمرّة الألفِ: كيف يحق لأمثال الضابط وجماعته أن تصنع للناس هويّات وتواريخ على مزاجها الخاص؟... لكنّه كان مقتنعاً تمام الاقتناع أنَّ اللومَ الأكبرَ يجب أن يكون من نصيب ذاكرته المثخنة بالثقوب والرضوض وضروب البياضات الراعفة النازفة. يُحِسُّ أحياناً أن ذاكرته تلهث تعبا من جراء ركضها السّيزيفيّ وراء ماضٍ لا زال رغم الضابط وصَحْبه المختصين في تقنيات المسخ ومسح الذاكرة، ثاوياً بين حناياه متغلغلاً في ثنايا نفسه وخلايا جسده، مختلطاً بوجيب قلبه ولفح أنفاسه. مرات عديدة، كان يحلم بدار الدبغ وهو في حضن سوزان الرحب الفسيح الثري بنيكتارالفردوس المفقود، كان يحلم بدروب مرصفة بحجر أملس تتلوى بين دور بيضاء متوهجة في ألق الشمس، بسقايات من النحاس الأحمر تنهمر مياهها اللجينية وسط مهرجان من الزليج الملون والرخام البارد آناء الليل وأطراف النهار... وأحيانا كان يحلم بامرأة ذات وشم غائر في الجبهة بين العينين وهي تناديه: «تعالى... يا... بنيّ!!». رسم الوشم ذات مرة وبحث لدى العارفين عن الجماعات التي تتداوله قصد تمييز ذاتها الجماعية عن

الآخرين، فوجد أن الوشم متداول في الأطلس المتوسط لدى قبيلة گروان. أيكون گرواني الأصل؟

كان غارقاً في بحران خيالاته وافكاره عندما اعترضت طريقه كلارا آخذةً إياه من يده، دافعةً إياه برفق للدخول إلى غرفتها. ومرة أخرى وجد نفسه وجهاً لوجه معها. سألته عما يريد الضابط منه فلم يجب. فأخبرته بما سمعته خلسة في المنزل من ان وقائع رهيبة قد تحدث في البلد، وبثته شكوكها في أن الضابط يريد تجنيده بالمال في سبيل أعمال ليست نظيفة قد تودي بحياته، وأجهشت بالبكاء معبرة عن خوفها من فقدانه. وعندما سألها عن سبب خوفها البالغ عليه، أجابت بجرأة ودون تردد بانه زوجها على سنة الله ورسوله. فكيف لا تخاف عليه؟ ولا تغار من غيرها عليه؟

ظن الجيلالي أن المرأة تمازحه، فابتسم متهكما وفتح فمه ليقول شيئا ما غير أن كلارا وضعت أناملها على فمه برفق راجية منه أن يصغي إليها. فقد صبرت طويلا. وانتظرت الفرصة السانحة للبوح بما تعرفه. وبما أن المرحلة دقيقة، ومن الممكن جدا أن تفرق بينهما إلى الأبد، فليس لديها ما تخسره إذا ما باحت له بحقيقة ما تعرفه عنه. وبهذا تكون قد استراحت من عبء سر ظلت تحمله منذ أن سمعت بوجوده في المستشفى العسكري، ومنذ أن التقته على يد ماري وهو قيد الاستنطاق والتحقيق قبل أن تجمع بينهما الظروف في بيت الضابط. طلبت منه ألا يقاطعها مرة أخرى إذ الوقت ضيق لا يسمح لهما بالمناقشة واللجاج والعتاب المتبادل. وعليه بعد سماع ما عندها أن يحدد مواقفه بوضوح منها ومن ماري وسوزان والضابط وفرنسا والبلد والوطنيين...

وتابعت حديثها وهي تذرع الغرفة ذهابا وإيابا قائلة بان اسمها ليس كلارا، اسمها الحقيقي طامو، طامو بنت عبدالله الغرباوي، من بني حسن. أمها ماتت وهي تلدها وأن داء للكوليرا انتشر في قبيلتها فهرب بها أبوها وهي لا تزال طفلة إلى فاس حيث سكنا في دار هجرتها عائلة فاسية الى الدار البيضاء. عمل أبوها في البناء إلى أن مات في حادثة شغل، فبقيت وحيدة وهي في مقتبل العمر.

اشتغلت لمدة سنة مع النكافة زليخة التي عاملتها كابنتها. حضرت معها عددا من أعراس علية المدينة فاطلعت على جزر الغنى الفاحش التي تسبح في مدينة كلها فقر. فنقمت عليهم وعلى أسيادهم الفرنسيين. وفي أيام الأسبوع ماعدا يوم الجمعة، كانت تعمل دلالة في الجوطية قرب مولاي ادريس، وكانت أحيانا تختلس السمع إلى النقاشات العلمية والسياسية التي كان طلبة القرويين وتجار القيسارية يخوضونها أمام الدكاكين. لم تكن تفهم كل ما كانت تسمعه. بيد أن ما فهمته كان كافيا ـــ في ضوء تجربتها في الحياة ـــ لأن يجعلها تحترمهم وتشاطرهم الإيمان بفكرة الوطن و الدولة الوطنية المستقلة. وبقيت على هذه الحال ردحا من الوقت الى أن وجدت نفسها تنخرط معهم في نقاشات أدت بها الى الانخراط في خلية الحزب. وهناك. سمعت عنك وعن حركيتك وحماسك... سمعت عنك ولم أرك إلا مرة واحدة عندما أشرف الزعيم على تجمع حاشد نظمه الحزب. وفي المناقشة عبرت أنت عن رأيك الشاجب للاستعمار الفرنسي، وعن تأييدك للمطالبة بالاستقلال، وعن إعجابك بألمانيا التي أذاقت فرنسا الاستعمارية الأمرين. ولاحظت كيف أن حجج الزعيم لم تكن كافية لثنيك عن فكرة التحالف مع ألمانيا رغم كونها كانت تمنى بهزائم نكراء في عموم أوروبا والعالم. لم أكن أشاطرك الرأي غير أنني أعجبت بشخصك وبشجاعتك واسلوبك في الحديث والدفاع عن رأيك. ومن يومها وأنا أتابع أخبارك إلى أن علمت ذات صباح بأنك نظمت تمردا في « دوار الرجا في الله » على السلطات الاستعمارية، وبأنك تحاول أن تترجم قناعاتك إلى عمل ملموس. نقاشات عديدة جرت داخل الحزب وخارجه بعضها تؤيدك جزئيا، وأغلبها تخالفك الرأي .بيد أنها تجمع على وطنيتك التي لا غبار عليها. لم أشعر بنفسي إلا وأنا إلى جانبك في « دوار الرجا في الله ». وأثناء الإعداد للمواجهة الحاسمة مع جهاز القمع الاستعماري حدث أن دخلت علي خطأ ودون قصد وأنا في حالة تغري بالجماع، فكان الذي كان. وعندما خرجت من الكوخ ناديت على الفقيه وجماعة من الناس وأشهدتهم بزواجك الفوري مني، من طامو بنت عبدالله الغرباوي، فأعلن الفقيه زواجنا على سنة الله ورسوله. وعندما انتهت المواجهة المسلحة، وكنا قد جرحنا أنت وأنا جروحا بليغة، تعرفت

عليك وأنت بين الحياة والموت. علمت بعدها أن الجند قد أخذوك الى المستشفى العسكري بعدما نشرت الصحف خبر موتك. ولما كنت أنا أيضا قد حملت للمعالجة في المستشفى نفسه، فقد حاولت البحث عنك بدون جدوى إلى أن علمت من ماري بعد انتقالي إلى خدمة آل الضابط بوجودك، وعندما رأيتك للمرة الأولى عرفتك وأخفيت السر عن الجميع: عنك وعن ماري والضابط وسوزان وبيير جاكوب الذي كان من الممكن ان يشتري مني السر بالذهب لو لم أكن حريصة على حياتك حرصي على حياتي أيضا. هذه قصتي معك ياالسي الجيلالي بن الطيب... نعم... لا تعجب... هذا هو اسمك الحقيقي... وأنت مغربي مثلي تماما... ولا أخال خرافة الموريسكي قد انطلت عليك... وإذا أردت أدلة على صحة ما أقوله فبإمكاني تزويدك بها في الوقت المناسب.

لم يكن الجيلالي محتاجا إلى دليل على صحة ماقالته. يكفيه صدق نبرتها، وتصديق قلبه لكل حرف نطقت به. ألم يشتبه في أمرها منذ اليوم الأول الذي زارته فيه في زنزانة التحقيق موفدة من ماري. ألم يحدثه قلبه بأنه يعرفها منذ زمان رغم بياض ذاكرته. تالله ليصدقن كل كلمة نطقت بها في حقه. كل كلمة... هي قبل كل شيء... خشبة نجاة يجب أن يتعلق بها علها تخرجه من بحر الضياع إلى بر الأمان والسكينة. ومع ذلك كله، تظاهر أمامها برفض كل ما روته، مؤكدا على أنها تختلق الأحاديث والروايات. وهرع إلى الباب مسرعا خارجا من الغرفة غير عابئ بزوبعة البكاء التي اهتز من عنفها صدر كلارا أو طامو، لافرق. وما إن فتح الباب حتى وقعت عينه على ماري وهي منشغلة بسقي حوض من القرنفل والورد الأحمر. فقصدها مسرعا. وأسر في أذنها كلاما. كانت كلارا ترمقهما بغضب من فتحة الباب. تركت ماري مابيدها وتبعت الجيلالي إلى مكتبها وهي في عجلة من أمرها. «أيكونا... قد اتفقا على...» قالت طامو (أو كلارا لايهم) في نفسها، وتخيلتهما في وضع العشيقين الولهانين اللذين يتوهج جسداهما العاريان بنور الموقد ذي النار الراقصة. وفي خيالها دبرت انقلابا على ماري جعلها تحل محلها في مهرجان العشق واللذة. أغلقت الباب بعنف وألقت بنفسها على سريرها واستسلمت لبكاء عنيف تقرحت منه جفونها الذابلة.

- 19 -

استلمت ماري الرسالة من الجيلالي متلهفة لمعرفة مضمونها. وبينما كانت منشغلة بفض الرسالة بواسطة مدية صغيرة مفضضة، كان الجيلالي يتأمل جدران المكتب وهو يستعيد في نفسه كلمات طامو النارية، كلماتها التي لا زالت ترتعش في أعماقه السحيقة حية نابضة بالصدق والأمل، كلماتها التي نزلت على قلبه كاوية كحمم النار؟، منعشة كزخات الثلج. ووقف فجأة يستعيد محموما ـــ وماري تقرأ الرسالةـــ بعض كلمات طامو المدوية في غياهب أعماقه: «أنت مغربي... ولدت على يدي ويد ماري من جديد بعد أن تيقنت السلطات الاستعمارية أنها شوهت خلقتك، ومحت ذاكرتك، وقتلتك إلى الأبد. لقد ولدناك من جديد آسي الجيلالي، ماري الفرنسية التي تكره الاستعمار وتهيم عشقا بالحرية وكرامة الانسان، وأنا، أنا المغربية التي غلبت ذاكرتها ـــ رغم عذابات الجسد والروح ـــ كل عوامل المسخ والدمار والموت. ومن الآن فصاعدا أنا ذاكرتك الى ان تخرج سالما من خراب التيه وصحراء النسيان الممتدة إلى حدود لا تدركها العين. أما ماري فهي مصدر المعرفة بما عليك ان تتذكره في الحاضر لتواجه مشاكل الحال والمآل. إننا معا نحبك... أتدري... وعندما أراك قريبا منهاـــ رغم احترامي لها ـــ أشعر بالغيرة، أما عندما أراك مع سوزان... يتملكني السعار. أتدري ما السعار؟».

أحس الجيلالي برهبة وهو يتيقن من جديد بأنه قد تخطى عتبة مرحلة جديدة من حياته. وأصر على ألا ينسى الماضي وعلى أن يستعيده لا ليعيش فيه بل ليعيش به. كانت ماري قد فتحت المذياع الموجود على شمالها قرب النافذة،

فوق طاولة من الأكاجو اللامع المنقوش بالأرابيسك. وكان الجيلالي يتأمل ديكور المكتب البديع الذي ينم عن ذوق رفيع وهو يفكر في الآن نفسه في مأساته وعذاباته: مع الذات، والمرأة، والوطن، والماضي والحاضر والمستقبل.

ـــ حسنا... قالت ماري وهي تودع الرسالة في غلافها وتضعها في درج مكتبها... حسنا ما فعلت... سندرس محتوى الرسالة في الاجتماع القادم لنحدد التدابير الملموسة لمواجهة أعداء الصداقة المغربية الفرنسية. أما الآن فسأحرر مقالا أفضح فيه المآمرة الكبرى التي يحيكها جوان وخادمه الگلاوي وأنصارهما. وسيخرج غدا في جريدتنا. وعلى كل حال فأنا سعيدة بانضمامك الفعلي إلى مجموعتنا. مارأيك في موسى؟

ـــ رأيي؟!... أفضل أن أتحدث عن انطباعي... وتلعثم الجيلالي في الجواب عن سؤال مباغت لم يكن ينتظره...

ضحكت ماري مازحة وهي تربت على كتفه، وأردفت قائلة: ـــ إنني أعرف رأيك وانطباعك وإحساسك من هيئتك وواقع حالك رغم حذرك الذي يكاد يكون فطريا فيك. وفي كل الأحوال لست في حاجة إلى تنبيهك إلى ضرورة عدم إفشاء السر... أراد الجيلالي أن يبوح لها بسر المهمة الخطيرة التي كلفه بها أبوها قبل أن تغادر المكتب، فتح فمه للكلام، غير أنه شعر بصدرها الناعم يلامس صدره برفق وبشعرها يلتصق بخده ناثرا وراءه عطرا زكيا بلبله وملأ كيانه، وسمعها تهمس في أذنه بصوتها العذب: ـــ «شكرا» !!... وتقدمت نحو الباب ففتحته فإذا بطامو منحنية تسترق السمع.

رفعت طامو رأسها معلنة أسفها. وضربت ماري كفا بكف معبرة عن استغرابها وحيرتها. أما الجيلالي فقد فغر فاه من شدة الاندهاش والتعجب. وتذكر في هذه اللحظة بالذات الأعور وأفعاله متسائلا عما إذا كانت العدوى قد انتقلت فجأة من الأعور إلى طامو. لكنه سرعان ما طرد الفكرة مستحضرا كل ما يعرفه عن طامو.

انصرفت ماري مهرولة بعد أن أوصت طامو بعدم تكرار هذا السلوك من جديد منبهة إياها إلى أنها تثق بها، وتثق في رجاحة عقلها، وأنها تدرك أن أسبابا

ما دفعتها إلى استراق السمع وراء الباب، وطلبت منها أن تفسر لها تلك الأسباب حالما تعود إلى البيت.

كانت طامو تتابع كلام ماري بحركات رأسها وهي تتصبب عرقا من شدة الحياء والخجل. وتمنت في هذه اللحظة أن تبتلعها الأرض أو تنمحي صورتها من الوجود كما تنمحي الصور المرسومة على ورقة بيضاء مبللة بمحلول كيماوي سحري. تعالت أنفاسها، واصفر وجهها، وأجهشت بالبكاء في فضاء صامت بارد موحش لا يخفف من وحشيته الآثمة إلا نظرات الجيلالي الحنونة الرحيمة المتسامحة التي ظلت تهمس لها بأن الكل من آدم وآدم من تراب!

—

- 20 -

وصل الجيلالي إلى ضيعة مارسيل على متن سيارة جيب عسكرية يسوقها ضابط صف من المارتينيك لم يكف طيلة الرحلة عن بث شكواه للجيلالي من بعده عن أهله، وحنينه الجارف إلى ابنته التي تركها في السنة الاولى من عمرها في حضن زوجته التي قررت أن تطلقه وتتزوج تاجر سمك بعد أن أمضها انتظار عودته.

لم تكن الضيعة بعيدة عن المدينة.. كانت تقع في «الحاج قدور»، وتمتد على مساحة واسعة جدا لم يتمكن الجيلالي من تقديرها. ولم تكن تبتعد عن المطار العسكري إلا ببضعة كلمترات. وكانت مطوقة بسياجين أحدهما من الأسلاك الشائكة والآخر من أشجار الصفصاف والزيتون الملتفة التفافا يتعذر على من بالخارج أن يتبين ما يجري داخل الضيعة.

طرق الجيلالي باب الضيعة الحديدي بكف حديدية ضخمة مثبتة في وسط الباب. أجال طرفه فيما حوله فلم ير إلا امتدادا للأرض المحروثة في فضاء ساكن صامت جامد تؤثثه سماء متوهجة بألوان شمس حمراء كبيرة تتدحرج وراء التلال مودعة غاربة. طرق الباب مرة أخرى بعنف هذه المرة. ولم ينتبه إلى سرب من الكلاب الضالة وهي تتهارش قربه، ولا إلى الخطاطيف السوداء المقدسة وهي تخترق صفو الفضاء بأسراب منظمة تنظيما هندسيا بديعا. طرق الباب مرة ثالثة حتى كلت يده، فنادى ساخرا مازحا:

ـــ افتح الباب ياسمسم!!.

انفتح الباب على مصراعيه محدثا صريرا هائلا مرعبا. وظهر وراءه عبد سينغاليٌّ ذو وجه منتفخ تمتلئ خداه بالأخاديد، وقامة فارعة بعمالقة لاتشوهها إلا كرش مترهلة تتدلى تحت الحزام، وصوت كورالي يذكر بعمالقة الزمان الغابر.

ـــ . من أنت ياهذا؟ أزعجت راحتنا بطرقك المتواتر...

ـــ. عفوا إذا كنت قد تسببت في أي إزعاج لك أو لغيرك. لم يكن هذا قصدي...

ـــ قبلنا اعتذارك... هل تريد صدقة أنت الآخر؟

أخرج الجيلالي ورقة من جيب معطفه وقبل أن تمتد يده بها إلى العبد، قال العبد:

ـــ اذهب إلى حال سبيلك، سبقك إخوانك وأخذوا كل ما لدينا من الصدقات.

وهمَّ بإغلاق الباب في وجه الجيلالي الذي أسرع إلى عرقلة حركة الباب برجله اليمنى آمرا العبد بضرورة سماعه وتنفيذ مطالبه فورا مهددا إياه بأوخم العواقب في حالة عدم امتثاله.

أخذ العبد الورقة من الجيلالي وأغلق الباب وراءه وغاب. تعجب الجيلالي من سلوك هذا العبد المنحوس الذي يلعب معه دور السيد. وتعجب أكثر من قدرة هؤلاء المعمِّرين على مسخ شخصية البشر مسخا تاما. كانت الشمس قد غابت تماما وراء التلال البعيدة. وكان رهط من الفلاحين عائدا من الحقول إلى الأكواخ المتناثرة هنا وهناك بجاور ضيعة مارسيل. وكان أحدهم يغني بأعلى صوته:

راح الليل
وشعلت نجومه

مسح الجيلالي جبهته وكأنه يطرد منها سحابة هم ثقيل. وسمع صرير الباب من جديد فتأهب لمجابهة سلوك العبد الغريب، غير أنه وجد نفسه بعدما انفتح الباب وجها لوجه مع مارسيل.

ـــ أهلا وسهلا بمورينو الروخو!! تفضلْ تفضلْ...!! شرفت ضيعتنا... كيف تركت ضابطنا العزيز ؟.

ـــ شكرا لك سيدي على حسن استقبالك لي. وإن الضابط [illegible]

نادى مارسيل العبد وأمره بان يحمل حقيبة الجيلالي وان يخدمه ليلا ونهارا طيلة مكوثه في الضيعة. فانحنى العبد على الحقيبة يحملها وهو يشير بحركات راسه علامة على السمع والطاعة. وهرول الى بيت الضيافة عبر ممر طويل جانبي مرصص بالحجر المنحوت الشبيه بالمرمر.

اجتاز الجيلالي صحبة مارسيل الطريق المعبدة الواسعة المؤدية إلى البيت الفاخر الذي يذكِّرُ الناظرَ بقصور سادة القرون الوسطى في أوروبا. وكان مارسيل يقدم للجيلالي طيلة الطريق أجزاء الضيعة تقديما مشفوعا بالبيانات الفلاحية والإحصائية الضافية على نحو استنتج الجيلالي منه ان هذه الضيعة مكونة في الحقيقة من ضيعات عديدة. وعندما لاحظ مارسيل إعجاب الجيلالي بنظام الضيعة ونافوراتها وزهورها وورودها وسواقيها المترقرقة صيفا وشتاء ومنتجاتها الغريبة المنتمية إلى مدارات مختلفة، أكد له أن ذلك كله موجود بفضل الوجود الفرنسي بهذا البلد، وأنه قبل الوجود الفرنسي كانت هذه الأرض مجرد أرض خلاء لا مالك لها، أرض مهملة، لا يستغلها الأهالي إلا للرعي. كان مارسيل يعرض آراءه بلهجة فيها الكثير من الوثوق والاعتداد بالنفس، وكان الجيلالي يتأمله أحيانا محاولا تحديد شخصيته. لم يكن مارسيل من أولئك المعمرين المغفلين الذين لا يهمهم في هذه الدنيا إلا السلطة والمال، بل كان رجلا ذكيا واسع الاطلاع على مختلف العلوم والمعارف، مرهف الحس، يتذوق الفنون والآداب، وعلى قدر كبير من المعرفة بالعربية وآدابها وبشؤون المغرب ودوله وحضارته. كان عملاقا رغم نحافته وقصر قامته ومشيته المعوجة قليلا إلى اليمين، و«مونوكله» الصغير المثبت دوما على عينيه، وساعة الجيب الفضية التي تتدلى سلسلتها على صدره إلى غاية حزامه، وشاربيه المفتولين إلى الأعلى. ولم يصل الرجلان الى البيت حتى كان الجيلالي قد أدرك أنه يجب أن يحترز لنفسه، وأن يحذر ما وسعه الحذر.

بعد أن استحم الجيلالي واستراح في غرفة إقامته المجهزة بأفخر الأثاث وأجمله، أتى العبد مخبرا إياه بان السيد مارسيل يدعوه للنزول إلى الصالون

قصد الاجتماع بالأصحاب وتناول العشاء. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا عندما نزل الجيلالي إلى الصالون رابط الجاش رغم توتر أعصابه.

كان الصالون فسيحا استعان صاحبه على تأثيثه وتزويقه بالخبرتين الأوروبية والمغربية. وقبل أن يكمل الجيلالي ملاحظة ما في الصالون كان مارسيل قد أخذه من يده مقدما إياه إلى المدعوين الآخرين الذين شدوا على يده بحرارة وكأنهم يعرفونه منذ أمد بعيد.

شُبّانٌ في مقتبل العمر، ذوو قامات رياضيّة قويّة مفتولة، تنِمُّ نظراتُهم على الكياسة والذكاء، تفيض حركاتهم بالحيوية. وكل أحوالهم من لباس وحلاقة ولغة وإشارات وطريقة في الأكل تشير إلى أنهم ينتمون إلى طبقات ميسورة غنية. كلهم كانوا يحبون الحياة ويهيمون بها ويرون أنها لا يجب أن تكون فاكهة للضعفاء من البشر بل للأقوياء فقط. كان الحديث مسترسلا يجمع فيما بينهم بألف خيط وخيط. وكان الشراب في هذه الليلة وفيرا ينبع من «تولال» و«كروان» صافيا لذيذا يشفي آلام النفس وهمومها ولو إلى حين. وكانت الخرفان المشويّة على الطريقة البربرية، وكانت الموسيقى والرقص مع فتيات متخصصات من مختلف الأعراق والجنسيات. وفي هذه الشؤون كلها كان الجيلالي فارسا لا يشق له غبار، يشد إليه انتباه كل الحاضرين، يثنون على مهاراته التي لا تضاهى ثناء يشفي جروح نفسه العميقة الغائرة فيشعر بالرضى على ذاته والثقة بها. وفي الصباح، كان الكل مرتميا في أرجاء البيت مخمورا مهدودا، وكان البعض عاريا من ثيابه تماما يلتمس الدفء في أحضان النسوة اللواتي لم يعشن طيلة حياتهن المليئة بالسهر ليلة ملتهبة مسعورة كهاته الليلة. مارسيل وعبده وحدهما لم يشاركا مشاركة فعلية في هذا المهرجان الباخوسي. ربما لأنهما مطمئنان على حياتهما، لا يشمان رائحة الموت وهي تفوح من مسافات لا تزيدها الأيام المتواترة المنصرمة الآبقة إلا قربا وقوة.

استفاق الجميع بعد برهة من الزمن، وتناول كل واحد فطوره في الحديقة. كانت الموسيقى تصدح في كل مكان. وكان الصباح مشرقا منعشا للبدن والروح،

تداعب نسيماته أغصان «أم السوالف» وخصلات شعر النسوة المتهجات بما عشنه طيلة الليلة.

ودعت النسوة الحاضرين وركبن شاحنة عسكرية أقلتهن إلى المدينة. واتجه الشباب إلى إنجاز المهمة التي حضروا إلى ضيعة مارسيل من أجلها.

ـــ وماهي هذه المهمة؟

سأل الجيلالي أحدهم...

لم يتلق الجيلالي الجواب من الشخص المسؤول، بل تلقاه من الميدان الفسيح الذي أقبل عليه جمع الحاضرين بعد اختراقهم خميلة «أم السوالف». كان ميدانا شاسع الأطراف معدا للتداريب العسكرية، مليئا بالآلات والمعدات: سلالم من حبال وأخرى من خشب لتسلق المرتفعات واقتحام الحصون، أسلاك شائكة ممتدة على ارتفاع نصف متر تقريبا من التراب للزحف على البطن باستعمال المرفقين، حواجز خشبية متفاوتة الارتفاع للنط والقفز، أعمدة خشبية ضخمة مثبتة في الهواء يجتازها الجنود جريا من جانب إلى آخر، أماكن معدة للجري وللتمارين الرياضية العسكرية، وأخرى لتعلم فنون الحرب كاستعمال السلاح الأبيض وأعضاء البدن، والرمي بالأسلحة النارية الخفيفة...

وجد الشباب جماعة من المدربين العسكريين في استقبالهم .نادوا على كل واحد باسمه ورقمه. وكان رقم الجيلالي هو 910 الذي سيصبح في يوم من الأيام اسما دالا عليه بعد تحريف نطقه من طرف «الكوم» المغاربة الذين سينادونه ب «صاناف». وهكذا أصبح الجيلالي ثلاثي التسمية: فهو عند عامة معارفه مورينو الروخو، وعند «الكوم» صاناف، وعند طامو الجيلالي بن الطيب.

وبعد ارتداء ملابس الميدان، توزع الشباب إلى فرق صغيرة، وانهمكوا في التداريب طيلة اليوم. كانت التداريب قاسية مضنية، لا يتحمل أهوالها إلا شديدو البأس والقوة والجلد. رأى الجيلالي دمه ينزف من أعضاء جسمه مرات عديدة، رأى شبابا يبكي بحرقة، وآخرين يدارون دموعهم ويتجلدون، وآخرين يتضرعون للمدربين طالبين إعفاءهم من هذا العذاب اليومي فيزج بهم في سجن

داخل الضيعة يلاقون فيه أقسى الإهانات فيصبح التمرين العسكري أهون شرا وأخف وقعا على النفس والجسد معا.

مضت أيام عديدة تلقى فيها الجيلالي وصحبه تدريبا عسكريا مكثفا أظهر فيه الجيلالي مزايا عسكرية جعلت مدربيه يثنون عليه ثناء حسنا، ويعجبون بذكائه، وحسن تطبيقه للتعليمات، وبراعته في المبادرة عند اللزوم، وضبط ذاته ضبطا محكما، ودقته في الرماية بمختلف الأسلحة الخفيفة سواء تعلق الأمر بالمسدسات أو الرشاشات أو البنادق أو القنابل اليدوية أو السكاكين والنبال والرماح إلخ...

وفي إحدى الصباحات الباردة، اصطف الشباب المتدرب في الميدان كالعادة. فلم يحضر المدربون في الوقت على غير عادتهم بل حضر بدلهم مارسيل مرفوقا بضابطين ساميين أحدهما من المخابرات والآخر من شؤون المراقبة المدنية الجهوية. وبعد أداء التحية العسكرية، ألقى ضابط المخابرات خطابا بليغا مؤثرا مجد فيه فرنسا الاستعمارية، معددا تضحياتها في سبيل نشر الحضارة في العالم، والدفاع عن الحرية ضد الأنظمة الأهلية الاستبدادية المعادية للإصلاحات كما هو حاصل في المغرب حيث تم رفض الاصلاحات القاضية بتأسيس جماعات بلدية على أسس عصرية... وختم ضابط المخابرات خطبته العصماء بالثناء على الشباب الحاضر في هذا التمرين مخبرا إياهم بأن الجنرال جوان أطلق عليهم إسما يشرفهم هو «كتيبة الحرية»، لأن مهمة هذه الكتيبة تكمن في التدخل غير الرسمي لاستتباب الأمن، بوضع حد لحياة المحرضين على الاضرابات وحركات العصيان المدني في البلاد... كان الضابط يتكلم فتتحرك شفتاه داخل كتلة الشعر الكثيف الذي اختلطت فيه اللحية بالشاربين. وكان الجيلالي يراقبه بعينين جامدتين ضاغطا على قبضتيه ضغطا انتفخت به شرايينه وتعالى وجيب قلبه فأصبحت دقاته تختلط في أذن الجيلالي بدقات الساعة الكبيرة المثبتة في صومعة صغيرة تطل على الميدان، وبصرير الناعورة التي لم تتوقف يوما عن سقي الحقول المترامية على مرمى العين منذ مائة عام... ومن يدري... فلربما منذ ألف ألف عام!!

- 21 -

أثار اختفاءُ الجيلاليّ فجأةً من بيت الضّابط تساؤلات واستفسارات وشروحا وتبريرات مشوبة بالاستغراب والحيرة. بكتْ طامو بحرقة ظانّة أنّه الفراق الأخير. وساورها الخوف على نفسها من الضّابط وجماعته. وفزعت ماري من احتمال أن يكون ابوها قد زَجَّ بالجيلالي في مؤامراتِ المعمِّرين وحبائلهم الخطرة. وغضبت سوزان غضبا شديدا لأن الجيلالي اختفى دونما استئذان في وقت حرج من حياتها. كانت تشعر بالحاجة إليه نهارا لتدبير الإضراب الذي لا يزال يطوق ضيعتها، وليلا لاقتباس جذوة من سعير جسده الشبقي. أما الأعور، فما إنْ رجع من المستشفى وعلم بالخبر حتى استعاد حيويته وتيقن أن الزمن يجري الآن لصالحه وأن المجال اصبح فسيحا لبزوغ نجمه في سماء آل الضابط وأن الطريق المؤدية إلى قلب كلارا اصبحت معبدة خالية من الأشواك... ومن المنافسة. وفي هذه الحالة فقط، سمح الأعْورُ لنفسه بأن يخنق فضول الجاسوس الذي يقبع داخله متربصا بالأشياء والناس. وعندما كان يسأله السائلون عن خفايا القضية، كان يكتفي بإغلاق عينه المدورة الكبيرة السوداء التي يشوب بياضَها احمرارٌ شبيهٌ باحمرار الغروب. وعندما كانوا يلحون عليه في السؤال كان يهمس: «لست أدري!» وينصرف مهرولا إلى حال سبيله. اما الضابط فلم يثنه عن اتهام «الإرهابيين» باختطاف مورينو الروخو إلا زوجته التي حذرته من تسرب أقواله إلى الصحافة التي ستضفي على الاختفاء أبعاداً خطيرة لن تكون في صالح أحد. فاكتفى عندئذ بالقول بأنه أرسل مورينو إلى فرنسا لينوب عنه في إنجاز أعمال لم تسمح له الظروف الاستثنائية التي يمر بها المغرب بالسفر للقيام بها بنفسه.

لم يكن الجيلالي غافلا عما ينتظره من استفسارات ولوم وتثريب وأسئلة محرجة. ولذلك أعد طيلة رحلة العودة جوابا لكل سؤال محتمل. وعندما سأله سائق سيارة «الجيب» المارتينيكي الأصل عن صمته الجنائزي الثقيل، اكتفى الجيلالي بالقول متنهدا: إنه الزمن... وما أدراك ما الزمن ياصديقي! وانشغل عن السائق والطريق والحقول والرعاة بترديد أغنية: أنا حبة رمل صغيرة...». كان الحزن يقطر من نبرات صوته، وكانت الشمس تتقطر وراء صوامع المدينة وعماراتها وهجا ورديا. وكانت السيارة تطوي الأرض طيا غير آبهة بامتلاء الطريق بقطعان الماشية، وشاحنات الجيش... وكأنها تحاول اختراق حدود الزمان هاربة من همومه الثقيلة. وكانت كلمات طامو تتردد كالصدى في أعماقه ثقيلة موجعة راعفة...

سيارات وعلامات مرور وشوارع وأزقة ودكاكين متلألئة وأناس بأزياء أوروبية ومغربية تقليدية وخطاطيف تداعب تيارات الهواء متحدية عنف اللحظة الراهنة، سابحة فوق قمم العمارات والاشجار الشامخة. يسقط بعضها على الارض فيلتقطه المارة ويقذفونه في الهواء فيطير الى ما لا نهاية. «أنا حبة رمل صغيرة...»، دندن الجيلالي في سره مداريا بذلك همومه. ولم ينقطع عن الدندنة إلا عندما اكتشف الوحدة الصميمية التي تجمعه منذ البدء بهذه الخطاطيف الى الحد الذي اقتنع معه أنها ليست إلا تجسيدا مصغرا لمسار حياته كلها.

اجتازت السيارة باب الشكنة، واجتازت الساحة الكبيرة و«الشاميريات» الطويلة ذات السقوف الاردوازية الرابضة بهدوء تحت أشجار الصفصاف والسرو، ووصلت إلى دار الضابط الفخمة الشامخة.

هناك... فوق عتبة الباب... وجد الجيلالي الضابط ينتظره بفارغ الصبر... وبعد أن أدى السائق والجيلالي مراسيم السلام على الضابط كل بطريقته الخاصة، انصرف السائق إلى سيارته مغادرا المكان في هدوء لا يعكره إلا أزيز المحرك. ودخل الضابط و الجيلالي معا إلى الحديقة.

كانت الحديقة مزهرة أكثر من المعتاد. وكان اللقلاقان قد عادا إلى عشهما يتأملان العالم بكبرياء وهما واقفان على رجل واحدة. اختفى الأزيز وران على

الحديقة صمت ثقيل. تهالك الضابط على كرسي بلاستيكي ناصع البياض وقد بدت عليه علامات العياء. وبقي الجيلالي واقفا حائرا تضج نظراته بالأسئلة. أين اختفى أهل الدار.؟!. أين ماري وامها وطامو والأعور والزوار الذين لم تكن تخلو منهم الدار، في الليل والنهار.؟! أين ذهبوا؟! لاشك أن مصيبة ما عصفت بهذه الدار. اللهم خيرا وسلاما. اكتشف من جديد حبه لأهل الدار جميعا رغم مآسيه القاتلة. بَيْدَ انه توجَّس شرا... ومن يدري.؟!. ربما يكون الضابط قد اكتشف من طامو قصته فاخلى الدار لإلقاء القبض عليه. نَزَّ جسدُ الجيلاليِّ عرقا... ويبس ريق فمه. وأحس بالنهاية تقترب رويدا رويدا. فتأهب للدفاع عن نفسه وهو يجيل عينيه سرا في أرجاء الدار الفسيحة.

أشعل الضابط سيجاره الكبير، واخذ منه نفسا طويلا حتى امتلأت رئتاه فخرج الدخان غزيرا من منخريه وفمه. وأمر الجيلالي بالجلوس فجلس متأدبا مترقبا ما سيحصل. أحس ببرد يسري في أعصابه وأخذت مخاوفه تكبر وتتضخم في صمت الحديقة ودخان التبغ الكوبي إلى أن أخبره الضابط برحيل الأهل إلى إفران منذ ثلاثة أيام خلت قصد الاستجمام كما جرت به العادة كل سنة. وأخبره بانه اطلع على التقارير التي كان المدربون يرفعونها الى الإدارة عن كل اطوار التدريب والمشاركين فيه فلم يجد فيها إلا ما يثلج صدره، معبرا له عن سعادته به، وثقته التامة في مقدراته وكفاءاته وإخلاصه. وأخبره بأن جمعية الحضور الفرنسي اختارته لانجاز مهمة في الرباط بسبب لون بشرته وسمته العربي واتقانه التام للعربية والبربرية، وانه سينال مكافاة مالية مهمة في حال ما إذا نجح في مهمته، أما في حالة الفشل الذريع فإن الموت عزاء للفاشلين.

ـــ اتدري يامورينو... إنني اتمنى لو كنت مكانك لأنال شرف القيام بالمهمة. أما المال والموت، والنجاح والفشل، فهما زينة الحياة الدنيا... اشرب جعتك. وخذ راحتك. من اليوم، لا كلفة فيما بيننا. أتريد سيجارا؟ آه... عفوا نسيت أنك لا تدخن السيجار. أما المهمة فهي أن تشارك القواد الذين سياتون من كل قبائل البلاد في محاصرة القصر ومطالبة الملك بالتنحي عن الحكم.

وستكون مهمتك هي الحرص على تنظيم وقيادة هذه المظاهرة دون أن يشعر بك أحد. نريد لهذه المظاهرة أن تكون صاخبة وأن تغطيها الصحافة الدولية إعلاميا ليظهر للعالم أجمع أن أعيان هذا البلد معنا، وأن الملك ليس مرفوضا من طرف الإقامة العامة، بل من طرف شعبه. ولذلك نأمرك أن تفكر في شعارات واضحة يرفعها القواد المشاركون في الحصارتطعن في شرعية الملك دينيا وسياسيا... لماذا أنت متوتر هكذا يارجل؟ خذ راحتك... لا كلفة فيما بيننا... وعلى العموم، ستجد في انتظارك من سيساعدك على تحمل مسؤوليتك. أول مساعديك سيكون هو... انتظر لحظة حتى ابحث عن مذكرتي... هاهي... سيكون هو جاك بوازي وثانيهما سيكون هوالقائد رعشان بلفقيه... خذ هذا الملف ففيه كل ما سيفيدك في التعرف عليهما، ستجد صورهما، وحالتهما العائلية، ونبذا عن حياتهما وعاداتهما ومحيطهما الاجتماعي وتجاربهما السيكولوجية... ستكون سعيدا ياMorino بمعرفتهما، لا شك في ذلك. خذ هذه الورقة، ستجد فيها مكان لقائك بهما، وكلمة السر، وكل التعليمات الضرورية التي تحتاجها لإنجاز مهمتك بنجاح تام. طاب مساؤك.

وانصرف الضابط بخطى متثاقلة نافثا وراءه دخان السيكار الكوبي... أما الجيلالي بن الطيب فقد تهالك على كرسيه محدقا في اللقلاقين الواقفين على رجل واحدة بعينين شاردتين غائمتين.

فتح الجيلالي بن الطيب الملف مقلبا أوراقه... كان الظلام قد ران على المكان فنهض الجيلالي من كرسيه وضغط على زر في الجدار القريب منه فتلألأت الحديقة بعشبها ورياحينها وورودها وتماثيلها ومياهها الرقراقة المتموجة في هدوء ويسر ماعدا قمم الاشجار الباسقة التي كانت قد انغمست في خضم الظلام... وعندما جلس الجيلالي متهالكا في مقعده، قلب أوراق الملف بين يديه فاحصا إياها الواحدة بعد الأخرى بحرص شديد على إدراك كل التفاصيل. فقد علمته التجارب أن التفاصيل الأكثر تفاهة في كل قضية أو موضوع مهما كان نوعه، قد تكون هي الدليل المؤدي إلى فك ألغازه وفهم أسراره العميقة. تنهد الجيلالي عميقا وهو يناجي ذاته مستجمعا أفكاره المشتتة: ـــ جاك بوازي ورعشان بلفقيه!!! سبحان مبدل الاحوال وخالق

الثقلين والجامع بينهما رغم تنافر الطباع والأحوال والعادات والمدارات المناخية والثقافية والبيولوجية. الأول فرنسي من منطقة ليون ينحدر من عائلة كادحة، والثاني مغربي من منطقة والماس ورث وجاهات أمغارات قبائل الاطلس منذ غابر الزمن، الأول ابيض البشرة صارم الملامح أزرق العينين، والثاني قمحي البشرة ناعس المقلتين تدل كل سمات صورته على الوجاهة والنعمة والحياة المخملية المترفة. همس الجيلالي ضاغطا على شفتيه وهو يرفع طرفه عن الملف محدقا في عش اللقلاقين الذين كان شبحاهما قد تواريا وراء سجف الظلام المهيب: « ما الذي يجمع بين هذين الرجلين الذين يطلان علي من هذا الملف رغم كونهما متعارضين تعارض الماء والنار؟ ما الذي يجمع بين الجلاد وضحيته بميثاق الدم والموت للعمل من اجل قضية واحدة؟ أيكون للاستعمار هذه القوة القاهرة على تذويب الخلافات بين البشر وصهرهم في بوتقة واحدة رغم ان بعضهم يسود بالحديد والنار وبعضهم الآخر غارق في الذل والمهانة الى الأذنين؟ لكن دعنا من هذا يا أنا... بوازي نفسه وإن كان فرنسيا ينتمي الى الأمة السائدة المسيطرة، فهو « مسحوق » ينتمي الى الفئة العمالية التي تذوق الامرين في حياتها اليومية من جراء استغلال هؤلاء السادة الاستعماريين. أبوه عاطل عن العمل لايكاد يصحو من السكر بعد أن أصبحت الخمرة عزاءه الوحيد، وأمه تعمل نادلة في مطعم، أما أخوه الأكبر فقد مات في إحدى حروب الهند الصينية. ايكون بوازي من اولئك الذين نسوا أنات الأصل وآهاته منذ زمن سبارتاكوس مرورا بالكومونة ومجازر الحروب الاستعمارية في أوروبا والعالم. قد يكون من اولئك الذين يستلذون بتقمص دور أسيادهم كيما يشعر بلذة ما للحياة، بنوع من التعويض عن الذل والحرمان الذي يتجرعه صباح مساء من أيدي أسياده المضرجة بالدم والفجيعة. قد تكون الحاجة والفقر. قبح الله الفقر. فقر الجيب وفقر الروح والذاكرة.

الذاكرة. ها نحن عدنا لها !

لست اذكر من شبه الحياة بباغية لعوب لا تمنح للناس بعض لذتها إلا إذا انسلخوا عن ذواتهم فيها وهم يضعون ذاكرتهم أمام قدميها خاشعين على طبق من ذهب.

الذهب. إيه ! قد يكون الذهب هو الذي وراء تحرك رعشان بلفقيه ضد مصالح بلده في الاستقلال والحرية، قد يكون ذلك صحيحا رغم أن وجه رعشان

بلفقيه يلمع بزيت شحم خرفان الاطلس... ينضح بالوجاهة والنعمة والترف. لكن ذلك غير كاف وحده... قد يكون الجهل... وقد تكون روح الثار للأجداد الذين أهينوا بعد ثورة قبائلهم عليهم وبعد عزل المخزن لهم من مناصبهم. روح الثار المتاججة غلا على القبيلة والمخزن معا.

هذه الكائنات المترفة من القواد لا تجد مبررا لوجودها إلا في الخضوع لسلطة آمرة قاهرة أعلى، لايهمها أبدا إن كانت مغربية أو أجنبية، صالحة أم طالحة. إنها دوما مع الأقوى، تنحاز له، تتودد وتتمسح بأذياله، وتتبعه كالقطط... تماما... تماما... وعندما تقف أمام قبيلتها تستاسد وتكشر وتبطش بدون شفقة ولا رحمة. لا تكتفي بالبطش المادي، بالجلد والجرح والقتل والسجن، بل تتعداه إلى البطش الرمزي مستخدمة فيه وجاهة السمت الخارجي، ووجاهة المسكن، ووجاهة المأكل، وقوة الحاشية، وكثرة الممتلكات من الأرض والماشية... إنها تعمل ليل نهار على إعادة خلق الخلق على صورتها ودمجهم في قبيلة بني وي وي، قبيلة القواد الموغلة في القدم، على أساس مبداي: الخضوع للأقوى مادام قويا،والعنف في حده الأقصى تجاه الآخرين متى لم ينقادوا انقيادا أعمى... ما يهمهم هو الدور وما يتولد عنه من نفوذ ووجاهة مستمرين، ولا شئ غير الدوروما يدره من وجاهة مادية ومعنوية. أما لفائدة من؟ وفي سبيل أية قضية؟ فهذا ما لا يابه به القواد أبدا... أبدا... أنظروا الى الكلاوي، والمتوكي، والكندافي، والبغدادي باشا فاس الذي يوحد في شخصه بين رعونة القائد واستبداده وتسلطه وتعاويذ شيخ الزاوية المجسد لقوى الرحمان والشيطان في نظرعامة الناس. ابتسم الجيلالي وهو يستعيد ما سمعه من أن الباشا بنى نافورة في رياه تقذف بالحليب في الهواء بدلا من الماء، فكان يشغل النافورة كلما زارته وفود من اعيان او بسطاء القبائل المجاورة مدعيا أن من كراماته استخراج الحليب من تراب الارض. ولم تكن تلك الوفود تصدق بسهولة بل يعتريها نوع من الإنكار والريب والرفض. غير أنها ما إن تذوق طعم حليب النافورة حتى تجار عن بكرة أبيها «بالتسليم» للباشا معترفة بسلطته لا على الناس والقبائل والحيوانات والنباتات وكفى، بل على الأرض برمتها أيضا.

كائنات القواد والباشوات كائنات مخلصة حتى الموت... لدورها... ولدورها فقط ...كائنات حربائية تتكيف بسهولة مدهشة مع كل الأوضاع والظرفيات والمواقف... كائنات تافهة تعيش بلا احلام، بلا بعد تاريخي، بلا حس وطني أو إنساني كوني، تعيش بمحاربة التجديد والتغييروالتفرد لا يهنأ لها بال إلا بضم الافراد المبادرين بالعصا الى القطيع. ولذلك كان القائد بالتعريف محبا للحم الخروف، لا يتمثل المجتمع الا في صورة قطيع من الخرفان الذين لا تسلس سياستهم إلا بالعصا. والقواد هم الذين علموا الفقيه والأب في القبيلة ذلك المبدأ المنغرس في اللحم، الموشوم في ثنايا الذاكرة الجماعية: العصا لمن عصا!

القائد رعشان بلفقيه يرنو إلي من عمق صورته الفوتوغرافية متفرسا وجهي بعينين نعسانتين ماكرتين وكأنه يقول لي غدا سنلتقي من أجل الأخذ بثارنا التاريخي،، أنا وانت،، يجمعنا الدور، ويجمعنا تاريخ انتسابنا الى سلالة القواد المنعمين الذين تكورت الأرض خوفا من شرارات سيوفهم منذ غابر الأزمان.

نعم... غدا سنلتقي... لكنك لا تعلم لسوء طالعك، أنني لست من سلالتك ذات العيون النعسانة التي يكاد شحم الخروف أن يغلقها... لست عبدا لأي دور أو هكذا أريد نفسي ان تكون على الأقل... لا قبيلة لي... أحس فقط... إحساسا عميقا... بأن لحمي وعظامي من هذه الأرض التي لا تستسلم ردحا من الوقت للطغاة إلا لكي تحفر لحودهم في سهوبها ووهادها وسهولها وقممها الشامخة شموخ هذا الأنف... أتراه... يارعشان بلفقيه... تبا لك ولصاحبك... والقى الجيلالي بالصورتين معا في الملف... وأطفأ نور الحديقة... وغاص في الظلام...

_ 22 _

أزيزُ محرِّكات... صخبٌ وجلبة... أنوارٌ تخترقُ كثافة زجاج نافذة غرفة نوم الجيلالي وسجوفها الحمراء... هبَّ الجيلاليُّ من نومه مرعباً عاريّ الصَّدر حافيَ القدمين... أخذ المسدَّسَ (الذي كان قد تسلمه بعد التدريب) من تحت مخدته الناصعة البياض، وأخرجه من غمده تحسّباً لمواجهة خطر داهم. طرقٌ عنيفٌ في الباب. من الذي يطرق هذا الباب في هذه الساعة؟!. ألقى الجيلالي نظرة سريعة على ساعة الحائط... الساعة الخامسة صباحا... من الذي يطرق الباب؟!. أزيزٌ... وطرقٌ... وأنوارٌ متلألئةٌ في الخارج...

تردّدَ الجيلاليُّ بين فتح الباب وفتح النافذة. وقرّر فتْحَ الباب مخفيا مسدسه وراء ظهره... فتح الباب دفعة واحدة مخفيا جسده وراء الدفة مشرئبا برأسه مستطلعا مستفسرا... بيد أن جسد امرأة داهم الغرفة بعنف منهارا على الزربية التركية القديمة التي تفصل سرير النوم عن باب الغرفة. سدد الجيلالي مسدسه صوب الجسد بحركة آلية، وانحنى على الجسد محاولا التعرف على صاحبته... فغر فاه مندهشا... وألقى بالمسدس من يده وأغلق الباب بحركة رجله اليسرى... إنها هي... يعرفها من عطرها المميز... عطرها يسم جسدها كما يسم الوشم جسد نساء القبيلة... جسد أمه... جبهتها فيما بين الحاجبين... أرنبة أنفها... أسفل شفتها السفلى في اتجاه الذقن. انتبه الى أنه تذكر ملامح أمه... داهمته فرحة دافئة سرعان ما تلاشت أمام هذا الجسد الموقع بالعطر الباريسي. أدخل يده بين السجاد التركي الدافئ وشعرها الناعم المتهدل على قفاها ممسكا بخلف جمجمتها، ورفع رأسها الى وجهه الى أن أحس بلفح أنفاسها الممهورة برائحة

الخمر في وجهه. عدت إلى عوائدك القديمة ياسوزان. عجبا... هناك من يسعى إلى استعادة ذاكرته المفقودة مهما كان الثمن، ولا تهناله حياة إلا باستعادتها، وبدونها لا تستحق الحياة أن تعاش أبدا،وهناك من يسعى إلى إغراق ذاكرته في قارورة خمر عتيقة محاولا بذلك التخلص منها إلى الأبد، لا تهنأ له حياة إلا بفقدان ذاكرته. في الحالة الأولى تكون الذاكرة منبعا ثرا للمعنى، تفيض على الأشياء فتصبح الأشياء دلالات ورموزا وإشارات ناضحة بالمعنى ويحس الإنسان أنه منغمس في عالم ذي مقاصد وأهداف وغايات بموجبها يدرك إنتماءه الى الحياة، حياة الطبيعة، وحياة جماعته فيها، وحياة الانسانية. وإدراك الانتماء يقوده حتما الى الاحساس بالواجب تجاه ذاته والآخرين، وإلى بلورة رسالة ما يعيش حياته من اجلها ،ومهما كانت حياته في واقع الأمر قاسية ممضة، فإنه يجد ألف مبرر لتحملها والعمل من أجل تحسينها. وفي الحالة الثانية... دوى انفجار قوي خارج البيت... وتعالى الصخب والضجيج أكثر مما كان... وتزايدت كثافة الأضواء حتى أصبحت الغرفة مضاءة تماما... لا شك أن جريا ما بالخارج... أتكون سوزان قد أصيبت بطلقة نارية ما... ومارية... وكلارا... ياللهول... هرول الجيلالي الى النافذة بعد أن أسند برفق رأس سوزان إلى وسادة أثبتها بحافة السرير. واشرأب بعنقه مستطلعا... تراءى له شبح الضابط من بعيد وهو في مركز بقع الأضواء المنبعثة من نيران متوهجة تتموج ألسنتها في الفضاء، ومن سيارات الاسعاف والشاحنات وسيارات الجيب التي تبدو كهررة ضالة لا تستقر في مكانها أبدا .ولمح جنودا يقتربون من الضابط ويبتعدون عنه... يحملون جنودا في محامل الجرحى إلى سيارات الاسعاف... تتردد صفاراتها في سكون الليل صابغة إياه بألوان الفجيعة. وحدهما اللقلاقان ساجيان في عشهما الكثيف فوق النخلة التي تمتد جذورها الى صحراء اليمامة، لا يعبآن بشيء، وكأن الزمن يجري منسابا تحت عشهما عاجزا عن جرفهما في تياره العارم... تمنى الجيلالي مرة أخرى أن لو كان لقلاقا... مرة أخرى... لكن... الماء هناك في الكوب وسط المائدة المستقرة منذ البدء في جانب الغرفة الأيمن... يجب رش الماء على وجه سوزان علها تستفيق من بحران سكرها الثقيل... وإذا كانت مصابة فما العمل؟

رش الجيلالي الماء زخات متوالية على وجه سوزان فانتبهت مذعورة وتشبثت بعنق الجيلالي وكأنها تحتمي به من خطر داهم ماحق. وأجهشت بالبكاء معاتبة الجيلالي على غيابه الطويل... سألها عما إذا كان قد أصابها مكروه مما يطرأ من عنف في الخارج. فأجابته بأنها في صحة جيدة، وبأنها التقت صدفة بالسائق الذي أخبرها بأن مورينو رجع من رحلته الطويلة. فقادته من شدة فرحتها إلى أقرب مشرب لتحتفل وإياه بالحدث دون أن تعبأ باندهاشه واستغرابه. وعندما فقدت وعيها من كثرة الشراب حملها السائق الى باب منزل الضابط وتركها وسط هذا الصخب والضجيج واللغط والدخان والنيران حتى خالت نفسها أنها تحلم... ولم تستفق لنفسها إلا ووجهها يقطر ماء وهي تتشبث بكل ما أوتيت من قوة بعنق مورينو الروخو. أراد التخلص منها كيما يخرج ليعرف ما يجري. اعترضت سبيله بكل ما أوتيت من قوة. فهي لا تريد أن تفقده من جديد على حسب قولها... لن تسمح لنفسها بذلك أبدا... أبدا... حاول أن يقنعها بالعدول عن موقفها فلم تقتنع... فدفعها برفق وانساب الى الخارج محاولا معرفة ما يجري حافي القدمين، عاري الصدر، غير عابئ بهذا البرد المثلج الذي يلف المكان آتيا من ذرى مشليفن ومرتفعات إفران. غير أن الضابط اعترض طريقه آمرا إياه بالرجوع إلى غرفته لأن ما يجري لا يهمه، ويجب ألا يحاول فهمه، مادام الأمر متعلقا بلاليجيون، وكل ما يتعلق بلاليجيون يعتبر سرا من أسرار الدولة الفرنسية... عاد الجيلالي إلى الغرفة فوجد سوزان قد مشطت شعرها، وارتدت بعض ملابس نومه، وتسللت تحت الفراش منتظرة إياه وهي تعاني من قشعريرة أشبه ما تكون بالجذبة الصوفية يهتز لها جسمها المحشو برغبة شبقية عاوية يتردد صداها في زمن البدايات، زمن التكوين الأول... دس اصابعه الطويلة في شعره وهو يجلس على كرسي قديم بالقرب من السرير. امسكت سوزان بيد الجيلالي جاذبة اياه الى جانبها. غير ان صورة طامو كانت قد تسللت من مخيلة الجيلالي الى فضاء الغرفة حائلة بينه وبين جسد سوزان. فاكتفى الجيلالي بمداعبة شعرها بلطف ورقة معتذرا لها. غير انها رفضت اعتذاره رفضا قاطعا، وانفجرت غاضبة متوعدة باكية متهمة اياه بخيانتها مع أنثى أخرى. عرضت بعصبية بالغة مفاتن

جسدها المتناسق البديع امام انظاره مؤكدة على انه لن يجد هذه المفاتن مجتمعة في اية انثى فرنسية كانت أو مغربية. كان ينصت اليها بهدوء محاولاً تهدياها. وعندما سالته عن غيابه الطويل المفاجئ، قص عليها أحداثا ووقائع كان قد اتفق مع الضابط على روايتها عند اللزوم تبريرا لغيابه .ترك لخياله العنان، فراح خياله يحمل سوزان على صهوته الفسيحة الناعمة إلى مباهج سان جرمان، واللوفر، وبرج ايفل، ومراكب نهر السين، ومسرح الأوبرا، وفرقة لاكوميدي فرانسيز، والأبناك، والبورصة، والميترو، والمطاعم الفاخرة، والكازينوهات المتألقة بظرف الباريسيات وجمالهن الأخاذ الشبيه بجمال ملائكة الرحمان. قهقهت سوزان وهي تسمع إطراء الجيلالي المدعو بمورينو الروخو على الباريسيات متظاهرة بالغيرة منهن. فهمها وفهمته... لكنه اعتذر من جديد برقة ولطف بالغين. فانتفضت من مكانها واقفة وسط الغرفة، خلعت ثياب النوم وهي تشعل سيجارة باصابع مرتعشة قلقة، ارتدت ثيابها بسرعة وهي تامر الجيلالي بمرافقتها الى ضيعتها لايجاد حل لاضراب الفلاحين. تذكر انها كانت قد عرضت عليه التوسط في هذه القضية منذ زمان، وان الاحداث المتعاقبة قد حالت دون قيامه بالواجب، غير انه عبر لها عن رغبته في النوم وارجاء السفر الى الصباح. لم تقبل رغبته، كانت قاسية رهيبة. اتظن انني خشبة ميتة أيها الأبله، حتى استطيع البقاء بعيدة عنك تحت سقف واحد. لو مكثت معك في هذا الوضع ساعة واحدة لدفعتني شهوتي المجنونة الى قتلك. انت تعرف انني صادقة... صادقة في حبي، صادقة في كرهي، صادقة في حكمتي وجنوني لم ينبس الجيلالي بكلمة واحدة. لبس حذاءه وفتح الباب بعد ان اطفأ نور الغرفة و في الظلام الدامس كان الجيلالي قد وضع ذراعه بحنو بالغ على كتف سوزان التي استسلمت اليه دون مقاومة، وهما يذرعان معا عتبة الباب متجهين الى الضيعة، هاربين من ذاتهما العميقة الفوارة بالرغبة... المرتعشة بزخات الألم واللذة... وفي هذا الوقت بالذات، كانت نافذة الغرفة تتقطر بالندى متلقية أنوار الفجر الراعفة الخافتة، شاهدة على استفاقة اللقلاقين من نعاسهما الطويل الطويل، واستعادة النباتات لألقها الأخضر الموحي بدبيب الحياة الأبدي، وانسحاب سيارات المطافئ والإسعاف والشاحنات وسيارات الجيب والجند والضابط بعد طمس أي أثر للحادث... وفي هذه الأثناء كانت صوامع المدينة القديمة تؤذن لصلاة الفجر.

- 23 -

عندما اجتازت السيارة السوداء التي يسوقها الجيلالي حواجز حرس الحدود بين المدينة الجديدة والمدينة القديمة، كانت سوزان قد استفاقت من سكرتها الثقيلة. فتحت زجاج النافذة وتنفست عميقا حتى امتلأ صدرها الناضج بروائح الماء وأريج العشب والشجر. وأسبلت جفنيها الذابلتين وهي تستنشق الهواء بنهم بالغ مستلذة عذوبته. وتذكرت زوجها المرحوم وهو يتمنى للمرة الألف بألا يوارى جثمانه عندما يأتي الأجل إلا في ثرى هذه المدينة: مكناس التي هام بها هياما متصلا قويا عنيفا الى الحد الذي توهمت معه ان دمه مجبول من ترابها المبلل بدفق الماء والهواء. كانت تقول له مازحة: «من يدري... ربما كان جده الاعلى مغربيا مكناسيا من اولئك الذين عبروا البرانس رفقة عبدالرحمن الغافقي واستقروا في بواتييه رغم الهزيمة. ألا ترى في عشقك للنعناع المكناسي، وللماء المكناسي، وللهواء المكناسي، ولغبش الفجر وارتعاشة الصباحات المكناسية، دليلا على «مكناسيتك الأصلية العميقة». كان يكتفي وهو يشرب حديثها العذب بأن يرنو إليها بعينين عاتبتين وكأنه يجيبها: «ياله من وهم! لكنه وهم جميل نافع. تدحرجت دمعتان حارتان من مقلتيها على خدها وهي تتذكر كل ذلك كما لو كان قد حدث البارحة. وتعجبت من سرعة سيلان الزمن وهو يطوي في خضم جريانه الرهيب أحلام البشر وأشلاءهم إلى ما لانهاية له. واحست بطعم العبث في فمها مرا علقما. حياة عبثية، زمن عبثي، بشر عبثيون، احلام عبثية، ضيق في القلب وفي الصدروفي الأحداق. اخرجت يدها من النافذة متلقية زخات الهواء البارد النقي الذي اعتادت خصلات شعرها وأصابع يدها على عبثه الجنوني الخفيف الظريف الممتع. وتنفست بعمق كأنها تريد ابتلاع

الهواء كله في صدرها الناضج... كأنهاتروم احتكاره من دون الناس جميعا.
كانت السيارة تسير تاركة وراءها الثكنة وشوارع المدينة الجديدة ببناياتها البيضاء الفسيحة واعلانات الاشهار الضوئية واشارات المرور. وكانت ماري تنتقل ببصرها من نوافذ العمارات الجديدة الى السماء حيث كانت اسراب الخطاطيف السوداء تتزاحم وفق اشكال هندسية متباينة، تخترق اديم السماء صامتة كأنها في مظاهرة حداد وحزن.

أما الجيلالي فقد كان غارقا في افكاره، حائرا أمام ماينتظره من أهوال ومآسي لا يستطيع منها فكاكا إلا إذا واجهها وكان ضحيتها وبطلها في الآن نفسه. كيف تساقطت عليه هذه المصائب؟ ولماذا تكالبت عليه هوبالذات دون غيره؟ لم يكن منذ ان ولد ولادته الثانية في الثكنة يومن بالقدر... أما الآن فقد اصبح يميل الى الاعتقاد به. لاشك أن هناك قدرا ما يملك عليه مصيره، يتحكم فيه ويوجهه كما يفعل مسرحيو خيال الظل بدماهم. وابتسم وهو يتخيل نفسه دمية من لحم ودم تتحرك بخيوط لا مرئية تديرها يد رهيبة مبسوطة على الكون من حيز في اللامكان. لو كانت ماري هنا، بالقرب منه، وخمنت افكاره لضحكت منه.. لكن ماري لا توجد في المأزق الذي يوجد هو فيه. وإلا لكان موقفها مغايرا. انتبه الجيلالي في هذه اللحظة بالذات، رغم ازيز السيارة وهديرها، إلى ان البشر لا يتعلقون بالماورائيات كالقدر وغيره إلا في لحظات ضعفهم تجاه اوضاع وظواهر، كالموت والحب والمرض والهزيمة، اوضاع قاهرة تهدد كينونتهم وتنذر بنسف أسس حياتهم وتوازن وجودهم. حينئذ ينشط المتخيل في اعادة صياغة تلك الاوضاع والظواهرفي صيغة قوة خارقة، او قوى خارقة، مانحا لها من حيث لايدري وجودا متعاليا مفارقا مؤثرا في تفاصيل الحياة البشرية مفسرا تعقيدها المذهل مفجرا في عتماتها السحيقة ينابيع المعنى وبلسم الأمل والعزاء. رأى امامه رغم ازيز السيارة، ورغم انفاس سوزان وجسمها المفتون ببهاء هذا الصباح شريط اناس تبين في زحمتهم امه بوجهها الصبوح الذي تسطع من جبهته وشمة زرقاء لا تخطئها العين ابدا. نادى امه في سره فلم تلتفت له، بل استمرت في المشي مع جمع الناس الذين كانوا يحملون هدايا وشموعا ملونة الى الولي الصالح، تلامس

اقدامهم حجر الصوان الاملس الذي عبدت به الطرق الضيقة والدروب الملتوية وهي تخترق عتمات كتل البنايات الضخمة المنحدرة من أزمنة بدء التكوين. ناداها من جديد، وألح في النداء، فلم تلتفت له، بل استمرت في سيرها وسط الزحام، على ايقاع الطبل والغيطة وحركات اجساد المريدين وقد اخترقتها قوة الجذب المسعور المتوحش. ناداها مرة اخرى ،غير انها كانت قد اختفت في الزحام إلا وشمها الازرق الساطع... وشمها الخالد الابدي... هو وحده الذي لم يختف. هو وحده الذي بقي واقفا في لجة الزحام كما لو كان شراعاتتقاذفه امواج البحر.

ـــ انتبه الى الطريق... كدت تخرج الى الرصيف... صاحت سوزان فزعة مرعبة. اعتدل الجيلالي في جلسته بعد ان أدار المقود يمينا ثم يسارا وخفف من السرعة وضغط على الكلاكس فهرول احد المارة فزعا وهو يقطع الطريق عند منعطف حديقة الحبول. كانت السيارة تلهث في العقبة المؤدية الى باب كناوة، وعندما اجتازتها مقتربة من باب منصور طلبت سوزان من الجيلالي ان يمر بها على صهريج السواني الذي اعتادت ان تزوره وفق هوس طقوسي عرفت به منذ زمن كلما همت بالخروج من مكناس.

اخترقت السيارة باب منصور، واجتازت ساحة لالاعودة وسط وشوشات اجنحة الخطاطيف السوداء التي انتشرت في كل مكان. كانت الخطاطيف قد جللت بالسواد الاسوار والاشجار والبنايات والصوامع والساحات وما فيها من سيارات ومارة وبهائم ودراجات، وعشب وماء وحجر.

كانت الخطاطيف تصطدم بزجاج السيارة الامامي كما لو كانت قذائف، وكان بعضها يتسلل من النافذة المفتوحة ساقطا على صدر سوزان وحجرها، متخبطا بجناحيه الكبيرين كما لو كان مذبوحا. أصيبت سوزان بذعر شديد، واحتمت بصدر الجيلالي الذي اضطر الى ايقاف السيارة واقفال زجاج النافذة بعد ان ألقى بما سقط من خطاطيف الى الخارج. لم يعبأ برجل طويل القامة، مهيب الطلعة، كثيف اللحية، ثاقب النظرات، يتدلى على صدر جلبابه الصوفي المخطط بالاسود سبحة من اللوبان الضخم، وهو يبرز من عتمة الخطاطيف منذرا بقيام الساعة! ...

اما سوزان فقد ازداد رعبها وهي تحدق في سمته الغريب، وعندما اثارت اهتمام الجيلالي بوجوده كان قد اختفى عن الانظار في العتمة وكان الخطاطيف ابتلعته. ولما لم يعثر الجيلالي على اثر للرجل اعتقد ان سوزان تهذي فاستانف سيره معرجا على حبس قارة، مارا بقبر المولى اسماعيل وبالقصر الملكي. وكلما كانت السيارة تقترب من الصهريج كلما كانت اسراب الخطاطيف تقل الى ان اصبح عددها مالوفا في فضاء الصهريج والاصطبل والمقهى المعلقة.

كانت صفحة الماء صقيلة تغطيها قطع كثيفة من البخار. وكانت اشعة الشمس الاولى تتكسر على البخار والماء ناثرة الوانها القزحية هنا وهناك. جمال ساحر... اليس كذلك؟ واجمل منه انت ياسوزان لانك ترينه وتتذوقينه... اريدك، موريبنو، ان تطوف بهذه البحيرة عشر مرات... ولماذا عشر مرات ياسوزان؟ ربما لان زقم عشرة مقدس عند شعوب الارض كلها او هكذا يخيل إلي ياموريبنو... بالمناسبة، كم مرة يطوف المسلمون بالكعبة؟ لست ادري ياسوزان... دعيني افكر... كانت السيارة تطوف بالصهريج غير مبالية بحديث راكبيها، ولا بجمال الصهريج، ولا باسراب الخطاطيف التي كانت تتكاثر باستمرار... وعندما اكملت طوافها العشري، انطلقت تطوي الارض طيا تاركة الاشجار والبنايات والساحات والاسوار والخطاطيف والبشر وراءها لا تلوي على شئ.

كانت السيارة تقترب من الضيعة عندما فتح الجيلالي الراديو بحركة آلية. سيداتي وسادتي... في ختام هذه النشرة الصباحية، اليكم بعض الاخبار المتنوعة القصيرة : اسراب كثيفة من الخطاطيف تغزو مدينة مكناس التي اصبحت منذ فجر هذا اليوم في حالة حصار حقيقية. وقد علمنا ان الجيش وقوات الامن قد دخلت منذ ساعة في حرب حقيقية مع الخطاطيف السوداء مستعملة كل اسلحة الدمار الملائمة (من عصي ومقاليع وحجارة...) للقضاء عليها وتخليص فضاء المدينة من سيطرتها الشاملة بعد ان فر السكان من دورهم ومنازلهم هائمين على وجوههم في الحقول والبراري المجاورة، فلم يبق منهم الا رعاعهم الذين اغتنموا فرصة تساقط الخطاطيف ميتة بالآلاف على الثرى لالتقاطها واكلها مشوية ومبخرة ومطبوخة.

ولمزيد من المعلومات اتصلنا سيداتي سادتي بمراسلنا الضو يوسف بعين المكان لإلقاء أضواء كاشفة على هذا الحدث الجلل...

ـــ آلو السي الضو... آلو...

ـــ آلو أستوديو القباج بدار الاذاعة... آلو.. الاخ غوات...

ـــ نعم الاخ الضو... الخط مفتوح... هل هذه الخطاطيف الغازية خطاطيف مغربية، مكناسية أصيلة ... أقصد هل هي بنت البلاد وتلقت تربية البلاد...

شكرا الاخ غوات.

ـــ من المعلوم ـــ سيداتي سادتي ـــ ان هذه الخطاطيف التي هاجمت المدينة ليست خطاطيف بلدية. فالخطاطيف البلدية خطاطيف مقدسة، ورعة، خرجت السلكة منذ غابر الازمان على يد رجال البلاد، وحفظت الاذكار والازجال على يد الشيخ سيدي قدور العلمي نفعنا الله ببركته، يوقرها السكان وتوقرهم منذ غابر العصور. اما الخطاطيف التي هاجمت المدينة هذه الليلة فخطاطيف اجنبية، عبرت البحر الابيض خلسة، واستقرت كالكفن على المدينة، إنها خطاطيف كافرة جاحدة لا حياء فيها لا تخاف الله ولا البشر، لم تخرج سلكة ولم تحفظ اورادا ولا اذكارا ولا اشعارا. لم تكتف بمضايقة الناس في الشوارع والساحات العمومية بل اخترقت حرمات المنازل، بعضها اكتفى بالجلوس في الصالونات وبعضها سقط رغما عنه في مقلى او فرن المطابخ، وبعضها اندس في قلب فراش بيت النوم... وبعضها تدلى من الثريا كما لو كان من نسل الخفافيش .هذه الخطاطيف لا توقر احدا ولا يوقرها احد. ولما كثر اداها ولم ينفع معها التسامح اجتمعت المحكمة الابتدائية وتداوالت في هذا الامر واصدرت قرارا يقضي بمحاربة الخطاطيف واجلائها نهائيا عن المدينة، ومن ثم فإن قوات الامن والجيش لم تعمل الا على تنفيذ قرار شرعي قانوني اصدرته محكمة مستقلة موقرة. ولا نرى وجها شرعيا يبيح للامم المتحدة ولمجلس امينها ولامينها العام ان يصدروا قرار العقوبة الاقتصادية الذي اشار اليه الاخ غوات قبل قليل.

ـــ شكرا الاخ الضو... الى اللقاء في مراسلة حية قادمة.

هذا، وقد علمنا ايضا من مصادر لم ترد ذكر اسمها ان انفجاراً وقع الليلة الماضية في ثكنة ادى الى مقتل جندي واحد، واحراق واتلاف معدات عسكرية هامة. وتقول اوساط عليمة ان ارهابيي الحزب الوطني هم الذين يقفون وراء الحادث المؤلم، بينما صرح مسؤول في الحزب ان الخطاطيف الاجنبية هي التي تقف وراء الحادث. والابحاث جارية على قدم وساق لمعرفة حقيقة الوضع وتحديد المسؤول عن هذه الجريمة.

اما شيخ المدينة وفقيهها، وهو بالمناسبة تاجر ثوب كبير، فقد صرح بمجرد علمه بما جرى ولا يزال جاريا بأن الحدثين معا يعدان من علامات الساعة. ونصح المومنين بالهرع الى المتاجر لشراء اكفانهم قبل ان تنفذ من السوق.

وبينما كان المذيع يواصل تقديم اخباره المثيرة، التفت الجيلالي الى سوزان لكي يسالها عن رأيها في الموضوع فوجدها نائمة، لاشك انها نامت قبل ان يفتح المذياع... لاشك انها لم تسمع هذه الاخبار المذهلة وإلا لما اكتفت بالكلام من فمها بل تعتدته الى الكلام بكل تفاصيل جسدها: بحاجبها وعينها ويدها وانفها ومصمصات شفتيها وتعبيرات وجهها كله... إنها نائمة... ربما لانها متعبة منذ البارحة... وربما لانها خائفة من الخطاطيف بكل ما ترمز اليه من دلالات عميقة لا يحسن تأويلها إلا هي، أو لربما كانت خائفة مما ينتظرها في الضيعة من مواجهات قد تصبح متفجرة دامية، أو من المستقبل كله... مستقبلها هي... ومستقبل فرنسا الاستعمارية التي أخذت تتداعى أركانها في العالم لصالح فرنسا حرة، مؤمنة بحق الشعوب في الاستقلال وتقرير المصير.

وصلت السيارة الى الضيعة الفسيحة المعشوشبة الزاخرة بكل اشجار الفواكه، والوان الخضر، والمزروعات... تخترقها قنوات المياه الرقراقة الصافية من كل حدب وصوب. هدوء وسكينة وصمت شامل تتخلله دقات قلب الجيلالي وطنين نحل يقوم بعمله السرمدي في تلقيح الاشجار والنباتات وجمع الرحيق الضروري لصناعة العسل. آه لو اصبح نحلة، ولو تصبح سوزان نحلة، وطامو وماري، وكل الناس... كل الناس... لانشغل الناس بما يفيد ولتخلص هومن قيوده وكوابيسه

الى الابد. لكنه افتكر الخطاطيف، ووجه امه الذي لم يعد يتبين منه إلا وشمة الجبين وهي تتأرجح صعودا ونزولا في الزحام كأنها شراع زورق صغير يصارع أمواج اليَمّ.

لم ينتبه الجيلالي إلى «الشاوش» ذي الوجه الأسمرالشاحب، والحذاء المطاطي الأسود الطويل، والجلباب الصوفي الأبيض الذي لا يصل إلا إلى الركبتين، بسبب حزام يطوق الخصر ويمنعه من التدلي إلى ماتحت الركبتين... لم ينتبه الجيلالي إلى وجوده إلا بعد أن فتح الباب، وأتى لتحية سوزان داعيا لها بالصحة وطول العمر، رغم أن سوزان كانت نائمة. هل يوقظها أم يتركها نائمة؟ إنه يعرف ملابسات القضية التي من أجلها جاءت به إلى الضيعة. نظر إليهاوهي تنام هادئة على مقعد السيارة، وقد جلست القرفصاء ووضعت رأسها على ذراعيها المتشابكين. هادئة ناعمة مطمئنة. تذكر أمه وهي تنام على هذه الهيئة عندما كان صغيرا، رأى وشمتها الزرقاء تخترق السماء كما لو كانت شهابا ثاقبا. وتذكر طامو... طامو الهادئة دوما... الجميلة الفاتنة... وهي تنام على كرسي في المطبخ أو تحت شجرة سرو ممتدة إلى السماء المرصعة بالنجوم بعد يوم حافل بالجري والتعب والكد. كلهن مستريحات الآن... كلهن يراودهن الكرى ويسترحن... إلا أنا... أنا الجيلالي بن الطيب شيخ الشؤم والنكد والشقاء. هل مكتوب علي أن أعيش سجين دورة المهمات الصعبة المستحيلة، سجين الالتباسات الوجدانية، سجين أهداف الآخرين. هل يطلبني الآخرون لكفاءاتي، ولمميزات ذاتي، أم يطلبونني فقط لأنني أصلح لتحقيق رغباتهم وأهدافهم. نعم... كلهم يطلعونني على أهدافهم، أو على جانب منها على الأقل، لا لآخذ وجهة نظري فيها، فهذا ليس من شاني، بل لأكون الأداة الناجعة لتحقيقها لهم... قدرك آجويليلي أن تكون أداة، مجرد أداة، يستخدمها الآخرون لتحقيق مآربهم، وعندما يحققونها بك، لا يذكرونك بكلمة واحدة، وكأنك لم توجد أبدا... أبدا... وكلما أنجزت عملا، وحققت غاية، كلما نفيت وجودك وألغيته تماما... ياللهول!!...

ــــ سيدتي... حمدا لله على سلامتك! قالها الشاوش وهو ينحني بإجلال امام سوزان التي كانت تغط في نوم عميق ضاعف جو المكان العليل حلاوته ولذته.

ـــ أترك السيدة نائمة... وتعال معي الى حيث يعتصم الفلاحون لأرى ما الأمر... قال الجيلالي بلهجة آمرة تغلبت على ممانعة الشاوش وتردده. سار الرجلان جنبا الى جنب بين صفوف حقل الليمون تاركين وراءهما السيارة وسوزان نائمتين في ظل شجرة سرو باسقة. كان التراب هشا لينا تغوص فيه الاقدام، تسحوه أحيانا، وتغوص فيه أحايين أخرى. وكانت السماء زرقاء يتمطى فيها صبير خاله الجيلالي خطاطيف تنكرت في زي أبيض. وكانت وريقات الليمون تتوهج في ألق الشمس الراعفة بضوء مشرب بحمرة صباحية خفيفة.

تراءت جموع الفلاحين متناثرة مثنى وثلاث ورباع. وكلما اقترب الجيلالي من مكان الاعتصام كلما تجمعت جموع الفلاحين مكونة جمعا واحدا. تعالت الشعارات المطلبية من حناجر قوية واثقة بعدالة ما تطلبه، وبالنصر أيضا. وعندما وقف الجيلالي أمام الجمع كان الشاوش قد طار الى جهة بناية ضخمة مستطيلة ذات سقف اردوازي لامع تحت أشعة الشمس. بينما تراءت للجيلالي وراء الجمع خيام صغيرة من الثوب الأبيض على شكل نصف دائرة توسطته قدر ضخمة سوداء تدلت فوق نار مستعرة صاخبة. وفوق بعض الخيام، كانت الراية المغربية ترفرف مزدانة بحمرتها القانية. هكذا إذن... هولاء الفلاحون منقبون... لاشك في انهم يتوفرون على نواب يتحدثون باسمهم... فلأقدم نفسي إليهم، وأتمنى أن أوفق فيما انا مقبل عليه... أيها الفلاحون... السلام عليكم... اقدم لكم نفسي... أنا مورينو الروخو... فوضتني صاحبة الضيعة للتفاوض معكم... لا أخفيكم سرا إذا قلت لكم بانها كانت قد قامت بالاجراءات اللازمة لكي ترسل إليكم العسكر لكي يفرق جمعكم ويطاردكم في الدواوير كلها الى ان تعودوا صاغرين الى عملكم أو تلقوا حتفكم كما هي العادة. لكنني تدخلت في الوقت المناسب وأقنعتها بالتفاوض معكم أولا، وإذا لم يجد الحوار تدخل الجيش بعد ذلك. وهكذا انتدبتني للتفاوض معكم. فارجو أن لا تخيبوا ظني فيكم...

ـــ ومن تكون انت حتى تفاوضنا... هل انت زوجها؟ وحتى لو كنت لوجب ان يكون معك التفويض مكتوبا...

تحرج الجيلالي وبدا على ملامحه القلق والاضطراب حتى قهقه بعض الفلاحين سخرية منه. بيد أنه دارى قلقه بتحويله الى غضب عارم وصرخ في وجه الفلاح المتحدث قائلا: هل تريدون ايجاد حل عادل لقضيتكم؟ أم تودون اثبات قرابتي من صاحبتكم؟ دعوني أجيب بالنيابة عن معظمكم الذين يحلمون بالعودة الى اطفالهم وفي يدهم الطعام والكسوة وبعض الادوية... انتم تبحثون عن حل لمشاكلكم .إذن ليتبعني ممثلوكم...

ــــ لن يتبعك اي احد... انت متواطؤ مع المسيو جان دوفال...

ــــ ومن هو هذا ال جان دوفال ؟

ــــ إنه محاسب الضيعة الذي لم يترك كبيرا ولا صغيرا منا إلا أذله، يسبنا في بلدنا، ويسلبنا اجورنا، ويتطاول على نسائنا وحرماتنا... لسنا عبيدا... اننا فلاحون احرار...

ــــ أنا أزيدك شيئا ذا دلالة. ياسيد مورينو. أتدري لمن هذه الارض التي أقيمت عليها هذه الضيعة؟... إنها أرض جماعية لقبيلتنا انتزعتها سلطات الحماية من آبائنا منذ ان قضى الجيش الاستعماري على مقاومتنا المسلحة... اننا نعمل في ارضنا التي سلبت منا بالقهر لصالح أناس يملكونها بالقهر...

ــــ وهل تطلبون الآن استرجاع هذه الارض ؟

ــــ لا... نملك فقط ان نحلم بها في نومنا... ما نطلبه هو الا يسلبنا دوفال اجورنا، ما نطلبه هو ان يرجع الينا ما اغتصبه منا من اجور وتعويضات، وان يعاملنا كبشر وان يحترم مقدساتنا وحرماتنا.

ــــ إذا كنا لم نذبحه ذبح الخرفان، فلأن النقابة أفهمتنا أن الطريق الأسلم إلى تحقيق حقوقنا والدفاع عن مقدساتنا هوالنضال السلمي...

ــــ وثق بنا ياسيد مورينو انه إذا اتضح لنا أن هذا الطريق لا يؤدي إلا إلى المزيد من استغلالنا ودوس كرامتنا وتدنيس مقدساتنا، فإننا سنأخذ حقنا بقوة ايدينا ولو أدى ذلك الى استشهادنا عن آخرنا.

ــــلا... لا... لن أسمح بأن نصل إلى هذا الحد... سأعمل كل ما بوسعي لأحقق مطالبكم ولاكف يد الأذى عنكم...

بعيدا، قرب حضيرة البهائم التي تغلف المكان بعطونة الروث المتراكم، كان احد الفلاحين يطارد مترنحا من شدة السكر ابنته التي شاع في الدوار انها اصبحت خليلة جان دوفال... أغراها بالمال والسلطة، ووعدها بالزواج فاغترت به وهي ترى اباها وقد اصبح يعاقر الخمرة منذ ان التحق بخدمة آل دوفال... تغيرت طباعه وغاب عن البيت، بينما كثرت زيارات دوفال له محملا بالاكل والملبس والهدايا، حتى اعتادت عليه هي وأمها وأحبتاه. اليس هو اليد الرحيمة التي انقذتاهما من غائلة الجوع والمسغبة؟ الم يكسهما جديد الثياب بعد أن أضناهما ترقيع الاسمال البالية؟... أصبح جان دوفال محبوبا في البيت كله،واصبحت الأم كلما ذكر جان دوفال في مجمع لنسوة الدوار تقول عنه إنه مسلم حقيقي، وإن بعض النصارى لأقوى إسلاما من العديد من المسلمين! وتردف هذا الحكم المتحمس بعدد لا يحصى من الأدلة والحجج. ومع توالي الايام اصبح دوفال صاحب البيت بدون منازع، لا يبارحه الا في الهزيع الاخير من الليل ،رغم احتجاجات الجيران التي تجسدت في اشكال متعددة متراوحة بين الامتناع عن تبادل الحديث، ورجم البيت ليلا بالحجارة، وتلطيخ بابه بالبراز وروث البهائم.

ـــ أنظر إنه يحاول قتل ابنته... في يده مقدة... ياللهول...

ـــ لقد تعثرت في بركة الماء وسقطت... إنه يسقط فوقها... يمسك بظفيرتها، يجذبها بعنف، فيبرز رأسها من كتلة الماء الاسود الآسن. يحتضن الرأس بحنان بالغ، ويبكي، وينتحب...

ـــ فلنسرع ايها الرجال قبل حلول الكارثة !

ـــ إنه يحنو على ابنته... ربما يعبر لها عن أسفه...

ـــ فلنسرع قلت لكم... لا تنسو انه سكران...

كان الرجل جالسا في بركة الماء الآسن محتضنا رأس ابنته التي استسلمت له استسلاما تاما. كان ينتحب بحرقة ووجهه مرفوعا نحو السماء يغمغم ويدمدم بنتف من الكلام المبلبل المبهم الغامض. وكان الجيلالي والفلاحون يركضون نحوه لمنع حدوث الكارثة. وكانت الفتاة ترتعد خوفا في يده مثل حمامة جميلة وديعة تنتظر لحظة الذبح الرهيبة.حاولت تخليص رأسها من قبضته الضخمة

فلم تستطع... حاولت تجريد يده اليمنى من المقدة فلم تجد الى ذلك سبيلا... حاولت استجداءه فلم يتململ عن وضعه قيد أنملة. كان ينظر الى السماء بوجه مصفر شاحب، وعينين زائغتين محمرتين، وكان صدره مسكونا بما يشبه الزوابع، وكانت يده اليمنى تتعالى في الهواء وتسقط مقدتها على عنق الفتاة، فيتطاير الدم على وجهه ويتساقط على أديم البركة محدثا فقاعات غريبة الألوان... وتوالت الضربات الواحدة تلو الاخرى وسط أنات الابنة وولولات الجيلالي والفلاحين والأم التي كانت قد حضرت لتوها... ولما أمسك الفلاحون بهذا الاب القاتل، كانت جثة ابنته هامدة مسجاة على قفاها في البركة وقد انكشف ثوبها الحريري الناعم عن ساقين بديعتي التنسيق والتكوين. بينما كان رأس الجثة يستريح أخيرا في مكان آخر...

هكذا اصبح الجيلالي شاهدا على مأساة حقيقية. هو الذي حضر الى هذا المكان لكي يساعد على ايجاد حل لقضية شغل عادية محدودة في المكان والزمان، هاهو ذا يجد نفسه غارقا في حمأة مأساة إنسانية لا يحدها حد،ولا يحيط بكنهها المعقد السري عقل ولامنطق. لكن أليست قضية الشغل نفسها مأساة إنسانية حقيقية؟ أليست جريمة الفلاح قاتل ابنته إلا الثمرة الطبيعية لما اسماه الجيلالي بن الطيب قضية شغل عادية؟ استغرب الجيلالي وهو يفكر في القضيتين ويجيل الطرف في الحاضرين، من غياب الفاعلين الاساسين في كل ماجرى: سوزان ودوفال. معمران وفلاحون. راسمال استعماري وعمل ماجور لفلاحين يعملون في ارض آبائهم واجدادهم لفائدة معمرين مغتصبين. وأنا الجيلالي بن الطيب، مادوري في كل ما يجري؟ شعر بالذل والمهانة... وبالخزي والعار... وود لو انفتحت الارض وابتلعته، ورأى نفسه في صورة الابنة التي حرك الاب رأسها حركة سريعة حاسمة. بصق في الهواء. ورأى الخطاطيف تملأ الفضاء تدريجيا... تجلله بلون الحزن والفجيعة... وادرك الآن ،في هذا الوضع المأساوي، المغزى العميق لتلك العبارة التي مافتئت تراوده وهو يعتلي جسد سوزان «احرث جيدا... حرفة بوك لا يغلبوك». فلاح بن فلاح... هذا انا... انا الجيلالي بن الطيب... أنا ابن هؤلاء الفلاحين المساكين ... انا الاب والابنة... انا المقدة والجثة

والراس... انا البركة الآسنة.. انا قطرات الدم والفقاقيع والروث... ياإلاهي! اعطني ظهرا قويا قادرا على حمل قدري المثقل بالزيف والدم والفجيعة...

ـــ ايها الفلاحون... خذوا هذا المجرم القاتل الى السلطة لترى في امره ماتراه... واجمعوا جثة هذه الفتاة وواروا جثمانها التراب... خذوا هذا المبلغ المالي لتصرفوه على مراسيم الجنازة والدفن...

تطوع بعض الفلاحين للقيام بهذه المهام... فاقتادوا الأب القاتل ذي الوجه المضرج بدم ابنته وهو غائص في بحران من الهذيان المحموم ،تتبعه امرأته مولولة جاثية التراب على رأسها لاطمة خدها ممزقة ثيابها، سكرانة من فرط الألم ونكبة الزمان ونكايات نسوة الجيران... اما الجيلالي فقد اتفق مع الحاضرين على تلبية مطالب الفلاحين كلها، وعلى رأسها إقالة جان دوفال من مهامه وتخليص الفلاحين من شروره ومآمراته...

وفي هذه الاثناء حضر دوفال، وحضرت سوزان... اما دوفال فقد استهان بالامر مداريا قلقه بنكت باردة سمجة، محملا مسؤولية ما حصل للاب وحده، مبرزا ما له من اياد بيضاء على الأب والام وابنتهما، مصرحا بأنه لولا حمايته لهم لكانوا قد ماتوا جوعا منذ أمد بعيد. أما سوزان فقد اعلنت عن اسفها لما حصل... ووعدت بأن تراقب الضيعة، وما يحصل فيها، عن كثب.

لم يكن الاسف كافيا لحل عقدة هذا الموقف المأساوي... ولذلك تدخل الجيلالي مخبرا سوزان بما اتفق عليه مع الفلاحين... اتفقت على تلبية كل المطالب المادية والمعنوية على ما فيها من تكاليف ضخمة، على حد قولها، لكنها عبرت بما لا يدع مجالا للجدال، عن عدم اتفاقها على اقالة دوفال من مهامه. وعندما اختلى بها الجيلالي بعيدا عن انظار الفلاحين وأسماعهم مراجعا إياها في الأمر، مذكرا إياها بأنه عقد اتفاقا باسمها ينص على تنحية دوفال من مهامه، أجابته بانها لو أقالت دوفال لأدى ذلك الى تبدد هيبة المعمرين وتمرد الفلاحين عليهم، وهو ما يشكل خطرا على النظام العام الذي أقامته الحماية منذ ليوتي. لم يستسغ الجيلالي موقف سوزان، وعز عليه أن يقابل الفلاحين وجها لوجه ليصرح لهم بأن صاحبة الضيعة نقضت ما أبرمه معهم... «من تكون انت حتى

تفوضك للتداول في قضيتنا»... هكذا قال الفلاح قبل قليل... صدق الفلاح وكذبت أنت آجويليلي... صدق الفلاح... نعم... نعم... صدق... الفلاحون صادقون لأنهم واقعيون في مثل هذه الأمور... أنت آجويليلي رجل مثالي تغلب عليك العاطفة والخيال، يغلب عليك مورينو الروخو، يقودك من أنفك دون أن تدري... والحصيلة هاهي: كلمتك غير مسموعة، ووجهك فقد ماءه وحمرته، أين نخوة الرجل فيك وأين شرفه... مورينو الروخو لا يعبأ بالكلمة ولا يأتمن إلا الى العقد المكتوب وفق القوانين الجاري بها العمل، ولا يبالي بماء الوجه والشرف، لا تهمه إلا المردودية وتحقيق المصالح والغايات... وأنت آجويليلي لن تكون رجلا إلا إذا زغت عن سنة مورينو الروخو... وإلا بأي وجه أقابل هؤلاء الناس... أنا الذي لا مصلحة لي في كل ما يجري... أنا الأداة الابدية لغايات غريبة عني... أواه... ياسوزان... كيف اواجهك... وبأي منطق... بمنطق مورينو الروخو أم بمنطق الجيلالي بن الطيب... لكن الجيلالي لم يستسلم أمام سوزان بل واجهها لأول مرة منذ أن عرفها معبرا لها عن رغبته العارمة في ان تراعي هذه المرة، هذه المرة فقط، مشاعره، وأن تصادق على إقالة دوفال من مهامه، مبرزا لها أن هذه الاقالة ستكتسي في الشروط المأساوية الحالية معنى آخريختلف عن المعنى الذي تكتسيه الإقالة العادية. غير أن سوزان بقيت واجمة كالحجر، متمسكة بموقفها الثابت لا تحيد عنه أبدا، منشغلة بمتابعة أسراب من الخطاطيف السوداء التي تكاثرت في فضاء الضيعة بشكل مثير... كان العرق يتصبب من جبينه... وكانت هي واجمة ساكنة... كان يتميز من الغيض... وكانت هي هادئة مطمئنة... كان يشعر بالذل والمهانة... لقد اعطيت كلمتي لهؤلاء الفلاحين وقد صدقوني، أتدركين ماذا يعني ذلك ياسوزان؟ أتدركين ماذا سيحصل في حالة ماإذا تراجعنا عن الاتفاق الذي ابرمته بالنيابة عنك؟حاول أن يقنعها بخطورة الموق... بيد أنها لم تقتنع... ولم تر في كلامه إلا تخويفا وتهديدا مبطنا ضمنيا... ودعته في لجة الجدال بأن يلتحق بهم وأن يشرب البحر وإياهم إذا لم يدرك أبعاد موقفها... والتحقت بالفلاحين مخبرة إياهم بقرارها فيما يتعلق بتشبثها بدوفال.

شعرالجيلالي بدوار في رأسه،وبحمى تستعر داخله ،تنتشر مزفزفة في خلاياه، تحرق كيانه، تشرخه الى نصفين متقابلين: الجيلالي / ومورينو الروخو.

الجيلالي يتقابل الآن وجها لوجه مع مورينو الروخو... مقابلة حاسمة، لا هوادة فيها أبدا... كانت النار تأكل مورينو الروخو داخله بدون شفقة ولا رحمة... وكانت النارتأكل الضيعة وتنتشر في مخازنها واحدا واحدا، تنتقل من الادارة الى مخزن الحبوب، ومن مخزن الحبوب الى مخزن القطاني، ومن مخازن العلف الى حضيرة الدجاج واسطبلات الخيول العربية الاصيلة، ومن ذلك كله الى ثلاجات الفواكه والخضر و الجرارات وآلات الحصاد والدرس...كان الفلاحون يمعنون في إحراق مرافق الضيعة التي أفنوا فيها حياتهم وكأنهم يحرقون فيها آلامهم وخيبات آمالهم، وكان الجيلالي يمعن في إحراق مورينو الروخو بلذة مسعورة، وفرح عارم بالخلاص النهائي. دخان يخرج من صدر الجيلالي ودخان يتعالى من كل مرافق الضيعة... تذلهم الضيعة والدوار ويسود الظلام ويختلط سواد الدخان بسواد الخطاطيف التي احتلت فضاءات الضيعة والدوار ويخرج الناس ضارعين وقد اعتقدوا ان الامر يتعلق بقيام الساعة. وفي هذا الظلام الدامس الغريب همس الجيلالي الذي كان قد احرق داخله مورينو الروخو تماما، همس في أذن سوزان التي شلت الحرائق المفاجئة قدرتها على التفكير والحركة:

ـــ نبهتك ياسوزان الى خطورة الموقف... فلم تنتبهي...لا تتصلي بي مرة أخرى... إنني لم أعد أصلح لك... وداعا... أنا ذاهب الى الرباط لتنفيذ مهمة كلفني بها الضابط... وأرجو أن تكون مهمتي الأخيرة... إنني أشعر بالتعب... سآخذ السيارة...

قبل أن تجيب سوزان،كان الجيلالي قد اختفى في الظلام الدامس الذي كان سواد الدخان قد امتزج فيه مع سواد الخطاطيف امتزاجا نهائيا... وبينما كان الجيلالي يسخن محرك السيارة، كانت طلقات رصاص الجند تلعلع في كل مكان. سواد الدخان، وسواد الخطاطيف، وسواد ساليكان... اللهم عفوك ورحمتك... قالها الجيلالي في نفسه وانطلقت السيارة كالسهم تطوي الارض طيا، هاربة من المكان والزمان، منفلتة من قبضة الماضي والحاضر، باحثة عن مستقبل لم تتحدد معالمه بعد.

الجيلالي بن الطيب

- 24 -

عادتْ سوزان إلى البيت عشيّة يوم الحادثة مثقلة بهمين ممضين: هَمّ مورينو الروخو الذي تركها منتفخَ القلب، مُحْمَرَّ العينين يكاد يتميز من الغيض، وَهَمّ الضيعةِ التي تركتْها لعربدة النار وجنون « ساليفان » وسعار الفلاحين الثائرين.

ماتتِ الفتاةُ ونبتتْ وردةٌ حمراءُ في دمِها المُراقِ على وَحَلِ البِرْكَةِ الآسِنَة. وسرعان ما امتزج دمُها بدم عشرة فلاحين قتلهم الجندُ الفرنسي أثناء الاشتباك الدامي. وفي دمهم ستنبتُ غدا أو ربما بعد غد حقولٌ من الفل والقرنفل والياسمين والنيلوفر... هذا ما رأته سوزان بعد انصراف الجيلالي أو هذا ما خيل لها أنها رأته. وتذكرت فجأة زوجها المسجى على قفاه في وحل دوار « الرجا في الله » ودمه ينبجس حارا لزجا من فتحة في صدره، في الثالثة بعد ظهر يوم ممطر، بعد أن أصابه « الألماني » المعروف بالجيلالي بن الطيب بطلقة بندقية قديمة. تمنت هذه المرة أيضا لو لم يمت هذا الجيلالي الكلب حتى تتمكن من انتزاع قلبه بيدها رافعة إياه في وجه الشمس منادية على رؤوس الأشهاد: أن تعالوا لتروا مصير قلب من كسر قلبي. وأمام الجميع فتحت فمها، وكشرت عن أنيابها، والتهمت القلب الراعف النازف. هذا مارأته سوزان، أو هذا ما خيل لها أنها رأته، وهي تستريح في هدأة هذا المساء الساجي من عناء يومها الدامي على كنبة في الشرفة المطلة على الجسر.

ـــ هناك دم في صدر قميصك... هنا... انظري... ماذا جرى لك ؟ أأنت بخير؟ قالت ماري وهي تدخل على سوزان التي مدت لها يدها بالسلام فضغطت عليها ماري بحميمية صادقة...

ـــ قلبي يدق من هذه المفاجأة.!!. لم أكن انتظر ان تزوريتني يا ماري!.. متى رجعتم من السفر؟ كيف حال الوالدة؟ سمعت انها كانت متعبة... قالت سوزان وهي تعتدل في جلستها معبرة عن فرحتها بالزيارة المباغتة، واضعةً كفها على بقعة الدم الصغيرة في صدر قيمصها كما لو كانت تحتضن وردة راعفة و تريد إخفاءها عن أنظار ماري...

أحستْ ماري بحرج سوزان. ولذلك لم تكرر عليها السؤال، وطمأنتها على صحة الوالدة، وحكتْ لها كل مارأته في إفران طيلة أيام مقامها فيه ولم تغفل ذكر مطاردة الأعور لكلارا وتصريحه لها بهيامه في ذلة العاشقين الكبار وصَغَارِهم، وختمتْ كلامَها بالجزم بأن إفران جنة حقيقية منوهة بعبقرية الناحت الذي حولتْ يدُه صخرةً صلدة ضخمة إلى أسد جاثم على الأرض يحلم بغابات بِكْرٍ لا تغربُ عنها الشمس ابدا.

كان الظلامُ قد أرخى سدوله على الجسرِ والأشجارِ والبيوتِ التي أخذتِ الأنوارُ تتدفق من نوافذها بيتاً بيتا... نهضتْ سوزان فاشعلتْ مصابيحَ بيتِها حتى توهّج ماء النَهْرِخلف الجسْرِ بلالائِها المتدفق. وجلستْ بالقرب من ماري... واشعلتِ الراديو ذا الإطار الخشبيّ اللامع بحركة آلية وهي تقصّ على ماري ماجرى لها في الضيْعة... فاختلط حكْيُ سوزان بموسيقى الجاز المبحوحة الراعفة الملتاعة... وأنهتْ حكْيَها المتوترب التشكي من مورينو الذي تركها في بداية محنتها متجها إلى الرباط!

لحظتئذ كان الجيلالي قد وصل إلى الرباط في موعده المحدد... قرب محطة القطار... فوجد «رعشان بلفقيه» و« جاك بوازيي» في انتظاره... عرفهما من أول نظرة وعرفاه بسهولة... لا شك أنهما قرءا ملفه وحفظا صورته، مثلما فعل بملفهما وصورتهما تماما. وتبين أن صورتهما تنطبق ماعدا في بعض التفاصيل الصغيرة مع الأصل الماثل أمامه الآن. «فرعشان» مصفر الوجه قليلا، ربما لم ينم الليلة الماضية، وقد يكون خائفا من شئ ما...أما « جاك بوازيي» فطويل الشعر إلى حد أنه أرسله على قفاه على شكل ظفيرة. ماعدا ذلك فالرجلان مطابقان لصورتيهما تماما!

أخرج جاك بوازيي لفافة تبغ من جيب معطفه الأسود الطويل، وراح يدخنها بشره بالغ مخفيا بها توتره الشديد. وبعد أن تبادل الطرفان كلمات السر، همس بوازيي بلهجة آمرة ضاغطا على أسنانه: فلننطلق إذن! وانطلق مسرعا إلى السيارة السوداء التي كانت تقبع في الساحة المجاورة، مستحمةً في شلالات نور أصفراعتاد أن يتدفق بسخاء طيلة الليل من مصباح ضخم مثبت في أعلى العمود الكهربائيْ. وعندما فتح الباب كان الجيلالي ورعشان قد التحقا ببوازي ودلفا إلى المقاعد الخلفية، بينما تكفل بوازي بالسياقة.

انطلقتِ السيارة بسرعة، واجتازتْ قوسا أثريا قديما، وقطعتْ شارع النصر في لمح البصر، وسارتْ في الطريق المؤدية إلى القامرة... أشجارٌغامضة... وأنوارٌ هنا وهناك... شاحناتٌ عسكرية تجتازها السيارة بين الفينة والأخرى... جنودٌ في كل مكان... حواجزُ شرطة المرور... انتبه الجيلاليُّ للمرة الأولى إلى أن شوارع المدينة خالية من المارة تقريبا... لم يسائل نفسه آنئذ لأنه كان غائصا في بحران خيالاته، يقلب أموره على كافة أوجهها، محاولا العثور على نفق ينبجس منه نور الفجرفي سراديب أعماقه السرية القاتمة.

ــــ هل هناك حالة طوارئْ؟

قال الجيلالي بن الطيب وهو ينظر إلى ظفيرة شعر بوازي...

ــــ عش نهار تسمع خبار.!!.

قال رعشان متعجبا... ألا تعلم مانحن بصدده.؟!.

ــــ لا ! لا أعلم...

قال الجيلالي بهدوء.

قهقه بوازيي ورعشان مستهزئين ساخرين... وتجرأ رعشان على الجيلالي فأخذ رقبة عنقه وجره منها كما لو كان الجيلالي كبشا... لم يستسغ الجيلالي هذا النوع من المزاح، فاستدار نصف دورة لاكما كرش رعشان بمرفقه لكمة عنيفة حاسمة، سقط على إثرها رعشان فوق رأس المقعد الأمامي الأيمن مغمى عليه... وأمسك الجيلالي ظفيرة بوازيي، فجَرّها حتى اقتلع بوازيي من مقعده وأصبحت السيارة في مهب الريح، مسعورة مجنونة تتلوى في الطريق يميناً ويساراً غير

عابثة باحتجاجات السيارات الأخرى التي اختل توازنها، فانقلب بعضُها في حافة الطريق، بينما حالف بعضُها الآخر السلامة فتابع طريقه لاعنا شاتما متوعدا صاحب السيارة الملعونة بالويل والثبور.

لم يتخلص بوازيي من قبضة الجيلالي إلا بعد أن اعتذر عما بدر منه. وتعهد بألا يكرر فعلته أبدا. وشرح للجيلالي بتفصيل ممل أحيانا كل الملابسات المحيطة بالظرف الراهن، وبعلاقات الوطنيين مع الإقامة العامة، وبعلاقات محمد الخامس بهما معا، منتهيا إلى أن النقابة الوطنية أقرت إضرابا عاما قد يشل الدار البيضاء والمدن الأساسية، وقد يتحول إلى حركة عصيان مدني وخيمة العواقب على الوجود الفرنسي في المغرب، بل في شمال إفريقيا برمتها. مسح وجهه المبلل عرقا بمنديل قديم، وتابع حديثه مؤكدا على الطابع السياسي لهذا الإضراب الذي تتوخى منه النقابة ظاهريا إبراز التضامن مع الشعب التونسي إثر مقتل فرحة حشاد على يد «اليد الحمراء» الفرنسية... ويتم هذا الاضراب السياسي في في إطار تنسيق شامل بين الوطنيين (سلفيين وشيوعيين) في كل من المغرب والجزائر وتونس، وبين هؤلاء والحركات القومية العربية الممثلة في القاهرة.. وبينها والحركة الشيوعية العالمية!!

ـــ إذا فهمتك... الأمر لا يعدو أن يكون مؤامرة مدبرة ضد فرنسا في العالم العربي والعالم؟! ألا ترى أنك تغالي قليلا؟! ألا ترى أنك تنفخ في حجم هذا الإضراب وابعاده؟!

ـــ أنا لم أعبر لك عن رأيي... هذا رأي السلطات المختصة بتتبع الحركات السياسية والاجتماعية الاحتجاجية في المنطقة... ورأيها لا يناقش... تستند عليه أجهزة الحماية ـــ كما تعلم ـــ في تدبير شؤون الأهالي... لمصلحتهم ومصلحة فرنسا...

ـــ ومع ذلك... لا يمكن تفسير كل شئ بمنطق المؤامرة...

ـــ لا يحق لك، ولا لي، الاعتراض على رأي السلطات المختصة.. السلطات وحدها تمتلك الحقيقة لأنها تمتلك القوة اللازمة للبحث عنها وبلورتها وفرضها... ثم أنت تعلم ماتقوم به لجنة المغرب العربي في القاهرة، بقيادة محمد بن

عبدالكريم الخطابي، من أعمال معادية للوجود الفرنسي في شمال إفريقيا والعالم العربي بل في كل مستعمرات فرنسا بالعالم .!!. الإضراب سياسي قلت لك، وليس إضرابا نقابيا مطلبيا .!!. تقف وراءه الشيوعية العالمية .!!. ويرمز إلى التعبير عن إرادة الاستقلال عن فرنسا، وعن إرادة الوحدة المغاربية ووحدة العالم العربي . . .

ـــ آه ! فهمت !!

ـــ وفي هذا الإطار تندرج مهمتنا نحن.. وهي تنحصر في تلقين هؤلاء المضربين عملاء الشيوعية العالمية درسا لن ينسوه أبدا.!!. الخطة موجودة وسنطلع عليها جميعا عندما نلتحق بأعضاء مجموعتنا بالدار البيضاء.

كان بوازي يشرح ويوضح بكل جوارحه، وكان الجيلالي يسمع بهدوء ويفكر فيما يسمعه دون أن ينبس ببنت شفة، وكان رعشان سادرا في غيبوبته، وكانت السيارة تقترب شيئا فشيئا من الدار البيضاء.

كان الظلام دامسا، والسيارة تتمايل من جراء ارتطام عجلاتها بحفر هنا وهناك... وأصبحت السيارات المارة في اتجاهها أو في الاتجاه المعاكس منعدمة... صمتٌ في الداخل... وأزيزٌ منبعثٌ من محرك السيارة... ورائحةُ التبغ والكحول المختلطة بزيت شحم الغنمي المنبعثة من كتلة جسم هذا المخلوق المدعو رعشان بلفقيه... فتح بوازي المذياع... كانت حصة الأخبارقد ابتدأت منذ مدة.. تابعها الجيلالي بحرص كبير.. اتكأ بمرفقيه على ركبتيه وأصبح أذنا كبيرةً كبيرة... كان المذيع يتحدث عن حالة الطوارئ ودواعيها، وعن الإضراب المرتقب ودواعيه، وكلما كان المذيع ينتقل من فكرة إلى أخرى كان بوازي يهز رأسه قائلا بفخا: ها... قلتها لك.!!. أليس كذلك.؟!. وكان الجيلالي يجيبه في نفسه، صامتا، نعم قلت لي ذلك... نعم... المستعمرون ملة واحدة، ينطقون بمنطق واحد، وإنِ اختلفتْ مواقعُهم ولغاتُهم وأجناسُهم... ورأى الجيلالي في اهتزازات الطريق المضاءة بمصابيح السيارة وشمة أمه وسط زحام كثيف مختلط سديمي، تتحرك صعودا وهبوطا، كزورق يغالب موج البحر الهائج العاتي.

أما ماري فقد رأت أن سوزان (التي كانت قد انتهت من رواية الأحداث المؤلمة التي عاشتها في الضيعة) قد ظلمت مورينو وأذلته إذلالا كبيرا أمام الفلاحين. وإذا ما صدقت إفادات الأعور بصدده فستحصل الكارثة.

ـــ أية إفادات؟... قالت سوزان وهي تشعل لفافة تبغ بأصابع مرتعشة...

ترددت ماري في الجواب. لكنها أذعنت تحت ضغط سوزان وإلحاحها، فقالت:

ـــ إنني أرى أن نسيج وجودنا في هذا البلد أصبح يتفكك يوما بعد يوم ... وأنا أرى ذلك التفكك ماثلا في تفاصيل حياتنا اليومية، في ضيعتك مثلا... في علاقتي بأبي وأمي، في علاقاتي المتبادلة بك وبغيرك: بمورينو وكلارا والأعور، وأصدقائي بجمعية صداقات المغرب... إنني أشعر باهتزاز خفي عميق يزلزل أسس حياتنا الجماعية في هذا البلد... أعتقد أننا على مشارف تحول تاريخي حاسم..

ـــ لا أعلم ماذا تعنين ياماري... هناك من يتطيَّر حتى من هذه الخطاطيف التي غزت المدينة...!!

ـــ دعينا من الخطاطيف الآن.!!. أتعلمين لماذا أتيت إليك فور سماعي بوصولك إلى البيت؟ إذن، فلتعلمي ياسيدتي بأنني زرتك هذا المساء لألتمس منك تسليمي ذلك الملف الذي عثرعليه مورينو بالقرب من جثة بيير جاكوب ليلة اغتياله.. أتذكرين؟

ـــ آه... ذلك الملف... لقد وضعته في مكان ما... ربما في المكتب... أو غرفة النوم... لم أعد أتذكر... لكن... قولي... ماعلاقته بمورينو الروخو...؟

ـــ لست أدري على وجه التحديد:.. لكن الأعور صرح مهددا كلارا في إفران بعد أن صدته عنها بعنف شديد بأنه سيحرق قلبها كما أحرقت قلبه... وبأنه سيثيراهتمام الناس بالملف الذي كونه بيير جاكوب قبل مماته عن شخصية مورينو الروخو... ولما سألته عن علاقة مورينو بكلارا وعما يمثله هذا الملف من خطر على مورينو، أجابني بأن كل الأجوبة توجد في الملف، وبأن الملف يوجد في حوزتك أنت ياسوزان. فهل لك أن تخبريني بما يوجد في الملف؟ هل صحيح أن مورينو كان في الماضي عضوا في عصابة إسبانية للمخدرات، وأنه أصيب في رأسه فاقدا ذاكرته في مناوشات بين أفراد الشرطة الفرنسية ورجال العصابة؟.

ـــ لست أدري...!! لم أقرأ الملف... ولا أعلم أن مورينو قد اهتم في يوم ما بكلارا، قد يكون اليأس والحقد قد ألهب خيال الأعور... وهذا كل ما في الأمر... قولي... ماذا حدث في إفران بين الأعور وكلارا؟

ـــ ألم تلاحظي أن الأعور صار مبتهجا للحياة، حليق الدقن دائما، يرتدي نظارات عاكسة للضوء، وبدلة رمادية نظيفة، وربطة عنق مزدانة برسوم الزهوروالورود والرياحين... ويغني دائما بلهجته الريفية : ياورد مين يشتريك...؟!!.

ـــ إنه يحب .!!. أنا أعلم ذلك... وتأكدتُ منه بما لايدع مجالا للشك عندما زرته في المستشفي ذات ليلة لن أنساها أبدا... إلا أنه في المقابل... وهذا ما يجب أن أصرح لك به...لأنه... يتعلق بك...

ـــ بي أنا ؟!

ـــ نعم... كان الأعور قد أخبرني بأنكِ كنتِ على علاقة سرية ببيير جاكوب... وبأنك حامل منه... وهذا سبب إغمائكِ ليلة اغتياله...

ـــ كيف؟! ياللهول! الأعور قال لك ذلك؟!!...

ـــ نعم... وانتظرتُ أن ينتفخ بطنك... لكنه لم ينتفخ... اطمئني... الأعور أصبح في السنوات الأخيرة متصابيا، لم يعش مراهقته في طفولته... وهاهو يعيشها بعد أن أصبح رجلا كهلا... وهذا كل ما في الأمر...

فقدت ماري توازنها من شدة التأثر... ضربت كفا بكف... وسرت في جسمها زوبعة غضب أهوج... تناولت حقيبة يدها، ودون أن تحيي سوزان غادرت الشرفة مهرولة... لم تعبأ بتوسلات سوزان واستعطافاتها الصادقة... ولم تلتفت يمنة ولا يسرة حتى كادت أن تسقط في السلم الرخامي الفسيح المؤدي إلى الباب الخارجي...

غاصتْ سوزان في همومها الصغيرة والكبيرة... تتجرع وحدتها المرعبة... وضعتْ موسيقى راقصة في الفونوغراف... غيرتْ ثيابها بثياب وردية فضفاضة من الحرير الملون، وتناولتْ كؤوسا من الويسكي، واحتضنتِ القنينة كما لو كانت

تراقصها، وتحولتِ القنينةُ في خضم دورات الرقص المحمومة إلى رجل؛ وتحول الرجلُ إلى مورينو الروخو... حبيبها الأبدي... حبيبها رغم أنفه، ورغم ماري، وكلارا، والأعور، ونساء الضباط جميعا، والعالم بقاراته الخمس، والكون... ارقص حبيبي... أرقص..!! صاحت سوزان بملء فيها متحديةً قدرها... متحديةً توجساتها وشكوكها الرهيبة... ارقص حبيبي... وضمت مورينو إلى خصرها وذابت فيه وذاب فيها... تحت زخات الموسيقى ونظرات زوجها التي ظلت ترمقها طيلة هذا الوقت من إطار صورة التقطتها له أمام باب منصور العلج في إحدى الصباحات الربيعية الناعمة... ارقص حبيبي... ارقص...

كانت السيارة تطوي الطريق الطويلة المحفوفة بالظلام طيا سريعا مسترسلا... وكانت الوشمة تهتز أمام بصر الجيلالي، هناك بعيدا، حيث تلتقي أضواء السيارة بظلمة الليل الدامس. كاد ينادي أمه التي غاصت في الزحمة حتى لم يعد يتبيّنُ منها إلا وشمتَها الجميلة المحفورة على جبهتها الوضاءة... كاد يناديها بأعلى صوته؛ غير أنّه خاف من أن يتهمه «بوازيي» بالخرف... فكبح رغبته العارمة... وسالت دموع دافئة على وجنتيه... ومن خلال دموعه، التمعت صورة أمه بين عينيه وهي تغسل شعرها القوي الطويل الفاحم بالغاسول البلدي في جفنة من البلاستيك الأحمر... كانت في العشرينات من عمرها... وكان هو صبيا يلبس جلبابا من الكتان الأسود، ويلبس تحته «تشاميرا» ناصع البياض كان قد خاطه له فقيهُ القرية. فقد كان الفقيه خياطا، لا يخيط الكلامَ في أفواه الصبيان فقط بل يخيط النسيج أيضا: النسيج الاجتماعي، ونسيج كتان الألبسة. والهدف واحد هو أن يضمن الفقيه لكل واحد من أفراد الجماعة أن يكون «مسرارا»: «مسرارا» في أقواله وأفعاله وعلاقاته بالآخرين، «مسرارا» في زيه ولباسه...

حملق الصبيُّ في أمه وهي تغتسل مدندنة بأغنية جبلية قديمة... أحب شعرها، وأحب أغنيتها وأحب أكثر من هذا وذاك وشمتها المحفورة في الجبهة الوضاءة. لم يتمالك نفسه فسألها :

ـــ وشمتُكِ جميلة ! يا أمي !!

أخرجتْ رأسها من كتلة الشعر المسبل المبتل بالماء، وسألته ضاحكة :

ـــ أحقا؟!

ـــ والله إنها جميلة جدا.!!. هل وُلِدْتِ بها أم صنعْتِها لنفسك؟

ـــ لاهذا ولاذاك يابني... لم أولد بها ولم أصنعها بمحض إرادتي لنفسي... هذه الوشمة علامة قرر الأهل حفرَها على جلد نساء البلدة الحسناوات، وهن شقراوات في الغالب الأعم، لتمييزهن عن النساء الفرنسيات، أعني عن الروميات... أتدرك ما أقصده.؟!.

حك الجيلالي جبهته بحركة لا إرادية، وهو يفكر فيما تقاطر على مخيلته من صور الماضي البعيد... هكذا إذن... قال الجيلالي في نفسه غير عابئ بثرثرة بوازي ولا بشخير رعشان المغمى عليه... الوشمة علامة تمييز، حد فاصل، هوية ثقافية تاريخية مرسومة بالإبرعلى الجسد. ضريبتها الدم والألم... قد ينسلخ الإنسان من زيه، من لغته أحيانا، مما تقادم في منظومة معتقداته.. قد تزلزلها يد الزمن، وتمحوها كما تمحي موجات اليَمّ كتابةً مرسومةً في أعماق الرمال... لكن هل يمكن أن ينسلخ المرء من جسده.؟. من جلده؟ دون أن يفقد وجوده ؟!...

وقفت السيارةُ قرب عمارة ضخمة بعين الذئاب... كان حارسها يغط قرب مدخلها الرئيسي، في نوم عميق. وكانت الأضواء تملأ المكان بما فيه منبعثةً من مصابيح الشارع، ولوحات الإشهار المثبتة على المتاجر والمطاعم، والمقاهي والخمارات، والمراقص والملاهي الليليّة... كلابٌ ضالة هنا وهناك... مخموررون يعانقون أحلامهم الكسيحة، ومخمورات كسدت مُتعُهُنَّ في سوق الهوى فحطمن كؤوس الطل على أفواههن المترعة بحب الحياة السهلة المخملية. مدينة نائمة... لا... بل مدينة متربصة تتأهب لصنع لحظة تاريخية حاسمة...

لازال المذياع يغني... أغنية أحبها الجيلالي حبا كبيرا... من مغنيها ؟! تساءل الجيلالي... غام الإسم في ذاكرته... استعاذ من آفة النسيان... تذكره الآن... نعم... هو... الحسين السلاوي... هذا المغنيُّ الشعبيُّ البارع... إنه أشبه مايكون بالشيخ درويش في مشرقنا العربي قال الجيلالي في نفسه... تماما.. تماما... شعر بالفرح وهو يردد مشرقنا العربي، مغربنا العربي... كانت «نا» ترن رنة خاصة في فمه... وكأنها تحتوي على ذاكرته... وكأنها جذر يصل أقدامه بأعماق هذه الأرض ومسارات الزمن منذ بابل وآشور والفينيقيين والفراعنة والأمويين والعباسيين والأدارسة...

نشرةُ الأخبار من جديد... قتلى جدد في الفيتنام... اجتماعُ لجنة تصفية الاستعمار في الأمم المتحدة... كلامٌ عن مبدأ تقرير المصيروشروطه... أخبارٌ عن اعتقالات واسعة في صفوف الوطنيين المغاربة و التونسيين والجزائريين، وهجومٌ على علال الفاسي المقيم بطنجة وعلى النقابة والنقابيين وزعماء الجبهة، وعلى السلطان الذي لم يقبل الإصلاحات الفرنسية وطالب بحكومة وطنية مؤقتة تفاوض فرنسا في شان الاستقلال... إضرابات العمال في فرنسا... وتحسن الميزان التجاري الفرنسي... وارتفاع أسهم البورصة...

خرج بوازيي من السيارة، وسأل الجيلالي عما إذا كان رعشان قد مات، لأنه لم يتحرك منذ ان فقد وعيه، ولم يشخر منذ آن اقتحمت السيارة أول شارع في الدار البيضاء.

وضع الجيلالي أصبعه على وريد عنق رعشان... كان نابضا بالحياة... حمله على ظهره ونقله من السيارة إلى مدخل العمارة... أفاق الحارس مذعورا... كاد أن يصرخ عندما رأى رعشان مرتخيا كالميت، غير أن بوازيي منعه بإشارة متوعدة صارمة من يده. كف الحارس عن محاولة الاستغاثة، عندما تعرَّف على بوازييه، واعتدل في وقفته وأدى التحية العسكرية وهو يصيح: نعم سيدي !!

تطوع الحارسُ فاحضر بصلة وشقها تحت أنف رعشان بلفقيه. شهيق وزفير وعطس... انتصب رعشان واقفا على رجليه، وهو يمسح أنفه وفمه من ماء لزج نتن. وعندما رفع الجيلالي يده ليفتل شاربه الأيمن، تراجع رعشان وبوازيي خائفين.. لكنه أحاط ظهرهما بذراعه ودفعهما برفق إلى داخل العمارة حيث كان أعضاء الجماعة الباقين ينتظرونهم للاطلاع على خطة العمل وتوزيع المهام التي تقرر تنفيذها ابتداء من الصباح الباكر.

كانت الشقة 13 واسعة مفروشة على الطراز الأوروبي... وفي وسط الصالون، كانت جماعة من الشبان تتناقش بصوت عال... كلهم كانوا يلبسون بدلات سوداء ويغطون رؤوسهم بقبعات سوداء تغطي حافاتها جباههم وحواجبهم، ويضعون نظارات سوداء على اعينهم... وكانت الرشاشات والمسدسات

وخراطيش الرصاص في كل مكان... وكان الشبان يسألون والشيخ الوجيه الذي تتلاقى أعينهم عنده يجيب بهدوء وطلاقة وثقة واضحة بالنفس... قال عند بوازيي للجيلالي همسا بأنه حاكم المدينة: بونيفاس... لكن الجيلالي كان قد تعرف عليه من أول نظرة، فقد سبق أن خدمه عندما كان يزور بيت الضابط في مكناس قصد التنسيق بين كبار المعمرين وإعداد الخطط للضغط على الإقامة العامة بالمغرب، وعلى الإدارة الفرنسية بباريس.

رحب الحاضرون بالجيلالي وبوازيي ورعشان. وأشار بونيفاس إليهم بالجلوس فجلسوا... ولخص لهم الوضع العام كالتالي:

ــــ الإقامة العامة بقيادة الجنرال كيوم تريد من الملك أن يوافق على الإصلاحات وفق مبدإ السيادة المشتركة بين الأوروبيين والمغاربة...

ــــ والملك يرفض ذلك ويتمادى في إضرابه عن توقيع الظهائر... ويتحالف مع حزب الاستقلال والوطنيين الآخرين وينسق معهم المواقف والأدوار... ويطالب بإلغاء الأحكام العرفية وبتأسيس حكومة وطنية مؤقتة تحت إشرافه تتفاوض مع الإدارة الفرنسية لإيجاد حل لما يسميه بالقضية المغربية في اتجاه استقلال المغرب وتاسيس برلمان وحكومة دستورية على النمط الديمقراطي...

وفي هذا الإطار يتحرك الوطنيون المغاربة في طنجة وباريس والقاهرة وسوريا وبيروت ونيويورك مطالبين بالاستقلال وتقرير المصير... والغريب في الأمر أن عددا من الفرنسيين يساندونهم، لا أقصد الفرنسيين الشيوعيين فهؤلاء اعتدنا على خيانتهم لمصالح فرنسا العليا، لصالح الأممية الشيوعية السوفييتية، وإنما أقصد الفرنسيين الليبراليين الديمقراطيين وبعض كبار الأدباء والمثقفين وأساتذة الجامعات والمعاهد العليا الفرنسية...

أتعرفون ماذا يعني ذلك أيها الشباب؟ إنه يعني إعلان الثورة على الحماية الفرنسية لهذا البلد الذي مهرناه بدمنا جيلا بعد جيل منذ 1912 بل قبل ذلك بكثير.. ونحن المعمرون الفرنسيون لسنا مستعدين أبدا للتنازل عن شبر واحد من

هذا المغرب الذي صار جزءا لا يتجزأ من كياننا، ولن نخون أجيال شهدائنا الأبطال الذين اشتروا هذه الأرض بدمائهم الزكية.!!. لن نخون.!!. لن نخون.!!.

الموت والعار للخونة.!!!..

وتعالت حناجر الحاضرين بترديد هذه العبارات الأخيرة بحماس بالغ انتفخت من جرائه أوردة أعناقهم، واحمرت وجوههم، وفاحت رائحة الدم والموت في أجواء الغرفة... في هذه الأثناء كان الجيلالي يردد ما يرددونه ويفكر في هؤلاء المعتوهين الذين يدعون حب المَغرب متناسين أن المغرب تاريخُ حضارةٍ ودولةٍ قبل كل شيء، تاريخٌ ممتدٌّ على مدى قرون ضاربة في القِدَم...

غادر بونيفاس الحاضرين، وهو يحرضهم قائلا:

ـــاضربوا بدون رحمة!! بدون شفقة.!!. نريد أن نلقن لأعدائنا في الداخل والخارج درسا لن ينسوه أبدا... وأعِدُكم بأنْ أعملَ كل ما في وسعي لإقالة الملك من العرش والقضاء على حزب الاستقلال والنقابة والشيوعيين وكل من يعادي مصالحنا في هذا البلد...

ـــ صفق الجميع بابتهاج... وردد بعضهم المارسييز بحماس فائق!...

لم تكن وجوه الحاضرين غريبة عن الجيلالي... فقد تعرف على معظمهم أثناء التداريب العسكرية التي تلقاها معهم في ضيعة مارسيل بمكناس... كان مورينو يردد معهم ما يرددونه، ويصفق مثلما يصفقون، غير أن الجيلالي كان في الآن ذاته منهمكا في مناجاة حقيقية مع نفسه يحدثها بلغة مرموزة لا يفهمها إلا هو... لغة شبيهة بوشمة أمه... نعم... بوشمة أمه المحفورة على الجبين الوضاء...

- 25 -

7 ديسمبر صباحاً...

استفاق الجيلاليّ من نومِه... وأطلّ من نافذة الشُّقَّة التي كانتْ في الطابقِ السابع ... كانتِ المدينةُ قد استيقظتْ منذ مدة... الشوارعُ واسعةٌ نظيفةٌ يتوسّطها ممشى مرصّف على أحدث طراز تحفُّه مساحاتٌ خضراء مزينة بشتى ألوان الزهور والورود والرياحين... والنخيلُ يمتد على مرمى البصر، يرافق الشوارع في سفرها نحو الأفق البعيد البعيد.. المقاهي والمتاجر والأبناك وشركات التأمين ووكالات الأسفار كلها فتحتْ أبوابَها، عارضةً خدماتِها على زبنائها التقليديين والجدد. غير أن المارة قليلون، والزبناء أقل... بعض السيارات تمر بين الفينة والأخرى راكضة كالهررة... بعض الشاحنات العسكرية وسيارات الشرطة تسير الهوينى، وتتوقف أحيانا أمام كل ما يثيرانتباهها من قريب أو بعيد... تعتقل كل مغربي يتنفس في هذا اليوم هواء الأحياء الأروبيّة الراقيّة.. كلُّ المغاربةِ مدانون حتى تثبت براءتهم... أحيانا، كانت تخطئ التقدير فتعتقل مقيمين من أصل إسبانيّ أو إيطاليّ أو من جنوب فرنسا، فتعتذر وتطلق سراحهم...كانت الدار البيضاء مدينة كوسموبوليتية بامتياز لا تشبهها في المغرب إلا طنجة... ووراء هذا المشهد، كان البحر ممتدا إلى مالانهاية له، ينشر رطوبته المنعشة على الدار البيضاء كلها، دون تمييز بين الأجناس والقوميات والديانات... لا يعبأ بالعرق والتاريخ والزمن... مثله في ذلك مثل تلك النوارس البيضاء السابحة في هذا الفضاء الصافي... فوق البحر... فوق المراكب الشراعيّة والسفن الضخمة...تذكر الجيلالي لقلاقي مكناس الوديعين... تذكر الخطاطيف... تذكر طامو زوجته... تذكر موسى. وتذكرماري... وتذكر سوزان التي عاهد نفسه منذ أحداث

الضيعة على ألا يدعوها إلا باللعينة. هل سيُكْتَبُ له أن يعود حيّاً إلى مكناس؟ وإذا لقيَ حتْفَه في هذه الأحداث الرهيبة التي تتهيأ للانفجارعلى مسرح التاريخ، هل سيُدفَنُ في ثرى مكناس؟ مكناس الجميلة جمال وشمة امه... مكناس الجليلة جلال وشمة أمه.. مكناس الرائعة الأبيّة العزيزة التي حملها منذ سنوات بين حناياه أينما حل وارتحل.

لم يكن الجيلاليُّ يخاف من الموتَ... فقد كان يعلم أن الموتَ قَدَرُ الإنسان ومصيرُه النهائيّ... كان يحلو له أحيانا أن يروي قصة الرجل الذي رأى الموت... في بغداد... فهرب منها إلى سمرقند، وهو لا يعلم أنها ضربت معه موعدا منذ الأزل، في سمرقند بالذات، لا في بغداد .بَيْدَ أنّ الجيلاليَّ كان يرغبُ في أن يكون ليومِه غد، ولغده غدٌ آخر، هو الذي حُرِمَ مِنْ أنْ يعيشَ حياتَه كما يحب، وكما يختار... أمنيةٌ واحدةٌ يتمناها من الحياة هي أن يعود من هذه الأحداث المقبلة الفواحة برائحة الدم سالما كيما يستعيدَ ذاته من جديد،كيما يُصلح ما أفسدته يدُ الزمن المستلب، يدُ الزمن الضائع ،كيما يعيش حياته التي يقرر هو مسارَها وطعمَها، ورهاناتِها وأهدافَها، لا الحياة التي يقررها له الآخرون... الحياةُ الذريعة... الحياةُ الشيء... الحياةُ الموت... حياةُ سيدتي... حياةُ سيدي... حياةُ آنستي... لا حياتي أنا... أريد أن أبني حياتي أنا !! وأعيش حياتي أنا!! ياعالَم!! هل أطلبُ شيئا مستحيلا؟!

لكنْ، إذا كان الموتُ وسيلتَكَ الوحيدة لاستعادةِ ذاتكَ، وانتزاع حقكَ في اختيار حياتك ومصيرك، فهل تجبن وتتراجع أم تتقدم لمعانقة الموت : فإذا ما عانقك العناق الأبدي أراحك من تمزقك ومفارقاتك وثنائيات شخصيتك المعذبة البئيسة، ومكنك من الدفاع عن كرامة المحرومين من حريتهم وكرامتهم الوطنية ، المقتلعين من جذورهم، المستخدمين لغايات لا يعلمون عنها شيئا، وغالبا ماتكون على حسابهم، اما إذا لم يعانقك الموت فستتمكن من تحقيق اهدافك في هذه الأرض قدر استطاعتك وحسب إرادتك... ستنتشق لأول مرة هواء نقيا يحق لك أن تدعي أمام العالم جميعا أنه هواؤك، أنه نصيبك في هذه الأرض ...

انهمك الجيلالي في بحران هذيانه، وتأملاته، ولم يحس برفاقه الذين كانوا قد لبسوا لباسهم وتحلقوا أمام مائدة الإفطار، إلا بعد أن التحق به بوازيبي، أمام النافذة المطلة على الشوارع والعمارات والبحر، داعيا إياه إلى الفطور...

تناول الحاضرون فطورهم، وتسلموا من رئيس الجماعة شيكاتهم بعد أن وعدهم بتسليم الأحياء منهم، بعد العمليات، وثائق ملكية أراضي فلاحية... ضيعات لا يرحل عنها الخصب أبدا... اطلعوا على الخطة التفصيلية، ووزعوا المهام فيما بينهم، وانقسموا إلى جماعات صغيرة من ثلاثة أفراد: سائق سيارة سوداء من نوع « طراكسيون إيفان » وقناصان مزودان بمسدسات ورشاشات خفيفة، والكل يلبس بدلات سوداء وقبعات سوداء قاتمة توحي بالحداد ورهبة الموت.

وجد الجيلالي نفسه في السيارة السوداء، في المقاعد الخلفية، إلى جانب بوازيبي، أما السائق فكان غريبا عنه... لم يكن ينتمي إلى المجموعة التي تدربت في مكناس... كان شخصا ودودا رغم لهجته المارسيلية ورائحة دخانه الرديء... لاشك أنه من قدماء الشرطة السرية، فهو يعرف الدار البيضاء حجرة حجرة، وشجرة شجرة على حد قوله... متزوجٌ من امرأة ايطالية منحدرة من مدينة « باري »، وله أربعة أبناء، كلهم ازدادوا بالدار البيضاء... فهم مغاربة من حيث المولد... ولذلك لم يكن يكره المغاربة كرها عنصريا ...كان مضطرا إلى كرههم بحكم الوظيفة فقط.. وهذا كل مافي الأمر... ابنه الأكبر انتمى إلى الحزب الشيوعي عندما بلغ الباكالوريا، ودرس على يد أساتذة كوليج المارشال اليوتي اليساريين. ابنته الوسطى ارتبطت بعلاقات صداقة بمغربي من الفئات الوسطى يحب فرنسا ويهيم بها وبلغتها ويتقن الفرنسية أكثر مما تتقنها هي...

أحس الجيلالي بتعاطف مع هذا الشقي وهو يستمع إلى قصته باهتمام كبير. وانتبه إلى أن هناك نوعا من التقاطع بينهما: هذا السائق يحب المغرب ويهيم به ويعتبره وطنا لأبنائه، لكنه يجد نفسه رغم ذلك مضطرا بحكم وظيفته إلى محاربة المغرب، واضطهاد أبنائه، والجيلالي يحب فرنسا ويهيم حبا بالفرنسيين لكنه مضطر بحكم الاستعمار الفرنسي ونداء الحرية ومطلب استعادة

الهوية والذاكرة التاريخية إلى معاداة فرنسا الاستعمارية ومواجهة الفرنسيين الاستعماريين مواجهة لا يحدها إلا الموت. كانت السيارات السوداء قد توزعت في كل الشوارع المهمة التي يُحْتَمَلُ أن يمر منها المضربون، خاصة تلك التي تؤدي إلى دار النقابة. وكان الاتصال عبر «التوكي وولكي» مستمرا بينها لا يفتر لحظة واحدة... سيل من المعلومات عن الأشخاص والجماعات يتردد من سيارة إلى أخرى، ومنها إلى غرفة العمليات... .

استقرت سيارة مجموعة الجيلالي قرب دار النقابة... على بعد بضعة مآت من الأمتار، في منعطف زقاق تحيط به بعض الفيلاّت القديمة... كان العمال يتقاطرون على النقابة أفرادا وجماعات، بكثافة منقطعة النظير، حتى خُيِّلَ للجيلالي وصحبيه أن الدار البيضاء كلها قد حجت إلى دار النقابة. أثار السائق انتباه صاحبيه إلى أن عددا لا بأس به من العاطلين والمثقفين ورجال السياسة الوطنيين مصحوبين بيساريين فرنسيين يوجدون ضمن هؤلاء العمال... وأخذ يعدد أسماء أبرزهم مغاربة كانوا أو فرنسيين... بينما تولى بوازيي نقل هذه الأسماء عبر الأثير إلى غرفة العمليات التي تولت تعميمها على بقية السيارات السوداء.

امتلأت دار النقابة عن آخرها، وكان مكبر الصوت ينشر الخطب الوطنية على الحاضرين، الذين كانوا يقاطعونها بالتصفيق الحار وبمقطوعات من نشيد:

مغربنا وطننا روحي فداه ومن يدس حقوقه يدق رداه

وكانت الأصوات والتصفيقات تصل إلى غاية المكان الذي قبعت فيه السيارة السوداء، حيث كان الجلالي وصحبيه يتابعون ما يجري بفضل «ميكرو» كانت قد دسته المخابرات في الجدار المقابل لمنصة دار النقابة... وعندما اندفعت الحناجر مرددة النشيد الوطني، لم يتمالك الجيلالي من ذرف دموع حارة لم ينتبه إليها بوازيي والسائق اللذان كانا منشغلين انشغالا تاما بتسجيل مايرد على السيارة من خطب وأناشيد وشعارات... كانت أعصابه تشتعل داخله، وكان دمه حارا، يغلي في شرايينه... وأحس بأن ساعته قد أتت... فهل سيكون في مستوى اللحظة الحاسمة؟. هل سيكون في الموعد المحدد الذي ضربه دون أن يدري مع

تاريخه، وتاريخ بلده، وتاريخ الانسانية؟ رغم كونه يعتقد منذ أن وعى بذاته أنه، في نهاية التحليل، ليس إلا حبة رمل صغيرة، صغيرة جدا...

مرت الساعات مسرعة بعضها إثر بعض... انفض الاجتماع وعاد العمال إلى بيوتهم في نظام دون أن « يهتفوا بكلمة عدائية »... كانت الشمس تلاعب غيوم ديسمبر وصبيره. تختفي مرة وراء الغيوم، وتبزغ مرة أخرى وهاجة حارة مشتعلة. وكانت الأشجار تهتز ووريقاتها الخضراء الصغيرة اللامعة على ايقاع نسمات منعشة وافدة من المحيط. وكانت المكالمات عبر« التوكي وولكي » لا تنقطع أبدا... وكانت التعليمات الوافدة من غرفة العمليات صارمة: « لا تغادروا مهما كانت الظروف مواقعكم. تناولوا وجبات غذائكم في سياراتكم ولا تغادروها إلا بتعليمات من غرفة العمليات... حوّل! »...

ضحك الجيلالي وقال مازحا: « وإذا ما اضطررنا إلى... وأمسك في بطنه... ضحك بوازيي والسائق... وفتح أحدهما المذياع.. كان موريس شوفاليي يغني أغنية للحب والحياة.. وكان هؤلاء المجانين يعزفون معزوفة الموت الرهيبة! »

7 ديسمبر مساء...

سرابُ الطيور راجعة إلى وكناتها من جهة البحرِ حُرَّةً طليقة، فرِحَةً بيومها، مبتهجةً بحياتها، منتصرةً على الزمن.. ولو إلى حين. والشمس مائلة إلى الغروب تتخبط في دمها وترش الفضاء الفسيح الساجي، بمعزوفة من الألوان البديعة الجميلة. أما الشوارع فقد كانت مقفرة تماما.. سماءٌ تعج بالأحياء، وأرضٌ خاليةٌ موحشة مقفرة كاليباب! مآذنُ بعيدةٌ تدعو إلى صلاة المغرب... وإيديث بياف تغني بحرقة موجعة كأنها تنزف، كأنها تذوب شوقا إلى الحب والدفء والتعاطف بين بني البشر دون تمييز... إنها كهذا البحر تماماً... تماما... قالها الجيلالي في نفسه وقد ضرب صفحا عن متابعة المكالمات السخيفة التي لا زالت ترِد من غرفة العمليات، ومن السيارات السوداء الأخرى. ظلامٌ دامسٌ يعم المكان، لا تخفف منه إلا بضعة فوانيس كهربائية تتقيأ نورها الأصفر الشاحب... مآذنُ تدعو هذه المرة إلى صلاة العشاء.. مكالمةٌ حاسمة من غرفة العمليّات: « تحركوا

إلى حي كاريير سنطرال... الوضع خطير هناك...أطلقوا رشاشاتكم على كل من يوجد في الشوارع والأزقة. كل من يوجد هناك مشاغب وإرهابي... إنهم يتجمعون هناك قصد إعداد مظاهرة عارمة، سيستغلها غدا الوطنيون ضد فرنسا في نيويورك... في الأمم المتحدة... أكرر... اقتلوا كل من يوجد في شوارع وأزقة كاريير سنطرال... كان الله في عونكم...حَوِّلْ !».

سقط النبأ كالصاعقة على الجيلالي... تبللتْ ملابسُه بالعرق... اصفر وجهه... واستعد لمواجهة قدره، لمواجهة الساعة الحاسمة...

أما بوازيي فقد راقب رشاشه ومسدسه.. ونبه الجيلالي إلى أن يفعل مثله ففعل... وانطلقت السيارة مسرعة صوب كاريير سونطرال.

قال الراوي :

قرات في كتاب «الحركة الوطنية» لمؤلفه، السيد عبدالكريم غلاب أطال الله عمره، وهو أحد القادة الذين ساهموا في صنع هذه اللحظة التاريخية مايلي: تجولت السيارات السوداء وأمام مقودها ذوو «القبعات السوداء»، وفي المقاعد الخلفية منها حاملو الرشاشات السريعة الطلقات بنظاراتهم السوداء. فاخترقت شوارع حي «كاريير سنطرال» تحصد عشرات الشباب والاطفال والرجال الذين أخذوا على غرة. وانتشرت رائحة الموت في الأحياء العمالية تزكم الأنوف، وتثير الرعب وتحمل الدمار واليتم والترمل لآلاف العائلات. وكان شباب الحي في المستوى فخاض معركة الدفاع عن النفس وقتل ـــ فيما قالت الأخبار الرسمية آنذاك ـــ ثمانية من الفرنسيين في مقابل مئات من المواطنين».

تعجب الشاب ذو القميص الكاكي، وتعجبت فاطمة، وتعجب الأعور، من هذا الانقلاب الفجائي في أسلوب حكي الراوي. وتساءلوا عن دور الجيلالي وصاحبيه بوازيي والسائق فيما جرى ... فأجاب الراوي مبتسما بان مهمته ليست رواية وقائع التاريخ كما جرت في أرض الواقع أو على نحو قريب منه، فهذه مهمة التاريخ والمؤرخين.. فالمؤرخ هو راوي سيرورة الوقائع البشرية في الزمن، هنا أو هناك، وفق منطق العقل وضروراته، وفق نحو عقلي استقرائي

واستدلالي في الآن ذاته، أما الراوي فهو مؤرخ الوقائع البشرية في الزمن، هنا او هناك، لكن وفق منطق المتخيل المنفلت دوما من إكراهات العقل وضروراته، وفق منطق الرغبة والممكنات التي لم تتحقق أو التي ربما لن تتحقق ابدا، وفق منطق التشبيه والترميز والاستعارة والمجازوالإيحاء... لذلك كان الفرق بين الراوي والمؤرخ هو الفرق الكامن بين من يخرج الواقع من رأسه وهذا هو حال الرواة، ومن يخرج رأسه من الواقع وهذا حال المؤرخين... وإذا كان منطق المؤرخ يختلف عن منطق الراوي، فإن زمانهما ليس واحدا. زملن المؤرخ زمان الضرورة، وزمان الراوي زمان الحرية... وفي كل الأحوال فإن الراوي والمؤرخ متكاملان: يحتاج المؤرخ لإنجاز تاريخه على النحو الأفضل إلى خيال الراوي، و يحتاج الراوي إلى قبس من منطق المؤرخ لبناء روايته، خاصة عندما يبني الراوي روايته لتكون رد فعل على ظلم كما هو الحال عندنا: فقد روينا ماروينه طيلة الصفحات الماضية لا حبا في الحكي وكفى، ولا بحثاً عن حريتنا في إكراهات الآخرين وضروراتهم وكفى، بل حبا في رفع الظلم الذي ألحقه الأعور في حق الجيلالي بن الطيب، رمزيا على الأقل.

ـــ من فضلك أيها الراوي...، أخبرنا عن دور الجيلالي وصاحبيه فيما جرى.. لقد انتفخ رأسي من جراء هذا الكلام الثقيل الذي لا أرى له معنى.

قالت فاطمة محتجة وهي تذرع فناء النزل بخطوات قلقة غير عابئة بقهقهات الأعور الساخرة، ولا بمواء الهرة التي يظهر انها لم تفهم ولن تفهم هؤلاء البشر أبدا...

ـــ لا عليك يافاطمة! سأخبرك عن دور الجيلالي وصحبه في إطار ما جرى، لا فيما جرى...لأن ما جرى بالفعل ليس مهمتي أنا...

ـــ لذلك أحلتنا على كتاب التاريخ... حسنا... قال الشاب ذو القميص الكاكي وهو يتفرس صورة سيدنا علي وراس الغول المثبة على الجدار... لقد فهمنا «إطار ماجرى»، فحدثنا الآن رحمك الله بما حصل للجيلالي وصحبه في إطار ما جرى!!!

قال الراوي :

عندما اقتحمت سيارة الجيلالي أحد شوارع الكاريير سنطرال على إثر سيارات سوداء أخرى، كانت جماعات من السكان لا تزال خارج البيوت القصديرية

الضيقة تسهر الليل على طريقتها تحت ضوء مصابيح الشارع ولا تعود إلى بيوتها إلا وقد أثقل النوم أجفانها... كان الشارع واسعا طويلا يسبح في أمواج الضوء الوهاج المتدفق من مصابيح ضخمة عالية تبدو من بعيد كما لو كانت شموسا حقيقية. بينما كانت البيوت القصديرية التي تحفه من الجانبين تقبع في غلس دامس كهررة تحلم حلما مسترسلا لذيذا لا فكاك منه. كان الجو دافئا، وكانت النجوم تراقب من علياتها ما يجري في الشارع و تشارك الساهرين سهرهم في صمت... هنا جماعةٌ من الشيوخ تلعب «الروندا» وسط ضجيج يتخلله تبادل النكت وضروب التحديات... هناك، جماعةٌ من الصبيان تلعب كرة القدم المصنوعة من قطع القماش البالية في حبور حقيقي، وكل واحد من أفرادها يدعي أنه يلعب أحسن من البطل بنمبارك، وهناك جماعةٌ من شبان المدارس تراجع دروسها أو تقرأ الصحف أو تتناقش بعض مقالات طه حسين أو العقاد أو المازني أو علال الفاسي أو عبدالله ابراهيم أو تناقش أحداث الساعة. وهناك تحت سقيفة من الخشب القديم المتآكل تحلقت جماعة من متقاعدي الجيش ومعطوبيه تتبادل ذكريات الماضي وبطولاته، ذكرياتِ حرب بوحمارة، وذكرياتِ الحربِ العالمية الأولى والحروب الاستعمارية الفرنسية في الهند الصينية، وأخبار الجنرال لَحْمَر» المنحدرِ من برج مولاي عمر في مكناسة الزيتون، وذكرياتِ المغامرات الغرامية مع بناتِ الروم الجميلات الفاتنات الآسرات.

وحدهن النساء لا أثر لهن في الشارع... رأى الجيلالي كل ذلك بنظرة واحدة، نظرة يجللها الهلع والخوف على هؤلاء الأبرياء الذين لا يعرفون ما ينتظرهم. هل يناديهم محذرا؟... ومن ذا الذي سيسمع نداءه في هذه الجلبة الصاخبة، في هذه القيامة الوشيكة الوقوع؟ الأحداث تسير بإيقاع سريع جداً... لا أحدَ يستطيع اعتراضها الآن... السياراتُ الأولى وقفتْ في نهاية الشارع وشرعتْ تطلق نيران الرشاشات بسرعة مذهلة... تدحرجتِ الكرةُ على الطريق إلى أن اختفت تحت إحدى سيارات الموت والدم... وتدحرجتْ جثثُ الصبيانِ هامدةً خامدة، تحجَّرتْ أوراق اللعبِ في أيدي الشيوخ الذين التفتوا

بأعين زائغة بطيئة الحركة إلى هذه السيارات الغريبة الرهيبة التي توزع الموت بالمجان محاولين فهم مايجري، غير أن الجيلالي فهم أنهم سوف لن يفهموا ما جرى لهم أبداً... أبدا... سيموتون في حلقَة اللعِب والنُكتَةُ جامدة منغرِسَة في ألسنتهم، والسُؤالُ الرهيبُ الكئيبُ: لماذا ؟! ممتزجٌ بالدَّم والدَّمْع في أعينهم... أمّا الشبابُ فقد تناثرتْ كراريسُهُم وصحُفُهم وأحلامُهُم على إسفلتِ الطريق... كان بوازيي هو الذي أطلق النار على الشباب لأن موقع سيارته كان محاذيا لجماعات الشباب... أطلق النارَ فوجمت عينه وارتعشت ذراعاه وجذعه الأعلى من جرّاء اندفاع البندقية الرّشاشة وحركتها العنيفة الهائجة... وأمرَ الجيلاليَّ بأنْ يفعلَ مثله. غير أن الجيلالي صاح في وجه بوازيي بألا يقتل أناسا أبرياء.. عُزّلاً من السّلاح.. صرخ السائق كالمجنون «فلتقتلوا ولننته من هذا العمل النتن!!»... «سأنهي حياتكما أيها الوغدان المجرمان !!» صاح الجيلالي وقد جحظت عيناه وتوترت أعصابه فاستدار برشاشته صوب صحبيه بوازيي والسائق فأطلق فيهما كل ما في جوف الرشاشة من رصاص... فخار الإثنان مضرجين بدمائهما، وبوازيي يسأل من بين أسنانه: لماذا؟! لماذا مورينو؟! لقد أحببتك !!

انتزع الجيلالي الرشاشتين من أيدي بوازيي والسائق وتناول ذخيرتهما من الرصاص، وألقى بالكل إلى جماعة من الشباب كانت ترمق ما يجري داخل السيارة من وراء مقاعد حجرية... ومن وراء الأشجار...

ـــ خذوا الرشاشتين... ودافعوا عن أنفسكم... هذه هدية من أخيكم الجيلالي بن الطيب...

وفتح الجيلالي أبواب السيارة.. لم تكن خلفه أية سيارة أخرى... أما السيارات التي كانت أمامه، فقد كانت بعيدة عنه... وأخرج الجثتين معا... أسندهما على جذع شجرة قريبة، والشباب ينظرون إليه بأعين مندهشة مرتعبة... ثم جلس أمام مقود السيارة وهو يكرر على مسامع ما تبقى حيّاً من هؤلاء الشباب:

ـــ دافعوا عن أنفسكم...!! كونوا رجالا.!!. أسمعتم؟!!.

هز بعض الشباب رؤوسهم بالإيجاب... ضغط الجيلالي على دواسة السرعة، فانطلقت السيارة السوداء خارج حي الكاريير سنطرال حتى غابت عن الأنظار... وخرج الشباب من مخابئهم... والتقط بعضهم السلاح محاولا معرفة كيفية استخدامه... غير أن دورية من الجند كانت قد داهمت المكان فاشتبك معها الشباب بالأيدي والحجارة إلى أن تمكن ذوو الرشاشتين من تشغيلهما، فسقط أفراد دوريّة الجيش الاستعماري على الارض بالعشرات وسط زغاريد النساء وعويلهن...

8 ديسمبر صباحا

كان الجوُّ باردا. .و البحرُ مرآةٌ صقيلةٌ تنعكسُ عليها تقاسيم السماء... ورائحةُ الطحالبِ والسّمكِ الميّتِ تنتشرُ في كل الأمكنة. و زوارقُ الصيدِ المصبوغة بالأبيض والأزرق ترتاح على الرمال الصفراء الممتزجة ببقايا المحار... وشباكُ الصيدِ مستلقية على صخور سوداء مسننة ينبت فيها عشب أخضر... ولا أحدَ يوجد في هذا المشهد... لا الصيادون ولا البحارة ولا هواة الرياضة على الرمال ولا العاشقون ولا المتسكعون... النوارسُ وحدها تجوب هذا المشهد باحثة عن طعام في الماء والرمل، يَتَردَّدُ صدى حفيف ريش أجنحتها وزقزقاتها الحادة في كل الأمكنة... وهناك... تحت جسر حديديٍّ قديم، كانت سيارةٌ سوداءُ من نوع « تراكسيون إيفان » تستحِمُّ في نور الشمس الصباحية، شمسِ ديسمبر... ديسمبر الدامي... وبداخل السيارة،كان الجيلالي يستفيق رويدا رويدا من إغفائته...

انتصب جالسا في المقعد الخلفي. فرك عينيه المنتفختين بالتعب والتوتر والرعب... فتح ثلاجة صغيرة كانت منغرسة في الجانب الداخلي الأيمن من السيارة، فابتلع بعض ما كان متبقيا فيها من مأكل... مسح أصابعه وهو يفكر في الخروج من ورطته. ضج « الطوكي وولكي » بالأصوات من جديد... أخذه الجيلالي وقص على غرفة العمليات كيف أن شباب الكاريير سنطرال ارتموا بأجسادهم على السيارة رغم لعلعة الرصاص المنبعث من نوافذها وتساقط قتلاهم كالذباب، فمنعوا السيارة من الهرب... وفي هذه الأثناء قرر بوازيبه والسائق أن يخرجا من السيارة لملاقاة الأعداء. فتمكن هؤلاء من تجريد بوازيبه والسائق

من سلاحهما،فقتلوهما، بينما ظل هو في السيارة يمطر الأعداء بوابل رصاصه. وعندما خرج من السيارة لملاقاتهم كانوا قد أخذوا سلاح رفيقيه ولاذوا بالفرار!!

ـــ لا عليك مورينو .!!. قال الصوت المنبعث من « الطوكي وولكي »... نحن نعرف أيضا أن هؤلاء الشباب الملاعين نجحوا في قتل بعض أفراد دورية من الجيش أتت إلى المكان بعد انصرافك مباشرة... والبحثُ جارٍ عنهم على قدم وساق... اسمعني مورينو .!. لقد قمتم بعملٍ جيّد... لكنْ هناك عملٌ آخر ينتظرك هذا الصباح بالقرب من مقبرة بنمسيك... نريدك أن تساهم في تشتيت الموكب الذي سينطلق في التاسعة صباحا متجها إلى المقبرة... استعمل رشاشتك... استعملها بحذق... نريد قتلى جددا... نريد أن نلقن درسا لهؤلاء الملاعين لن ينسوه أبدا... فهمتني ؟!..

ـــــنعم...!! فهمتك... حاضر سيدي .!!.

ــــعِمْتَ صباحاً... حوّل...

شعر الجيلاليُّ بغثيان قويٍّ يهزُّ جسمَه... تقيّأ بعنف خارج السيارة... وسار خطوات إلى أنِ ابتلَّ حذاؤه بمويجات البحر... تنفس بعمق... وبلل وجهه بماء البحر البارد... ورنا إلى البحر الشاسع بنظرة حزينة زائغة... هكذا إذن .!!. لازالت مذابح أخرى آتية في الطريق... فليكن.!!. هم الذين أرادوا ذلك .!!. التفت الجيلاليُّ إلى الجهة التي أتى منها وَقْعُ أقدام مُفاجِئٍ، وهو يتأهّبُ للمواجهة. تنفس الصعداء بعد أن رأى رجلا في الأربعين يتّجه نحو الشّباكِ ويُحيّيه بصوتٍ عالٍ... لا خطرَ إذن... مجرّدُ صيّادٍ يتفقّدُ شباكَه...

اقتربَ الجيلاليُّ من الرجل وقد اشتاق إلى الكلام مع أحد الناس وكأنه يود أن يبرهن لنفسه على أنه لا يزال حيّاً يُرْزَق... وسأل الرجلَ عن أنواع الأسماك التي اعتاد صيدَها في هذه الجهة من البحر .استدار الرجلُ بنصفه العلويِّ نحو الجيلالي محدِّقا فيه بعينين كحليتين كبيرتين خاليتين من المعنى... وهَمْهَمَ كلاماً غامضاً لم يفهمْهُ الجيلالي... وانصرف إلى شباكه.. كان الرجلُ طويل القامةِ ،مفتول البنيةِ، أشْعَثَ الشَّعر، ذا فم واسع وشفتين قويتين ووجه مليءٍ بأخاديد الزمن...

ـــ ألا تريد أن تخبرني بنوع الأسماك التي تصطادونها هنا !!

قال الجيلالي عاتباً...

ــــ لستُ صياداً... ألمْ تفهَمْ ما قُلتُهُ لكَ .؟!!.

ــــ وما الذي تصنَعُه بهذه الشُّباك ؟ إذا لم تكن صيادا .!!.

ـــ أصنعُ به حبلا... قال الرجل بهدوء...

ـــ وماذا ستصنع بالحبل .؟!!.

ــــ... وسأربط بالحبل شبكةً صغيرةً...

ــــوماذا ستفعل بهما .؟!!..

ــــ... وسأضَعُ في الشبكةِ حجرة ثقيلة...

ــــ أنت لا تحاورني... بل تحاور نفسك .!!.

ــــ... وأضعُ في رقَبَتي الحبْل ... هكذا... وفَتَلَ الرجلُ الحبْلَ على هيئة حبلِ المشنقةِ ثم وضعَهُ في عنقِه وضغط عليه إلى أنِ انتفختْ عروقُ رقبتِه وامتقعَ لونُ وجهِه...

قهقه الجيلاليُّ وقد فطن إلى أنَّ الرجلَ يمازحُه... فقال عاتِباً :

ــــ حسناً ! لماذا تتحدثُ إلى نفسِك ؟ ألستُ قدر مقامك ؟

ــــ أنتَ مستعمِرٌ ... ومعمِّرٌ... وأنا لا أتحدَّثُ مع المعمِّرين...

ــــ لو كنتُ كذلك... لما ارتضيتُ لنفسي أنْ أحدِّثك بلغتِك...

ــــ إذا كنتَ كما تزعم... فالبِسْ جلبابي... واتركْ عنك هذه الألبسة التي لا تليقُ بك...

ـــبكلِّ سرور .!!. قال الجيلالي مازحا... ونض عنه بذلته السوداء وطربوشه، ولبس الجلباب الأزرق الكباردي الذي وهبه له الرجل وهو يكاد يطير من الفرح...

ــــ ها أنذا لبست جلبابك... فهل لك أن تجيبني عن سؤالي .؟!.

ــــ تسألني : هل أنا صياد ؟ ... وماذا أصطاد.؟.. حسنا... أجيبكَ... أنا صيّاد... لكنني لا أصطاد الأسماكَ بل الأسماكُ هي التي تصطادني... اسألها عندما توضَعُ أمامَك في المائدة مشويَّة أو مقليَّة أو مبخرة... وسترى...

إنها ستؤكدُ لكَ بما لا يدع مجالاً للشك بأنها اقتاتتْ من لحمي وارتوتْ من دمي واشتفَّتْ مُخَّ عظامي ... أنا صيّادُ الموتِ لا الأسماك... انظرْ كيف ساصطادالموت.!!. وبحركات بهلوانية وضع حجرا ثقيلا في الشبكة الصغيرة التي كان يحتضنها،والقى بها فوق ظهره حتى تقَوَّس... وأخذ ينط في الهواء كالفرس متجها صوب موجات البحرالعاتية ذات الزبد الأبيض، والشبكةُ تميل بثقلِها فوق ظهره ذات اليمين وذات الشمال...

كان الجيلالي يتابع ما يفعله الرجل مقهقهاً..لا شك أن هذا الرجل بهلوانٌ محترف وإلا لما نجح في إضحاكِه... هو الذي لم يضحكْ منذ زمن بعيد، بهذه التلقائيةِ من كلِّ قلبِه..كان الجيلاليُ يضحك... وكان الرجلُ ينط بشبكته الثقيلة غائصا في أمواج البحر .. كان الجيلاليُ يلتوي على بطنه من شدة الضحك... وكان الرجلُ يغوص في البحر ويتوارى خلف زبَدِ الموج ثم يظهرثم يتوارى من جديد إلى أن لم يعُدِ الجيلاليُ يرى منه إلا سوادَ شعَره... ابتلع الجيلاليُ قهقهاتِه واصْفَرَّ وجهُهُ واندفعَ إلى البحر ، غير أن الرجلَ كان قد اختفى في ظلماتِ البحرمستسلماً لعناقِ الموتِ اللذيذ... لم يصدِّقِ الجيلاليُ عينيْه فضاعفَ جهوَده للعثور على الرجل... لكنْ... عبثا...

سأل الجيلاليُ نفسه عمَّا إذا لم يكن قد رأى مارآه بسبب كوابيس الليلة الماضية، أو بسبب ضربة شمس ديسمبر... أو لربما كان كل ما رآه مجرد أضغاث أحلام... فهل هو يحلم الآن؟!.. فركَ عينيه... وانتبهَ إلى أنه لايزال يلبس الجلباب الكبارديَ الأزرق الذي وهبه له الرجل... وهذاوحده دليل مادي على واقعية هذه الحادثة المؤلمة... إذن الرجل قد اختفى حقيقة... انتحر... اصطادَ الموتَ حسب تعبيره... أحس الجيلالي بالشماتة... وبوخزة ضمير حادة... أيكون مغفلا إلى هذه الدرجة ؟!.. كان محتاجاً الى الكلام والضحك فاستغرق فيهما حتى لم يعد قادرا على التفكير والتوقع والتنبؤ... رباه.!!. هل أصبح الموت محبوباً ومعشوقاً ومطلوباً في بلدي إلى هذه الدرجة ؟!

جمع الجيلاليُّ ملابسَه السوداء، ووضعها داخل السيارة... ومسح عرقا غزيرا كان يتقطر من جبينه رغم زخات الهواء البحريِّ البارد... واندفع بالسيّارة متّجها إلى أقرب مكان من مقبرة بنمسيك... وضع السيارة في دار خربة مهجورة... وقرر أن يبقى لابسا الجلباب الكباردي الأزرق، مخفيا تحته رشاشه وخراطيش الرصاص والمسدس... كانت الساعة تسير الى التاسعة إلا ربعا... وكان على الجيلالي أن يسرع الخطى قبل فوات الأوان... ظل يهرول كالمجنون إلى أن ظهر موكب الشهداء محفوفا بآلاف المواطنين آتيا من كاريير سنطرال... نعوشٌ مجلّلَةٌ بالعلم الأحمر تتمايل بالعشرات فوق رؤوس شباب أقسم ألا يخنع أبدا... اندفع الجيلالي على الفور وسط الشباب... وساهم في مراسيم الدفن بالمقبرة... واستمع إلى خطب التأبين بتأثر شديد... فإذا بموسى يبرز من وسط الحشود الغاضبة طالبا من الحاضرين أن يلتحقوا بدار النقابة للمساهمة في تجمع احتجاجي على مذبحة كاريير سنطرال تحضره الصحافة الوطنية والدولية.

خاف الجيلالي من أن ينتبه موسى إلى وجوده. فينفضِحَ أمْرُه... ولذلك قرَّرَ أن يبقى بعيدا عنه مختفيا في الحشود الأخيرة من المظاهرة التي انطلقت من المقبرة متجهة صوب دار النقابة. كانت الشعاراتُ تتعالى حارَّة من حناجرَ تتوقُ إلى الحرية والاستقلال والديمقراطية... حناجرُ مغربيّةٌ تختلط بحناجر مجموعة من الفرنسيين الأحرار الذين أبوا إلا أن يشاركوا المغاربة حزنَهم على ذويهم الذين سقطوا برصاص الغدر والخيانة وجنون العظمة. تدافعتْ حشودُ المتظاهرين في الشارع الطويل المؤدي إلى المدينة الأوروبيّة... كان البعضُ يبكي على ذويه الذين قُتِلوا البارحةَ بحرقةٍ وتأثرٍ، وكان البعضُ غاضبا ملوحا بقبضته في الهواء معلناً ثورتَه على الاستعمارِ وسلطةِ المعمّرينَ والإقطاعيينَ الخونة. وكان الكلُّ يحسُّ بهول اللحظة ودِقَّتِها، ويشُمُّ رائحةَ الموتِ في كل مكان...

سياراتُ الشرطة... شاحناتُ الجند... مكبراتُ صوتٍ تنادي المتظاهرين الغاضبين بالتشتت والتفرق... شعاراتٌ وطنيّة ملتهبة بعشق الحرية والاستقلال والديمقراطية، هاتفةً باستقلال المغرب وتقريرِ مصير شعوب العالم... وبحياة

محمد الخامس... نيرانُ الرشاشات... لعلعةُ الرصاص... غبارٌ ودمٌ وموتٌ وأناتٌ عميقة... حجارةٌ تهطل على رؤوس الشرطة والجند... ورصاصٌ يخترق صدورَ المتظاهرين... سديمٌ يغمر المكان... جريٌ وسِبابٌ وشتم... تَقَدَّمَ الجيلاليُّ من سيّاراتِ الشرطةِ وامتشق رشاشته وأطلق النار... كانت ذراعاه القويتان المفتولتان تهتزان على إيقاع طلقات بندقيتهِ الرشاشةِ التي راحت تراقص شبح الموت الأبيض الرهيب ،تغازله ويغازلها وكأنهما حبيبان التقيا بعد فراق طويل... وكان الجلباب الكياردي الأزرق قد انتفخ بالهواء فاصبح شراعا خفاقا في يَمُ من الغبار المتموّج المتصاعد إلى عنان السماء. تساقطت أجساد رجال الشرطة على الثرى وهي تنفجر امام اعين المتظاهرين دماً وأنينا... كانت المفاجأة عظيمة... تراجع بعض رجالِ الشرطة فارين ناجين بحياتهم وسط زغاريد النساء المتظاهرات... واختلط الحابل بالنابل... وتفرق المتظاهرون بعد ان تركوا خلفهم عشرات القتلى المغاربة الذين سقطوا برصاص الشرطة والجيش، بالإضافة إلى بعض القتلى الأوروبيين الذين سقطوا بحجارة المتظاهرين : راكبُ دراجةٍ سوّلت له نفسه ان يشتم المتظاهرين شتما لاذعا... جماعة من المعمرين الذين خرجوا لمواجهة المظاهرة بكل مظاهر الحقد العنصري... رصاص، حجارةٌ، دماءٌ، صراخ ، زغاريدُ ، آمالٌ تخبو ،وقلوبٌ تهدأ وتسكت، وأعينٌ تجمد في محاجرها باحثة عن شمس حمراء اختفت وراء بحر الغبار إلى الأبد . والموت يرقص فوق ألسنة الغبار رقصته الواحدة بعد الألف .تراجع الجنود ورجال الشرطة بعد ان أخذوا قتلاهم... تراجعوا متخاذلين وقد وجفت قلوبهم من هول المفاجأة... لم يدر في خلدهم يوما أن يبدي هؤلاء «الأهالي» مقاومة شرسة كهاته... وتراجع المتظاهرون بعد ان حملوا شهداءهم على أكتافهم، فاختلط عرقهم بدماء هؤلاء الشهداء...

نعم .!!. تفرق المتظاهرون... لكنْ ... لا ليعودوا إلى بيوتهم ،بل ليلتحقوا بدار النقابة التي فتحت ابوابها امام الجميع دون ان يعترض عليها أيُّ شرطيٌ ولا ايُّ مسؤول... وما إن التامَ الشَّمْلُ داخل النقابة وأصبح العمال والمتظاهرون داخلها حتى اسرعت الشرطة إلى إغلاق الأبواب وراءهم ... لم يكن الجيلالي قد

دخل النقابة لأنه أحس إحساساً غامضاً بالخطر عندما رأى طبيعة هندستها وطبيعة انتشار الشرطة في الأزقة والطرق والأحياء المجاورة .فاختفى داخل حديقة مجاورة مهجورة كثيرة العشب ملتفة الأشجار منتظرا ما سيحدث... وعندما رأى الشرطة تغلق الأبواب أدرك أن المواطنين وقعوا في «مصيدة» حقيقية... لحظتئذ تذكر الجيلاليُّ الرجلَ ذا الجلباب الذي انتحر في البحر قبل قليل... وتأكد من أن البحر والشرطة سيَّان...

انتهى التجمعُ النقابي... وفتحتْ دارُ النقابة أبوابَها .فوجد الناسُ الشرطةَ والجيشَ وقد استولوا على المكان كله... اقتحموا النقابة وسيطروا على مدخلها، وعلى الشارع والأزقة والممرات المجاورة. وأخذوا يعتقلون المواطنين ويضعونهم في الشاحنات العسكرية الضخمة التي كانت تسلمهم للمواطنين الأوروبيين المؤيدين «للحضور الفرنسي»، الذين تولوا ضربهم بالسكاكين وبقضبان الحديد حتى الموت .بل تطوع بعضهم إلى إقامة مشانق أمام أنظار الشرطة فشنقوا فيها عددا من المواطنين المعتقلين...

لم يكن الجيلاليُّ بعيدا عما يجري...ومنذ بداية الأحداث ، كان يبحث عن وسيلة للتدخل...غير أنَّ السُّبُلَ كانتْ مغلقةً أمامه إلى أن اقتحم بعضُ المعمرين الأوروبيين الحديقةَ المهجورةَ التي كان مختبئا فيها، ومعهم ثلاثون معتقلا... شعر بالخوف والغضب... شعر بالغثيان... عواءٌ داخليٌّ يمزق خلاياه... لامَس بأصبعه الزناد .نصب المعمرون عودا للمشنقة وهم يتوعدون المعتقلين بالموت البطيء... أعلن أحدُهم، وهو في الثلاثين من عمره، يضع على عينه المونوكل، لائحةَ الاتهامات... وأعلن الرجلُ ذو الكرش المنتفخة والرأسِ المستديرِ المنغرسِ بين الكتفين الحكمَ بالإعدام شنقا. .فتقدم عدد من المعمرين إلى المعتقلين الذين كانت الأغلال في أيديهم، ودفعوهم على شكل صف تجاه عود المشنقة. وما إن هموا بشنق المعتقل الأول حتى لعلع الرصاص رهيبا من رشاش الجيلالي فسقط المعمرون قتلى واحدا واحدا... فهرع إلى المعتقلين يفك أغلالهم دالا إياهم على الطريق الآمن دون أن ينتبه إلى أنّ موسى كان من بينهم. وما إنْ أصبح الجميعُ في

مأمن من الخطر حتى انقض موسى على الجيلالي يعانقه داعياً له بالسلامة وطول العمر. اندهش الجيلاليُّ والتبَسَ عليه الموقفُ كلُّه ولم يَدْرِ كيف يتدبر الوضع. بيْد أنَّ موسى أدرك ارتباكَ الجيلالي ومخاوفَه فراح يطمئنه، قائلا:

ــــ اطمئن... أيها الرجل الشهم... ياصاحب الجلباب الكباردي الأزرق...

فتعانق الرجلان من جديد... وأصر الجميع على معانقة أخيهم ذي الجلبابِ الكبارديِّ الأزرق... ومنذئذ سرت بين الناس شائعات تقول بان الله بعث بطلا اسمه «ذو الجلباب الكباردي الأزرق» إلى الارضِ ليطهِّرَها من الظلمِ والجورِ والاستعمارِ والمعمِّرين !!!

- 27 -

وصلتْ سيّارةُ «الجيب» التي أقلّتِ الجيلاليَّ من غرفة العملياتِ بالدار البيضاء إلى محطةِ القطارِ بالرباط. وعندما وطأ بأقدامه التراب، لم يصدِّقْ نفسَه... تحسّسَ جسَدَهُ كما لو كان يريد التأكد من أنه لا يزال على قيد الحياة فِعْلا. حيّى العسكريَّيْن اللذيْن رافقاه... وغاص في زحمةِ المسافرينَ وباعةِ الصحف...

كانت السّاعة تشير إلى العاشرة صباحا... وكان الشارع الرئيسيّ المؤدي إلى المحطة واسعاً جميلاً مكتظاً بالمارَّة. غير أنّ سيارات الشرطة وشاحناتِ الجيش كانت قابعةً في مختلفِ الزوايا والمنعطفاتِ، مستعدّةً للتدخُّلِ عند كلّ طارئ.

وصل الجيلاليُّ إلى سيارته أو بالأحرى إلى سيارة سوزان التي كان قد تركها قرب هذه المحطة قبل مغادرة الرباط متوجها مع بوازيبي ورعشان إلى الدار البيضاء. راقب المحرّك والعجلات... تنفّس الصُّعداء... كلُّ شيْءٍ على مايُرام. ثم انطلق راجعا إلى مكناس وقلبُه مُثْقَلٌ بمزيجٍ مِنَ الحنينِ والحزنِ والفرح...

ترك وراءه قصبة الوداية وصومعة حسّان ووادي أبي رقراق الذي ارتمت على ضفافِه الفسيحة زوارقُ صغيرةٌ تنتظر العابرين. اجتاز سلا وغاص في خضرة غابة المعمورةِ الضَّوّاعَةِ بعبيرِ الأزهارِ والأعشابِ المتوحّشة. كانتِ السيارة تلهث وراء طريق طويلة تتلوّى كالأفعوان وسط الغابة. أحسّ الجيلاليُّ بالملل... وَدَّ لو انطوتِ الطريقُ طياتٍ سريعةً ليصل إلى مكناس... إلى طامو... إلى سوزان اللعينة.!!. يريدُ أن يعيدَ ترتيبَ حياتِه، أو ما تبقّى منها على الأقل... يريد أن يتخطى الدرجاتِ الحاسمةَ المتبقيّةَ من سُلّم كَهْفِه، أنْ يجتازَ العتباتِ المرصودةَ الموصودةَ ،أنْ يتخلص من أشباحِه وأوهامِه وقيوده ... يريدُ أن يخرِقَ آماقَهُ بوهج الضوءِ

الغامر، أنْ يحاوزَ الشَّمسَ والرِّيحَ والقمرَ والشَّيخَ،وأنْ يسْري طليقا في مساراتِها اللانهائيَّة. يريدُ أنْ يرى إرادتَهُ الحرَّةَ وهي تنفجِرُ أمام عينيْهِ طليقةً معربدةً ثملى بحبِّ الحياة كما يراها ويتصوَّرُها ويحلمُ بها. أوَ ليْسَ من حقِّهِ أنْ يُحِبَّ ويحْلمَ ويريدَ.؟! أوَ ليْسَ مِن حقِّه أنْ يَكُونَ ذاتَهُ، أنْ يُعلِنَ هويَّتَهُ على رؤوس الأشْهادِ، أنْ يقِفَ في الأسواق والساحاتِ العموميَة تحت الشمسِ والمطرِ صائحا بملْءِ فيهِ: «أنا الجيلالي بن الطيب! سليلُ هذه الأرضِ المباركة... سليلُ الطيِّبين!!»، أنْ ينفخَ في بوقِ مآذنِ المساجدِ: «أشهدُ أنّي الجيلالي بن الطيب! أتعرفونني؟ أنا الفنانُ عاشقُ الألوانِ، أنا الألمانيُّ الهائِمُ بعشْقِ الحريّة...»... الحرية... الحرية... كرَّرها الجيلاليُّ في نفسه كما لو كان تلميذاً يحفظ درسه؛ أو عابداً قانتاً قانطاً من شرِّ الحياةِ يتلو اسمَ الجلالة...

فتح زجاجَ النافذة فتلقى وجهُه زخَّةَ هواءٍ باردٍ منعشٍ... وهمسَ في نفسِه وهو يتابعُ شريطَ خيالاتِه وأفكارِه... الحريّةُ كل غير قابل للتجزئة... فأن تكون حرا معناه ألا تضطهد الآخرين وأن تعترف بحقهم في أن يمارسوا إنِّيَتَهُم مهما اختلفتْ عن إنِّيَتِكَ، وأنْ تعترفَ لهم بحقِّهِم في أن يقاوموا الاستعبادَ والظلمَ وأنْ يعيشوا أحراراً مثلك... مثلك تماما...

كادتِ السيارةُ تنحرف عن الطريق. فانتبه الجيلاليُّ في الوقت المناسبِ مصوِّباً اتجاهَ سيرِها الحثيث السريع... وفكر طويلا في أمر هؤلاء المعمرين الذين ملأوا الفضاء بالحقد والكراهية والتعصب... أنْ تكونَ إنساناً لا يعني — في نظرهم — إلاَّ أن تكونَ أوروبيّاً بالمعنى العِرْقِيّ للكلمة. أمّا إذا لم تكنْ كذلك فأنتَ مجرَّدُ شيءٍ، مجرَّدُ أداةٍ ليس إلاَّ. لكنْ أليس هذا قانونُ المستبدين في كل الأزمنةِ والثقافاتِ؟ تَخْتَلِفُ أنماطُ تجلّيه وظهوره وتَتَعَدَّدُ، إلا أنَّهُ يبقى واحداً في ذاته... لعنةُ اللّهِ على المعمِّرين والمستعمرين والمستبدِّين على مرِّ الأزمانِ واختلافِ الحضاراتِ والثقافات. قهْقَهَ وهو يسْترجِعُ في نفسِه متوالياتِ شريطِ رجوعِه من «مصيدةِ» دارِالنقابة إلى غرفة العمليات... وأخذ يفحصُها واحدةً تلو الأخرى بعينٍ ناقدةٍ كما لو كان يحاسبُ ذاتَه على أخطاء قد يكون ارتكبها دون

وعي منه. رأى نفسه وهو يودعُ موسى وصحبَهُ بتأثر بالغ... رأى نفسه وهو يعودُ إلى البحرِ والجسر والسيارة السوداءِ من جديد. كان المكانُ خاليا إلا من الزوارقِ والشُّبَاكِ والرمْلِ والماءِ والرّيحِ والنوارِس... رأى نفسه وهو يعود إلى المكان الذي سلكه الرجلُ الذي ظن أنه صياد قبل أن يهب نفسَه لأسماكِ البحرِ... وتساءل عمّا إذا كان سيمتلك القدرةَ على أكلِ الأسماكِ بعد ما سمعه من الرَّجُلِ قبل أنْ يغوصَ في اليَمِّ غوْصَتَهُ الأخيرة. «الآن قد تكونُ الأسماك انتهتْ من أكل ماديتِها الآدمية» قال الجيلاليُّ في نفسِه وهو يجتازحاجزاً للدَّركِ أمام مدخل الخميسات». وتصوَّر الجيلاليُّ جسدَ الرَّجُلِ ممزَّقا متفسّخاً مهترئاً تنخُرُه الأسماكُ وتتلاعبُ بجزيئاتِه وتتقاتلُ من أجل اكتسابِ أكبر قسط منه.وتساءل عن مصير الجلباب السُّوسْدِيِّ الأبيض، وعما كان يدور في خلد الرجل وهو يمنحه جلبابَه الكبارديَّ الأزرق... فهل كانت هذه المنحةُ هِبَةً مجانية؟ أم إنها كانت هبة تترتب عنها آثار والتزامات، على الموهوب له أن يراعيها ويرعاها ويلتزم بها؟

رباه! كم هي معقَّدةٌ هذه الحياة... هل كان الرجلُ محتاجاً ـ وهو مقبلٌ على العدم الأزليّ ـ إلى أن يتركَ جلبابَه وراءه شاهداً على أنّه كان حيّاً، وموجوداً، أمْ إنّه كان مُصِراً على أنْ يبقى موجوداً بعد مماته، وجوداً رمزيّاً على الأقلّ، متماهياً بالجلبابِ، مادام الجلبابُ موجودا؟ تذكَّرَ الجيلاليُّ وَشْمَةَ أمِّهِ... و مَرّرَ يَدَهُ في حنانٍ بالغ على نسيجِ الجلبابِ الكبارديِّ الأزرق الذي كان يلبسُه. وقرّرَ ألاّ يتخلى عنه، وألا يعرضَهُ للضياعِ مادام حيّاً...

ابتسم وهو يتذكر كيف أنه خلع الجلبابَ الكباردي الأزرق، تحت الجسرِ ووشوشاتِ النوارس، مرتدياً البدلةَ السوداءَ والقبّعة والنَّظارة، وكيف أنه انطلق بسيارة «طراكسيون ايفان» إلى غرفة العمليات بعد أن أحدث جرحاً في فخده، وآخر في يده اليسرى، شاعراً بما يشعر به المحكوم عليه بالاعدام، عاريَ الصدرِ، معصوبَ العينين، أمام فوهاتِ بنادقِ فرقةِ الموتِ... وانتبه إلى أنّ وضعَه الراهنَ يشبه إلى حدٍّ ما وضْعَ الرَّجُلِ الذي نط إلى البحر بشبكته قصد اصطيادِ الموت...!! تعجب من ذلك، وأدرك أن الحياة متاهة تزري سراديبُها السريَّةُ المتشابكةُ الملغزةُ بقدراتِ الإنسان على الفهم والتفسير والمعقولية. وابتسم مرةً

أخرى وهو يراجعُ شريطَ تقديمِ تقريرِه المفصّلِ عن مشاركتِه الفعالة في قمع تظاهرات كاريير سنطرال إلى لجنةٍ مختصّة أمطرتْهُ بوابلِ الأسئلة، فأمطرَها بدوره بوابلٍ من الأجوبةِ المُفْحِمَة. وابتسمَ ساخراً وهو يتذكّرُ تنويهَ اللجنةِ بشجاعتِه وبقدرتِه على المبادرةِ الخلاّقة.

تحسّسَ بيدِه عقدَ الضيْعة. وزاغتْ مقلتاه إلى الشّمْتِ البعيد حيث تذوب ذُرى زرهون في صبيرِ سماءٍ زرقاءَ متوهجةٍ بالَقٍ غريب. كان غارقاً في تفكيرعميقٍ قاتمٍ يتلاطمُ فيه اليأسُ بالرجاء... وكانتِ السّيارة تطوي المسافاتِ غير آبهة يركض حقول النعناع والزيتون الممتدةِ إلى ما لا نهاية له. وكان المذياع يغني أغنيتَه الأخيرةَ قبل نشرةِ أخبارِ الظهيرة... تُولالُ مطمئنّةٌ كعادتِها تستريحُ تحت أشعّةِ شمسٍ ديسمبر، تمد رجليْها إلى النهر مسترخيةً حالمةً بغدٍ ورديٍّ لا ضفافَ له، تمشطُ شعرَها في النهر... تنتظر الذي ياتي ولا ياتي... تتنفسُ عبَقَ التاريخ المشحونِ بقعقعةِ سيوفِ قبائلَ عَمّمَتْ هاماتِها بحُمرةِ الشمس. ضجيجٌ صاخبٌ ينبعثُ من المذياع. كانت الأسلاك الكهربائية ذات التيار العالي تحاصر الطريق الملتوية من كل الجهات... أخبارٌ غامضةٌ عن مخطط سماه مذيع النشرة بمخطط مارشال، ملخصاتٌ لوقائع جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة، أخبارٌ عن نشاط المقيم العام، وأخبارٌعن إضرابِ السُّلطانِ عن توقيع الظهائر، وأخبارٌ أُخرى عن اعتقالاتٍ واسعة في صفوف حزب الاستقلال والحزب الشيوعي والنقابيين الوطنيين، وإعلانٌ مثيرٌ عن البحثِ الجاري عن «إرهابيٍّ» مجهولٍ يُعرَفُ بين الناسِ ب: «الرجلِ ذي الجلباب الكباردي الأزرق».

رنا الجيلاليُّ إلى حقيبةِ ملابِسه الصغيرةِ كمن يريدُ أنْ يتأكدَ من أن الجلباب لايزال في مكانه. وانتبه وهو يعبر الطريق المحاذية لباب منصور إلى أن الخطاطيف السوداء لا زالت تحاصِرُ المدينةَ محتلةً ساحاتِها الفسيحةَ وأسوارَها الحمراء المتربةَ وصوامعَها الباسقة، وعماراتِها البيضاءَ، وأشجارَها ومداخلَ قيسارياتِها ومتاجرَها ومصالحَها الإدارية.

أحسَّ بغُمّةٍ ثقيلةٍ تغمر كيانه، وبرغبةٍ قويةٍ عنيفة في البكاءِ والقهقهةِ. قهقهَ حتى بكى... وبكى حتى قهقه. وطرد بيده بضعة خطاطيف كادتْ تسحقُ

على زجاجةِ سيارته الأمامية. ضغط على الكلاكس حتى بح بوق سيارته... كانت الشوارعُ والأزقة فارغة تماما... موحشة كقلبه تماما... موحشة إلا من الكلابِ الضّالة وركام أشلاءِ الخطاطيفِ الميِّتةِ وسيارات الشرطة وشاحنات الجيش... انفجرتْ أنغامٌ كَناويّةٌ راعفةٌ في أعماق نفسه، وفي المذياع أيضا... تلوثٌ ملتهبة معربدة منفجرة، جسدا بنيا تسيل على قسماته المتناسقة العنيفة شلالات ضوء أسود صاخب، جسدا يتلوى مزهرا بالأماسي الغافية في أدغال إفريقيا التي لا تفارقها الشمس أبدا.

كانت سيارته قد تركت خلفها باب منصور وباب كناوة والروامزيين ونقطة المراقبة العسكرية بين المدينتين، وتوغلتْ في شوارع حمرية : شارع ليوطي، فساحة دوغول، فشارع الجمهورية، غير آبهة بسحابات الخطاطيف ولا بسيارات الشرطة وشاحنات الجيش التي سدت كل المنافذ والطرقات.. اغتيالاتٌ واعتقالاتٌ هنا أيضا... عالمٌ ينهار... نظامٌ يحتظر... تَتَبَدَّدُ معالمه في النفْسِ والواقِع تَبَدُّدَ الوجْهِ في السّراب.

الثكنةُ أخيرا... منزلُ الضابطِ... الأعورُ واقفٌ في المدخل يحدجه بعينه الحمراء المؤارة بالشر والنقمة... ماري واقفة في الحديقة تهنئه بالسلامة، وتسأله بلطف عن أحواله... طامو المعروفة بكلارا تكفكف دموعها وتقمع رغبة عارمة في احتضانه وشَمّ رائحته... هي التي ظلت طوال هذا الغياب تصلي له،تناجيه في سرها ليل نهار... الضابطُ يطل من شرفة الطابق الأول مسروراً آمراً إياه بأن يأتي إلى مكتبه... وسوزانُ اللعينة؟ سوزانُ التي أصبح بعد هذه العِشْرَةِ الطويلةِ يُحِبُّها ويمقتُها في الآن نفسه... أتكونُ حاضرة هنا أم تكون في بيتها داخل الثكنة أم تكون في ضيعتها خارج المدينة؟ كاد يسأل عنها ماري... لكنه فضل الإسراع في الذهاب إلى مكتب الضابط. بيد أن ماري أمسكته من يده وجرته إلى جذع الشجرة التي كان اللقلاقان قد بنيا في قمتها عشَّهما منذ مدة طويلة. وهمّتْ بقول شيء ما لا يقبل التأجيل... غير أنها اضطرت إلى أن ترافق بنظراتها نظرات الجيلالي الصاعدة إلى العشّ مخبرةً إيّاهُ برحيل اللقلاقينِ، منذ أن غزتْ هذه الخطاطيفُ السوداءُ فضاءَ المدينة. ضغط على كتفها برفق وهو يقول متأثراً :

ـــ سنرحل جميعا في يوم ما !!

ففجاءته قائلة :

ـــ إنني راحلة غدا...

كان وقع المفاجأة قاسياً على نفس الجيلالي، فقال :

ـــ كلنا راحلون...

واستدرك قائلا:

ـــ لكن إلى أين أنتِ راحلة ؟!

ـــ إنني راحلة الى فرنسا...

ـــ لكنك مغربية... ولدتِ هنا... ولكِ أصدقاء مغاربة نافذون... والمغاربة في أمس الحاجة إليك هنا في صراعهم ضد بونيفاس وأمثاله...

ـــ لقد فهمتُ أخيرا أن نضالي من أجل حرية المغرب لن يكون ذا فائدة إلا في فرنسا نفسها، خاصة بعد أن اقتنعتُ تماما بأن حل المشكلة المغربية لن يتم إلا بالاستقلال...

ـــ لكنك سترحلين في وقت تشُنُّ فيه الشرطةُ حملةَ اعتقالاتٍ واسعة على الوطنيين...

ـــ والآتي أفدحُ وأخطرُ..!!. سنسمع عما قريب عن محاكمات صورية واغتيالاتٍ جديدة، واغتيالات مضادة، وإعدامات وملاحقات... أتعرفُ أن خلايا مقاومة مسلحة تأسست والأخرى في طريقها إلى التأسيس... وغدا سنسمع بعمليات لجيش التحرير... وبعمليات لمنظمات إرهابية فرنسية ينشطها المعمرون وتدعمها سلطات الحماية... وسنسمع عن إقالة محمد الخامس عن العرش... سنسمع عن حمامات دم رهيبة ناضلنا منذ نهاية الحرب الأخيرة من أجل تلافيها لصالح البلدين والشعبين الشقيقين. لكنْ!! ثق بي إذا قلتُ لكَ: لاحريةَ لشعب يضطهدُ شعباً آخر...

ـــ نعم .!!. أتفق معك .!!. لكن...

ـــ أعرف ما ستقول.!. لذلك أجيبك بأنني سأرحل إلى باريس لألتقي هناك بعدد من أصدقائنا المثقفين والصحفيين ورجال السياسة، ولأدلي بشهاداتي وبكل ما أعرفُ لصالح المغرب وأبنائه...

ـــ هل أخبرتِ موسى برحيلك...

ـــموسى .؟! ألا تعرف ما وقع لموسى ؟! ألم تقرإ الصحف ؟!!

ـــ لا !! لا أعرف! .. ثم إنني كنتُ...

ـــ موسى مات .!! .. استشهد في مظاهرة .. هناك... بالدار البيضاء .!! .. وأجهشت بالبكاء...

دمعت عينا الجيلالي... تغضَّن وجهُهُ واصفرَّ... وقال :

ـــ فليكن إذن .!! . فليكن ما تريدين .!! وداعا...

قَبّلَ يدَها، فلم تتمالك من احتضانه وهي توصيه بكلارا خيرا...

سمع الجيلاليّ صوتَ الضابط آتياً من الطابق الأول... فأشارتْ كلارا إلى الجيلالي أنِ اسْرعْ قبل أن ينفجر الوحش داخله غاضبا... ألا تعرفه .؟! .. انفصلَ الجيلاليُّ عن ماري وأسرع الخطى في اتجاه الباب الكبير، والتفتَ إليها التفاتتَهُ الأخيرةَ كمن يريدُ حفرَ صورتها النهائية في وجدانه وذاكرته... وغاب في ظلال الصالون الكبير الواسع...

رحب الضابطُ بالجيلالي ترحيباً خاصا... وأخبره بكل الأصداء الإيجابية التي وصلته عنه... وتأسف لموت بوازييه والسائق... وتمنى للجيلالي طول العمر حتى يواصل عطاءاته لصالح الحضور الفرنسي بالمغرب... وسأله عما إذا كان قد تسلم ضيعته، فأجابه الجيلاليُّ بالنفي... ظل الضابط يتحدث عن أنواع الزراعات الممكنة في تلك الضيعة، وعن البذور والشتائل ومصادرها وأثمانها، وعن المعمرين الذين يمكن للجيلالي أن يزورهم للاستفادة من خبراتهم في الإنتاج والتسويق... وانتقل للحديث عن الگلاوي والمتوگي والگندافي وعبدالحي الكتاني والفقيه الزيتوني والباشا البغدادي، وبونيفاس وگيوم، وجوان، ومحمد الخامس، والمنصف باي، وفانسان أوريول، وموريس شومان... وعلال الفاسي...والجبهة... ولجنة القاهرة... كان يتحدث ببلاغة مثيرة... وبلهجة الواثق مما يقوله.. غير أنه بدا للجيلالي في صورة رجل من الماضي، لايستطيع رغم معرفته الواسعة، وبلاغته الساحرة، أن يدرك طبيعة الزمن الحاضر... تناول

سيجاره الكوبي وعرض على الجيلالي أن يدخن معه، فاعتذر الجيلالي كعادته... فهقه الضابط وقال مازحا:

ـــــلكنك صرت ملاَكاً... والملاكون يدخنون... فتدخين السيجار الغالي الثمن علامة على النجاح الاجتماعي.. أنصحكَ مورينو بأن تعيدَ النظر في موقفكَ من التدخين...

ــــسأفكر في الأمر سيدي...

ـــ حسنا.!!. يامورينو... يجب أن تعرفَ بأنني أُحِلتُ على التقاعد منذ يومين... وبأنني قررتُ أن أرافق ماري إلى باريس للاستراحة بضعة أيام... وسأعود إلى المغرب بعد ذلك لأراقب الأوضاع عن كثب، وأدير ممتلكاتي بنفسي... لن أبيع ممتلكاتي في هذا البلد إلا إذا تيقنت من إفلاته من زمام أيدينا نهائيا... وإلى ذلك الحين، يمكنك البقاء في منزلي كما يمكنك الانتقال إلى ضيعتك... لكن يجب أن تظل خدوما لسوزان... فأنا مدين لزوجها بحياتي... ويجب ألا تفرط في كلارا والأعور، وأن تبقى على اتصال وطيد بجماعتك. نهض من مقعده الوثير وصافح الجيلالي بحرارة، وولى وجهه جهة النافذة المطلة على النافذة مخفيا علامات تأثره البالغ... فهم الجيلالي الموقف... وغادر المكتب بخطى سريعة بعد أن اقفل الباب وراءه... وعندما كان الجيلالي نازلا في السُّلّمِ كانت طامو المدعوة بكلارا واقفة في الصالون تنتظره بفارغ الصبر... وما إنِ التقتْ أعينُهما حتى ارتمى كل واحد منهما في حضن الآخر، وكأنهما خُلِقا منذ أوّل الزمانِ ليكونا ذاتا واحدة... كان الجيلالي يحس بحرارة أنفاسها تلفح وجنته وعنقه، وبدفء جسدها الفاتن يخترق مسام جلده وبخدر ناعم يسري في كيانه... وكانت طامو تحس برعشة الحياة تسري من جديد معربدة في أعماقها البعيدة... إنها تولد مرة أخرى بين ذراعيه القويتين... وهذا مَرْكَبُها التائه المضرج بدم الفجيعة يرسو أخيراً بعد رحلته الأسطورية على صدره المفتول فيجد الاطمئنان والحنان... لطالما حلمتْ في سرها بهذا اليوم... لطالما بنته في خيالها طوبة طوبة، برموش عينيها، بدموعها، بوجيب قلبها بصلواتها وابتهالاتها كل مساء في صمت الحديقة والمطبخ وغرفة النوم... ولن تسمحَ مهما كانت الظروف بأن يفلتَ منها حبيبُها،

زوجُها الجيلالي بن الطيب، بعدَ هذا العذاب المضني الذي تجرعاه وحدهما دون أن يشعر بهما أيُّ أحد... كانت تحتضنه وهي تشعر بنفسها كما لو كانت تحتضنه لأول مرة في براكة «دوار الرجا في الله» أثناء محاصرة الجيش له، منذ سنوات خلت. وتمنتْ أنْ لو يحبس الزمن أنفاسَه ويتجمد ويتشيأ وينساهما متعانقين إلى ما لا نهاية له...

غير أنهما استفاقا من إحساساتهما اللذيذة على عويل مكبوت ينبعث من الباب الكبير المطل على الحديقة... هرعا معا لاستطلاع الأمر فوجدا الأعور جالسا مسندا ظهره إلى السارية الرخامية التي طالما جلس بقربها الجيلالي وهو يراقب اللقلاقين فوق الشجرة السامقة... كان يبكي بحرقة فتختلط دموعه بمخاط أنفه ولعابه السائل من الجانب الأيمن من فمه... سألاه عما يبكيه فاجاب دونما تردد بأنه يشعر بالعزلة والوحدة، ويدرك ألاّ أحدَ يحبُّه أو يهتمُّ به... قَرْفَصَ مُخْفِياً رأسَه بين رجليه وتوعَّد العالمَ كله بالدمارِ والجوعِ والطاعونِ والقَملِ والجَراد... ونبَّهَ إلى أنّ الخطاطيفَ السوداء ليست إلا مقدمةً لكل الكوارث المقبلة.

حك الجيلاليُّ فروة رأسه مفكراً في أمر هذا الأعور... أمّا طامو فكزتْ أسنانَها وقالتْ له بصراحة جارحة:

ـــ فلتشربِ البحرَ أيها الأعور.!!.

لم يستسغِ الجيلاليُّ كلامَ طامو، فأراد أن يعتذر للأعور نيابةً عنها فمنعَه الأعور قائلا:

ـــ لا أقبل كلاما إلا من كلارا، سيدة نساء العالم، من كلارا وحدها، وإن كان قاسيا جارحا.!.

فقالت طامو للجيلالي بأنها تفهم هذا الأعور الكلب الذي لم يرد أن يعترف بضرورات الواقع... ووضعت يدها في يد الجيلاليّ وقالت للأعور:

ـــ أيها الأعور... للمرة الأخيرة... أقول لك... ابتعد عن سبيلي... أنا في عصمة رجل... وهذا الرجل الواقف أمامك هو زوجي...

لم يندهش الأعور من هذا الكلام، فقد سمعه منها مرات عديدة. لكنه لم يكن يصدقها ظانا أنها تتملص بذلك منه. أما الآن، فالأمر مختلف تماما... لم

يكذِّب الجيلالي كلامَ كلارا بل ضغط على يدِها وجذبها خلفَهُ هامساً في أذنها كلاماً مبهَماً لم يتبينه الأعور رغم رهافة سمعه.

نهض الأعور من مكانه وعوى كالذئب حتى طارت الخطاطيف من أعلى الخمائل المجاورة خائفة مرتعبة... وأخذ يلطم رأسه بجذع الأشجار وتماثيل الحسناوات حتى تضرج وجهه بالدم وسقط في مياه المسبح الباردة العفنة. لم يكن الأعور يتقن السباحةَ فغاص في الماءَ حتى لامستْ رجله قاعَ المسبح وارتفع مُرْعَباً على صفحة الماءِ مالئا صدره بالهواءِ قبل أن يغوصَ مرة أخرى... وكلما تكرر غوصه وارتفاعه، كان رعبه يزداد وتخبطه يتضاعف وبطنه ينتفخ بالماء. وفي خضم تخبطه ويأسه، أحسَّ بقطعة حديد تنغرس في قميصه وتجره خارج الماء، وبِيَدٍ تضغط على بطنه ضغطاً عنيفاً إلى أنْ أحسَّ براحة غامرة فتنفس وعطس بقوة وعاد إلى وعيه فوجد نفسه وجها لوجه أمام سوزان... لم يتمالك الأعورُ نفسَه فهوى تقبيلا على رِجْلِ سوزان ويدِها باكياً شاكياً من قسوة الزمانِ والبشر. رَقَّتْ لحاله فواسته ورافقته إلى غرفتِه كيما يبدِّلَ ثيابَه المبللة ويستريح... وعند عتبةِ الغرفة، استدار إليها راجياً أن تقرأ الملف الذي كانت قد أخذته من مورينو ليلة مقتل بيير جاكوب... تعجبتْ من إلحاحه وهو في هذه الحالة... وتذكرتْ أنه ليس الوحيد الذي أثار أمر الملف معها... فقد سبق لماري أن أثارته معها... لكنْ بإيعاز من الأعور ذاتِه...ترى ماذا يريدُ الأعورُ بإثارة اهتمامها بهذا الملف الذي لم تعدْ تتذكَّرُ في أي مكان وضعتْه.. ولا تعلم أيّةَ أسرار يحتويها... لو كان الأعور على علم بما في الملف، لباح به الآن... غير أنه يُخَمِّنُ أن في الملف أسرارا مهمة تهم سوزان... سوزان بالذات... وإلا لما ألح عليها هي بالذات دون غيرها...

تنهدتْ سوزان وهي تنهك البلاط الإسمنتيَّ بعكب حذائِها الأحمرِ الفاخرِ متَّجِهَةً صوب مكتب الضابط. وعندما اجتازت الدرج واقتربت من الباب، كان الضابط يهم بالخروج. استقبلها ببسمة ترحيب عريضة. مد يده إليها بصندوق خشبيٍّ بُنِّيٍّ لامعٍ تصطفُّ فيه قضبانُ السيجارِ اصطفافَ الجنودِ في ساحة تحيّةِ العَلمِ صباح مساء، فاختارتْ منه لفافةً بُنِّيَّةً محشوَّةً بتبغ يفوح عطرا، وأشعلتها

بأصابع مرتعشةٍ محرقَة فيها أحزانَها وهمومَها الصغيرة. أخبرَها الضابطُ بسفره صحبة ابنته وزوجته إلى باريس. أخبرها ببطولات مورينو الروخو في « كاربير سنترال » وببلائه الحسن في الدفاع عن هيبة فرنسا وشرف المعمِّرين. وأخبرها بأن تلك البطولات أهلته لكي يصبح ملاَّكا لضيعة محترمة. وتنبأ له بمستقبل زاهر مفتخرا بأنه نجح - منذ أن آواه في بيته - في تربيته وتوجيهه وصقل مواهبه النادرة... وتطرق لماضي مورينو محللا مسار حياته منتهيا إلى أنه مهما كان ماضي مورينو غامضا ملتبسا، فذلك لا يمنع من الجزم بأن مورينو ولد ولادة ثانية على يديه هو، إلى الحد الذي يمكن القول معه بأن مورينو وُلِدَ شابّا، لا طفولةَ له...

تنفستْ سوزان الصعداء، وأخذتْ نَفَساً عميقاً من سيجارها اللذيذ، وبثّتِ الضابطَ مخاوفَها ووساوسَها وهمومَها الدفينةَ وخوفَها من الوحدة والعزلة... فهدَّأ من روعها وبدد مخاوفَها... كان يعاملها معاملة الأب، ويحترمها رغم قسوتها وصراحتها الجارحة أحيانا. ربت على كتفها وأخبرها بأنه أوصى بها مورينو خيرا. أخذتْ نَفَساً طويلا من سيجارها مرّةً أُخرى فخرجَ الدُّخان من فمها داكنا غزيرا، وبدتْ ملامحُ وجهها من خلالِ فجوات الدخان باهتة مشوَّهة. احتضنته في حنان بالغ وانصرفت باكية...

كان المساء قد أرخى سدوله... وكانت الخطاطيف تلتوي في الهواء أسرابُها الكثيفة ممزِّقةٍ صمتَ المغيب بزعيقها المنفِّرِ الرهيب. وكانت جحافل الضياء تتوارى راعفة خلف الغيوم والتلال البعيدة لا تلوي على شيء، وجحافلُ الظلام المهيب تقفو أثرها مركزةَ راياتها ناصبةً خيامها في كل مكان. وكان نفيرُ الجند يبث زفراته الأخيرةِ ملتاعةً على أكتاف الأثيرِالمنسابِ بهدوء إلى اللانهاية. وانتابتْ سوزان ومضاتُ ذكرياتٍ عن اصطفاف الجند مساءً أمام الرّايةِ وهم يختالون في بدلاتهم النظيفة الأنيقة، مترقبين أوامر الضابط، وأوامر زوجها. يصيح زوجها صيحتَه التي أحبتها في الساحة والبيت معا، فتتحركُ الصفوف يمنة ويسرة، تتقدم وتتأخر، تقف هامدة كشجيرات السرو. ينزِلُ العَلَمُ مختالاً من عليائه ويذوب النفير النحاسيُّ في يد النَّفّارِ لوعةً وحسرةً وحنينا... وتقف سوزان أمام زوجهاواضعةً يدَها على قلبها كما لو كانت تمسك طائرا تخاف من

أن يغادرها إلى الأبد. لعنةُ الله على الزمن... زوجُها يموت في عِزْ شبابه مضرَّجاً في دمه، مضرجاً في عشقه المفتون بها وبالحياة... وبِيَدِ مَنْ؟... بِيَدِ دبّاغٍ نتنٍ أجلف مشقوق اليدين والقدمين أزرق الأسنان متغضن الوجه أشعث شعر الرأس واللحية... «رباه! صورةُ الجن وقد تجسدتْ في صورة إنسان قميء... لو بقيَ حيّاً لمثَّلتُ به، لاستللتُ قلبَه من صدره وأكلتُهُ»... كانت تتمثل نفسها في الصورة الألوفية التي رسمها الفلاحون في ضيعتها ل «عيشة قنديشة»، تلك المرأة الجميلة العجيبة التي سكنها هوس الثأر والجنس والموت فراحت تستدرج ضحاياها إلى المقبرة ليلاً وتضاجعهم في شبقيّة مطلقة... وعند الإنزالِ كانت تخترق بأصابعها المسنونة صدورهم وتخرج قلوبهم المرتعشة باللذة والرغبة وتأكلها بنهم... بنهم بالغ... هذه الأرض التي أنبتت «عيشة قنديشة» العربيّة المغربيّة في أول الزمان، هل يعز عليها أن تنبت «سوزان قنديشة» الفرنسيّة في نهايته.؟!. لم تكن سوزان تعتقد في النهايات هي التي عاشت حياتها على شكل بدايات متجددة باستمرار. لكنْ ... بعد موت زوجها الحبيب أصبحتْ حياتُها مجرد نهايات متتالية تصُبُّ في النهاية الأخيرة التي لا ريب فيها. ثمّ... كيف لها ألاَّ تؤمن بالنهاية وهي ترى عالما برمته ينهار من حولها، يهترئ وينحل ويختفي خلف غياهب الزمن وكأنه لم يكن...

لم تكن سوزان ترغب في رؤية أي أحد.. كانت تريد أن تعود إلى بيتها، وأن تقضي ليلتها وحيدة قرب الموقد الضاج بأزيز ألسنة النيران الدافئة. تحتسي الجعة والنبيذ... وتقرأ الملف الموقَّع بدم بيير جاكوب... وتساءلتْ مرة أخرى عن غرض الأعور من إثارة اهتمامها بهذا الملف اللعين الذي أغفلته بسبب كرهها الشديد لصاحبه بيير جاكوب.

في غرفة نومها، كان الضوءُ باهتاً هادئا... وكان الموقدُ مَوّاراً بالنار... وكان قلبُها يشتعل بالحقد والكراهيّة... وكانت تبحث في كومة الملفات عن ملفها اللعين... بحثتْ في درج مكتبها، في دواليب ألبستها، في درج صندوقها الأحمر الملون بالأصداف والمرايا، فلم تعثر فيه إلا على علبة جميلة تحتوي على رموش مورينو الروخو. احمرّتْ وجنتاها واحتستْ كأساً من الويسكي وهي

تتأمل الرموش بين أناملها الرقيقة... وابتسمت ساخرة من اللحظات التي يصير فيها الإنسان تحت سلطة النزوة سخيفاً... سخيفاً إلى حَدِّ الخَرَفِ... واقتربتْ من الموقدِ فألقتْ بالرموش في ألسنة النار المسعورة المعربدة الهوجاء. واستأنفتْ بحثها المحموم عن الملف في مختلف طاولات غرف البيت وتحت الأسِرَّةِ والكنبيات والزرابي الأطلسية والطنافس وخلف الصور الجدارية والمرايا... لكنها لم تعثر له على أثر... فارتمت على سريرها منهكةً.وغطتْ في نوم عميقٍ رأتْ فيه نفسَها ترفل في ثوب زفافها الأبيضِ محمولةً على ظهرِأحد اللقلاقين إلى جزيرة الواق واق حيث كلُّ الكائناتِ مجردَ ملفاتٍ حية.

في الصباح، كان الضابط وزوجته وماري يغادرون البيت الكبير متجهين إلى المطار. فاصطف الجيلالي وماري والأعور وعدد من الجنود والضباط أمام الممشى الخارجي المؤدي إلى حديقة البيت. كانت لحظة الوداع رهيبة مؤثرة... وكانت الدموع تنفلت من كل رقابة وسط موسيقى عسكرية حزينة كانت تتناهى إلى مسامع الحاضرين من بعيد. وحدها سوزانُ لم تكن حاضرةً أثناء هذا الوداع الحميمي، لأنها كانت تكره لحظات الوداع التي تصيبها دوما بكآبة ممضة قاتلة. وعندما غادرتْ سيارةُ آل الضابط الثكنة، كانت سوزان تراقبها من بعيد... من شرفة بيتها... وتبكي بحرقة... في صمتٍ... لا يتخلله إلا زعيقُ هذه الخطاطيف السوداء الرهيبة وهي تتلوى في السماء التواءات بهلوانية.

انفض الحاضرون كل إلى حال سبيله. وعندما كان الجيلالي يهم بمغادرة البيت قصد التعرف على ضيعته، ظهرت سوزان من خلال أشجار الحديقة، في ثوبها الأحمر الحريري الفاتن، وهي تبتسم له، محيية إياه في رقة بالغة. فحياها باحترام وأطرى على فستانها وجمالها المتألق. ولم يكن يعلم أن طامو تسْتَرِقُ السَّمْعَ إليه ثائرةً حاقدة، وأنَّ الأعورَ يلاحق حركاته وسكناته بعينٍ حمراءَ من شدة السُّهادِ والحقدِ والغيْرةِ القاتلة. أما سوزان فقد انتبهتْ إلى حضورهما فتفننت في بلاغة الغزل والعشق مما أثار استغراب الجيلالي الذي كان عاجزا عن قبض خيوط اللحظة بزمام يديه. وهكذا انصرفت سوزان بالجيلالي إلى بيتهاوهي

تساله عن أحداث الدار البيضاء الدامية وهو يجيب متسائلا في قرارة نفسه عما إذا لم يكن قد أخطأ عندما قبل مرافقتها إلى بيتها. كان البيت جميلا كما اعتاده... وكانت المياه رقراقة تنساب صافية وسط خضرة ناضرة. وكانت الجلسة في الشرفة الواسعة تحيي النفس وتمتع العين والأذن. ولذلك تمنى الجيلالي وهو يتهالك على المقعد الجلدي الوثير الأسود في الشرفة إلى جانب سوزان أن تكون طامو موجودة معهما تسمع وترى وتستمتع. بَيْدَ أنه كان يعرف استكبار سوزان وكراهيتها العميقة لطامو. وهل يمكن الجمع بين النار والماء ؟ ابتسم ضاحكا فسألته سوزان عما يضحكه، فأجابها بأنه سعيد بأن يكون إلى جانبها من جديد... فانتقلت إلى جانبه ووضعت شفتيها على شفتيه وغابا في لجة محمومة حملتهما إلى السرير المشرَعِ على دنيا مخمليّةٍ لا حدودَ لها ولا منطقَ ولا شريعة. كانت ساعةُ الحائط تدق دقتها الثانية عشرة عندما استفاق الجيلاليُّ من غفوته المشوبة بخذر ناعم. أسند ظهره على ظهر السريرالخشبي المزيَّنِ بنقشٍ بديع يُمَثِّلُ زهوراً وطيوراً وأطفالاً مجنَّحين سابحين في سماءٍ لا نظيرَ لها. كان اللحاف الخابوري ينزلق بفتور على جسد سوزان فتبرز نهداها نافرتين ضواعتين بالعطور. وكان الَّمّ يسري بفتور في أعماق الجيلالي صادرٌ عن توبيخ ضميرصارم لا يعرف مساومةً ولا مواربة. لكنّ صوتَ الغريزة في الطبيعة البشريّة أقوى من أي صوت آخر. وإلاّ كيف استسلم لعواء اللذة بهذه السهولة ناسياً طامو، ونقمتَه على سوزان التي أذلته في الضيعة. أيكون إنساناً جبانا ؟ أيكون نذلاً إلى هذه الدرجة ؟ لا يفرِّقُ بين صوت الرغبة وصوت الواقع... يالها من لحظة قاسية! هو الذي أثبتتِ الظروفُ الكالحةُ شجاعتَه وإقدامَه واتزانَه وقدرتَه على ضبطِ النفس، هاهو ذا يخور أمام مفاتن امرأة لاتفوق طامو إلا في غناها ومظاهر الترف المتاصلة في أسرتها جيلا بعد جيل. شعر بالندمِ وأقسم بِالاّ يعودَ أبداً إلي جني هذه التفاحة اللذيذة الآثمة!

وتململ في السرير متجها صوب ملابسه، فتعثرت رجله باللحاف، فاهتز السرير اهتزازا عنيفا، وسقطت مزهرية وأوراق كانت تستريح منذ مدة طويلة على حافة رأس السرير. قامت سوزان من مكانها مذعورة. أحاطت وسطها

باللحاف الخابوري... وأحاطت المكان بنظرة شاملة ففهمت ما جرى وطمأنتِ الجيلالي الذي انخرط معها في جمع شظايا المزهرية وتصفيف الأوراق المتناثرة. وإذا بسوزان تنفجر صائحة فرحة:

ـــ وجدتُه! وجدتُه! وأخيرا وجدتُه!

ـــ ماذا وجدتِ ياسوزان ؟

ـــ وجدتُ الملفَّ الذي بحثتُ عنه ليلةَ البارحةِ في كل مكان فلم أجدْه... بحثتُ عنه في أدراج المكتب والدواليب والصناديق، فوق الموائدِ وتحتَ الأسِرّة وخلف المرايا والصورِفلم أعثُرْ له على أثر... في حين أنه كان هنا، قرب المزهرية، تحت رأسي، تصادفه عيني مرات ومرات فلا تراه ولا تبصره.

ـــ لا شك أن هذا الملف مهم بالنسبة لك... هل هو ملف الضيعة ؟

ـــ لا... ولا أعتقد أنه يكتسي أهمية ما بالنسبة لي... لكن أعتقد أنه يحتوي على أسرار ما تتعلق بماري أو بكلارا ...لأن ماري سألتني عنه باهتمام... والأعور أثار الاهتمام به في «إفران» أثناء عراكه مع كلارا... ورجاني البارحةَ أن أبحث عنه وأقرأه...

اهتز الجيلالي رعباً وهو يرتدي لباسه بحركاتٍ قلقةٍ طائشة. وسأل بصوتٍ خافتٍ وَجِل:

ـــ هل يتعلق الأمر بملف بيير جاكوب الذي أخَذْتِه مني تلك الليلة الرهيبة، ليلة مقتل بيير جاكوب ؟

ـــ هو بعينه وصفاته... لقد نسيتُه تماما.. أنستني شعاب اللذة البكر التي ضللنا في سحاباتها الخفيفة الدافئة أنت وأنا طيلة تلك الليلة نفسها.. التي دعوتَها ظلما بالمذلهمة ؟ أتتذكرُ ذلك ؟

ـــ أتذكر. غير أنني نسيت هذا الملف نسيانا تاما... حتى خُيِّل لي أنه لم يوجد أبدا... دعينا منه وتعالي معي تحت رشاش «الدوش» كالعادة...

ـــ لا... ثم إنني أراك قد ارتديت ثيابك.!!...

ــــلم أنتبه.!! . سأخلعها من جديد... لا يصح أن ألبسها قبل أن نأخذ معا «دوشا» دافئا...

ـــ لا بل باردا...

ـــ فليكن... باردا... وإن كان الجو في الخارج باردا مثلجا... بثلج ذرى إفران.

ـــحسنا! اسبقني... سالتحق بكَ...

نض الجيلالي ثيابه مهموما، قلقا، واسترخى تحت زخات الرشاش القوية الباردة... بينما تخلفت سوزان بسبب استغراقها في قراءة الملف والاطلاع على صوره الفوتوغرافية... كانت تنوي في بداية الأمر أن تتعرف بصفة سريعة وإجمالية على محتواه... وهاهي ذي تجد نفسها مشلولة الحركة أمام ما سطر على أوراقه من أخبار وإفادات وشهادات مذهلة... دعكت عينيها بتأثر شديد وهي تتابع القراءة، لم تكن تصدق ما تقرأه... «هذا كثير!!.» كانت تردد في نفسها وقد امتقع لونها وجحظت عيناها كلما أمعنت في القراءة... «هذا كثير.!!.. مستحيل.!. مستحيل.!!. أأنا في حلم أم في يقظة؟! صاحت سوزان وقد فقدت اتزانها أمام هول ما اطلعت عليه. شككتُ في بداية الأمر في صحة الوثائق والصور لأنها كانت تعرف دهاء بيير جاكوب ومهارته في نسج الأكاذيب وتلبيس الترهات لباس الحقائق والوقائع... ولكنها كانت أمام وثائق رسمية ممهورة بخاتم المخابرات الفرنسية... طوت الملف، وترنحت جالسة القرفصاء على الأرض، مطاطئة الرأس تنتحب في صمت... خرج الجيلالي من تحت الرشاش بعد أن لم تلتحق به سوزان... سمع نحيبها ورأى هيأتها المفجعة فتوجس شرا واستعد لمواجهة عاصفة محتملة... لمس رأسها بيده سائلا عما ألم بها... دفعت يده عن رأسها بعنف شديد. وانتصبت واقفة وهي تصرخ في وجهه الذي صار شاحبا من شدة المفاجاة والتأثر:

ـــ هذا ملفك.!!. ملف ماضيك الأسود.!!. أيها الدباغ النتن.!!. أيها الجيلالي بن الكلب.!!. ياسليل الكلاب والمجرمين...

ـــ سوزان.!!. دعيني أشرح لك... لا شك أن هناك التباسا...

قاطعته مزمجرة:

ـــ أنت قاتل زوجي.!!.. ياللهول.!!. أتدري ماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟!!

ـــ هذا الملف الذي بين يديك ملفق.!!. مزور...!!.

ـــ لا تتمادى في خداعي أيها الدبّاغ.!!. رائحةُ النتن في أنفاسك... والدود في فمك...

ـــ ملفٌّ مطبوخٌ بأيادي قذرة! أيادي بيير جاكوب الذي ظن أنني أنافسه في حب ماري !! وكان غير مرتاح لقربي منكِ... أنتِ ياسوزان لستِ مغفلة...

ـــ ولأنني لستُ مغفَّلةً، أقول لكَ ياقاتلَ زوجي، أيها الجيلالي بن الكلب، أيها الوغد بن الأوغاد، بأنك قاتل زوجي أثناء المعركة التي قدتها أنت في « دوار الرجا في الله » بفاس... وهذه الوثائق المختومة بطابع الدولة الفرنسية تشهد على ذلك بالكتابة والصورة. جاء بها بيير جاكوب من أرشيف المخابرات في باريس معتمداً على أصدقائه هناك لتصفية حساباته معك ومع غيرك. هل هناك أصدق من هذه الوثائق التي كونتْها الإدارةُ الفرنسية عنك... أنظرْ هذه صورتُك وأنتَ تصبغُ الجلودَ بصهاريج دارالدباغة بفاس، وهذه صورتكَ وأنت تغادرُ اجتماع إحدى خلايا الوطنيين، وهذه صورة أمكَ وأبيكَ بمعية حماره... سليلُ الحمّارين... وهذه صورتك مرة أخرى وأنت تبيع صحيفة الحزب بيعا نضاليا كما كنتم تقولون. وهذه صورتك وأنت تتزعم ثورة دوار « الرجا في الله » ضد الوجود الفرنسي في هذه الديار... وهذه وثائق مكتوبة عن نشاطك الوطني كله منذ أن بدأت في حلقات القرويين ومولاي إدريس إلى أن التقطك الجنودُ في ساحة المعركة وأنت تُشرِفُ على الموت صحبة طامو اللعينة التي أسميناها كلارا وآويناها في بيوتنا وجعلنا منها آدمية حقيقية. وهذه قصاصات جرائد فرنسية ومغربية تثبت أنك متَّ في المعركة، ودُفِنْتَ في المقبرة المحاذية لباب محروق... حرقَ اللهُ قلبَك كما أحرقتَ قلبي على زوجي... وهذه الوثائق تقف في حديثها عنك عند هذا الحد، لأن فريق المخبرين الذين كانوا يقتفون أثرك انتقلوا في تلك الأثناء إلى باريس والهند الصينية، فاغلقوا ملفك وأودعوه قسم الوثائق بباريس ظانين أنهم انتهوا منك بموتك. غير أنكَ... ياللهول.!!. كنتَ حيّاً شبيهاً بالميت... ألم أقل لك أنك سليل الكلاب.؟! الكلابُ وحدَها تمتلك سبعة أرواح على حدِّ قولِكم... لا علينا... لا تقاطعني أرجوك..!!. دعني.!!. وبعد أيام اكتشف الفريق الجديد من المخبرين وضباط الجيش بأنك حي... لم يكونوا

قد تعرفوا عليك فيما سبق. وكان الضابط أب ماري هو الذي يشرف بنفسه على شفائك ثم على استنطاقك... ولما كنتَ قد فقدتَ ذاكرتك، ولما كانوا قد عثروا عليكَ في حشد من القتلى والجرحى مغاربةً وإسبانيّين، فقد اعتقدوا أنك إسبانيٌّ من الجنوب، واعتقدوا أنك من عائلة إسبانية مسلمة أو ذات تقاليد مسلمة... واستبعدوا أن تكون يهوديا... فاسموك بمورينوالروخو، ولقبوك بالموريسكي لأن لون جلدك كان يقع بين لون الإسبان ولون المغاربة .هكذا شاء قدري أن يطول عمري حتى أجد نفسي وجها لوجه أمام قاتل زوجي، وأين ؟! رباه! في بيتي!! بل في سريري !! في محل زوجي تماما!! أنا التي طالما حلمت في حضنكَ في الليل وبعد الظهيرة بأنني افترس قاتل زوجي وآكل قلبه! في حين أن الحضن الذي طالما حلمت بافتراسه كان هو الحضن الذي آويت إلى دفئه وحرارته هروباً من الوحدة والعزلة والموت!! يالسخرية القدر! ماذا فعلتُ حتى استحق هذا العقاب؟! هذه «البهدلة» !! ماذا سيقول عني الناسُ بعد اطلاعهم على انني كنت عشيقةَ قاتل زوجي... عشيقةَ دبّاغ مغربيٍّ أبوه خمّار...

كانت سوزان تتلوى من الألم، وتندب حظها العاثرَ وحياتَها الضائعةَ التي أصبحتْ بلا معنى... وكان الجيلالي يرقبها بعينين زائغتين.. وكلما حاول الدفاع عن نفسه هاجمتْه سوزان بقسوتها الجارحة المعهودة .تعالى صراخهما وتأرجح بين إرادة النفي والإثبات إلى أن أصبح مسموعا من بعيد... وفي ذروة نقاشهما المحموم، اقتحمتْ طامو غرفةَ النوم والأعورُ وراءها، فصرخت سوزان في وجه الجيلالي مستهزئة ساخرة :

ــــ هذه كلبتك أيها الجيلالي الكلب، سمعتُ نباحك فالتحقتْ بك... طامو الشيكي الأقرع... التي احسنّا إليها وأسميناها كلارا... هي الأخرى خدعتنا... كانت تعرف انها زوجتك... وكنت تعرف أنت أنها امرأتك... لكنكما أخفيتما الحقيقة ومثلتما أدواركما على النحو الذي نوده ونرجوه...

ــــ ليس هذا صحيحا... صاح الجيلالي بملء فيه... ليس هذا! صحيحا!!

ــــ بل هذا صحيح! قالت طامو في هدوء قاتل. كنت أعرف منذ مدة طويلة أنه زوجي... وكنت اتعذب... وأنا أراقبك ياسوزان أيتها المرأة الفاجرة المتعجرفة

المتغطرسة تحومين حول الجيلالي... حول زوجي أنا... وكلما كنتِ تنادينه أنتِ بمورينو، كنتُ أناديه أنا في سري بالجيلالي بن الطيب... وطبعا كان صوتك هو المسموع دوما !! كنت أراقبك والغيرة تحرق قلبي وأنتِ تقودينه إلى سريرك، وتحرقين مخاوفك وهمومك في سعير جسده... تتأوهين كالأفعى، تنفثين سمك القاتل في جلده... ياسليلة الأفاعي والثعابين والعقارب والعناكب...

ـــ كفى! من فضلكن! كفى! كلنا ضحايا وضع لا إنساني... اسألوا عنه ليوطي، اسألوا عنه ستيغ، ولوسيان سان، وبونصو، وبيرتون، والجنرال نوجيس، وكابرييل بيو، وإيريك لابون، والجنرال جوان، وهذا الجنرال المعتوه المدعو: گيوم الذي نصبته الإدارة الفرنسية أخيرا على رأس نظام الحماية. اسألوا هؤلاء عن مآسينا مغاربةً كنا أو فرنسيين !

ـــ لكنني لم أقتل أحدا.!!. ولم أكذب على أحد.!!. أما أنت فقاتل زوجي...

ـــ ألم يقتلِ الفرنسيون جنودا ألمانيين دفاعاً عن استقلال بلدهم... ألا تسمّين هؤلاء القتلة وطنيين شرفاء يضحون بنفوسهم ليبقى الوطن حرا مستقلا؟... فكيف تُحِلّين للفرنسيين ما تحرّمينه عليّ أنا الذي أحببتُ بلدي وضحّيتُ في سبيل حريته...

ـــ ولم تجد من تقتل إلا زوجي!؟..

مسحتْ سوزانُ دموعها، وجرّت جسدَها الذي كان نصفه الأسفل ملفوفا في اللحاف الخابوري إلى غرفة خلفية تحتوي على دولاب ملابسها. ارتدتْ ملابس صوفيّة سوداء... وكفكفت دموعَها من جديد... وأخرجتْ مسدسها من حقيبة اليد الجلدية السوداء... دبّاغ نتنْ عفن ! هذا أنتَ يامورينو... سأنظفُ المكانَ من رجسك أيها الكذابُ النتن... ربّاه! أأعيشُ حتى أجدَ نفسي في حضنِ قاتلِ زوجي الحبيب. لكنْ... أزفَتْ نهايتُه.!! وعلي يدس أنا!!. أخرجتْ سوزان مسدّسَها من غمده الجلدي، وغادرتِ الغرفةَ الخلفية الصغيرة إلى غرفة النوم حيث تسمّر الجيلالي وطامو والأعور في مكانهم من شدة الرعب... وجهتْ سوزانُ مسدسَها صوبَ صدر الجيلالي، وأجهشتْ بالبكاء حتى خال الجميعُ أنها

نادمة وأنها لن تقو على إطلاق النار، غير أن الطلقة دوتْ مزمجرة في فضاء الغرفة فارتمت طامو بسرعة خاطفة على صدر الجيلالي وهوت على الأرض ساقطةً وهي ترنو إلى سوزان بمقلتين تجمدتْ فيهما دموعٌ رقراقةٌ، وقالت لسوزان بتأثر كبير :

ـــ قتلتِني سوزان! لماذا كلُّ هذا الحقد.. وهذه الكراهية.؟!.

وتجمدتْ أطرافُها، وأصبحتْ جثة هامدة لا حراك فيها.. هي التي طالما ملأتْ بيتَ الضابط.. وبيتَ سوزان ـــ مراتٍ عديدة ـــ بالحركة الدائبة.

لم يصدِّقِ الجيلاليُّ عينيه فجثا على الأرضِ وأخذ جثّة طامو يقبلها بحرارة ولهفة، ويبكي بحرقة وكمد.. ولم تصدقْ سوزانُ عينيها صائحةَ والرعبُ بادٍ على مُحَيّاها :

ـــ لا! لا! لم أقصد قتلها هي.!!. ورباه.!! أكُلُّ ما أُلامِسُه خطأ.؟! والتقطَ من يدها المسدسَ الذي التقطه الأعورُ فاحصاً إياهُ بعينه الحمراء، ماسحاً بمنديله ما التصق به من بصمات. واقترب من الجيلالي متظاهرا بمواساته، واضعاً في يده المسدس دون أن يعيَ الجيلالي بذلك لأنه كان مستغرقا في بحران هذيانه المحموم من شدة الألم.

اقترب الأعور من سوزان وهمس في أذنها كلاما وافقت عليه بدون تردد... وفي هذه اللحظة ذاتها كان بعض الجنود قد اقتحموا الغرفة سائلين عن سبب إطلاق الرصاص، فوجدوا الجيلالي يحتضن جثة طامو وفي يده المسدس. فبادر الأعور إلى القول بلهجة واثقة حازمة :

ـــ ألقوا القبض على مورينو الروخو.!! فقد قتل كلارا التي هاجمتْهُ بدافع الغيرة من سوزان... فالكل يعرف أن كلارا التي كانت تهيم عشقا بمورينو، كانت تغار من سوزان بسبب حب مورينو لها... هذا في الوقت الذي كان مورينو لا يحب كلارا ويتفاداها صباح مساء... اسألوا عن ذلك من تشاؤون... هذه هي الحقيقة...

وأكدت سوزان ماقاله الأعور بطرق أخرى... أما الجيلالي فقد كان منذهلاً مشدوهاً، لا يعيَ ما يجري حوله، لا يسمع ولا يرى إلا صورة طامو، حبيبته، وهي تتجمد باردة بين ذراعيه...

كانت الخطاطيفُ تحوم حول المنزل بكثافة ملفتة للنظر. وكان بعضها قد حط الرحال بنافذة غرفة النوم ينقرُ ريشه ويرمقُ ما يجري في الغرفة بعيون صغيرة سوداء ينبعث منها وميض غريب!

تحرك الجنود فتحركت غرفة النوم وتحركت سوزانُ والأعورُ، وتحركتِ الخطاطيفُ مغادرةً نافذة الغرفة وسط زعيق منفِّر سَمِج. وبقيَ الجيلاليُّ جامداً كالصخريحتضن جثة طامو التي بدت له باسمةً حيّة تحدج الحاضرين بطرفها الساحرِ الفاتِنِ وكانها تسائلهم ببراءة طفوليّة: لماذا يقتل بعضنا بعضا، ويكره بعضنا بعضا؟! لماذا ؟!...

وبدا الجيلالي وهو بين يدي الجنود كمن يعيش في عالمٍ ناءٍ لا شمسَ فيه ولا قمرَ ولا رياحَ ولا بشرَ ولا خطاطيف. صامتٌ جامدٌ لا ينبس بكلمة. أما طامو فقد غادرتِ الغرفةَ في سيارة الإسعاف إلى المستشفى، قبل ان يوارى جثمانها التراب في مقبرة سيدي سعيد، دون أن يحضر جنازتها اي أحد من الناس الذين طالما أحبتهم وخدمتهم بكل ماتملك من صبر وسخاء. وأما الأعور فقد خرج من الغرفة هائجاً تائهاً هائماً على وجهه، تتقطرُ عينُهُ المحمَرّة دمعا كالجمرات. ومن يومها خرج من الثكنة ولم يعد إليها أبدا. وظل تائها في شوارع المدينة وضواحيها يقتات من الفضلات، ويلبس الأسمال، ويعيش في العراء، مكفرا بذلك عن جريرته. حاول مرارا قتل نفســه، غير أن محاولاته باءت كلها بالفشل... ألقى بنفسه في مياه «صهريج السواني»، ذات ليلة افلتْ نجومُها، فانقذتْهُ جماعةٌ من الشبان كانت تتبادل كؤوس الراح بعيدا عن اعين الرقباء. شنق نفسه بحبل مشدود إلى عمود سقفِ بيتٍ مهجورٍ فسقطتْ بقايا السقف فوقه فجُرح ولم يمت. رمى بنفسه تحت عجلة شاحنة، فدوى صرير فراملها في الفضاء حتى انحرفت عن الطريق مبتعدة عنه أمتارا عديدة... قذف بنفسه من الطابق الثالث فانتبه إلى ذلك حارس العمارة والمارة فاصطادوا جســده الساقط بحائك. واخيرا، تيقن أن الموت يتفاداه، فاستسلم لمصيره واقلع عن محاولاته العقيمة. قدَرُهُ ان يعيش ميّتا طيلة حياةٍ تمنى أن تقصُرَ فشاءتِ الأقدارُ لها أن تكون مديدةً مملةً فارغةً من المعنى والدِّلالة. عندئذٍ قرَّرَ انْ يلبَسَ الصُّوفَ، وأنْ يلزم ركن «الزاوية»

لا يبرحه حتى يمن الله عليه بالسلوى والمغفرة. بيد أن زمن الخلوة طال واستطال، فلم يستطع معه صبرا، فقرر الخروج إلى معترك الحياة علّه يجد لنفسه فيه موقعا بين أناس بلدته وعصره. وهكذا انتهى به المطافُ إلى هذا الفندق القديم، ليعمل فيه حمّالاً وحارساً ونادلاً وقوّاداً عند اللزوم. لم يغادرْ منصبَه فيه منذ انِ التحق به، اي منذ ثلاثين سنة.

أما سوزان، فقد بقيتْ وحدَها في البيتِ، تفترسُها العزلةُ والوحدةُ والشعورُ بالذنب. تحررتْ من عقوبة البشر... لكنْ... هل تحررتْ من ضميرها.؟!. من كوابيس لياليها الباردة الطويلة.؟! كانتْ تعتقدُ أنّ ماء الجيلالي محتقن في احشائها، نائمٌ في مهبلها إلى الأبد... كانتْ تتصورُ في خيالها الخصبِ الذي ينشطه الرعبُ والكراهيّةُ والشعورُ بالذنب، انّ ذلك الماء شبيهٌ في لزوجته بقطراتِ الماء العفنة المنسابة من جلود دار الدبغ، وأنّ جسمَها اصبح جلدة نعجة يغمسها الدباغ في حُفَرِ الدباغة النتنة وينشرها على التراب البُنِّيِّ في ضواحي فاس تحت اشعة الشمس. فاضحتْ تعافُ جسمَها معتقدةً أنه أصبح ملوثاً بالخيانةِ، ملطخاً بالإثم والخطيئة... لا تغادرُ المرآة إلا لتهرعَ إلى الحمّامِ فتغسل شفتيها ويديهاووجنتيها وصدرها وبين فخذيها بالماء والصابون أحيانا، وبعطرها الفاخر الذي طالما افتخرت به على قريناتها من نساء المجتمع العالي احيانا أخرى.. بيد ان ذلك كله لم يكن ليشفي غليلها... فلا يقر لها قرار، ولا تتذوق طعم الراحة، إلا إذا وجدت نفسها تحت زخات الرشاش منتحبة باكية. احيانا، كانت ترى في أحلامها وجه كلارا وضيئا صبوحا يبتسم لها، فتهنأ وتستريح... غير أن وجه كلارا سرعان مايصبح ثُقْباً غائراً في الصدر يفور دما ساخنا قانيا لزجا، فتستيقظ من أحلامها مرعبة مرتعدة غارقة في حمّام من العرق. لم يُبْعِدْها نفيُ محمد الخامس، كما لم تشفِها عمليّات المقاومة وجيش التحرير، وانقطع كل اتصال بينها وبين جماعة الحضور الفرنسي... وعندما أعلنت فرنسا عن رجوع محمد الخامس معترفة باستقلال المغرب، كانت سوزان قد باعت ممتلكاتها في المغرب وغادرته إلى إيطاليا ثم إلى مارسيليا فباريس حيث استقرت نهائيا. وكل الإفادات التي تناهت إلى الجيلالي في السنوات الأخيرة، تثبت أنها ماتت في إحدى المصحات العقلية

الباريسية وهي تهتف باسم الجيلالي وكلارا وماري هامسة في لحظاتها الأخيرة: سامحوني!!.

وامّا الجيلالي بن الطيب فقد غادر السجن بعد محاكمة عسيرة لم يتتبع أطوارَها قط. كان يجلس كل صباح في ثوب السجناء الأبيض المخطط بالأسود أمام قضاة المحكمة، هناك في صندوق الاتهام، إلى يسار المدّعي العامّ، وعلى يمين محاميه... كان يتابع المجادلات والمشادات الكلامية والفقهية التي تخللت مرافعات الادعاء والدفاع وتدخلات القضاة لتسيير الجلسات وتوجيهها وتنظيمها وكأنه يتابع مسرحيّة لا علاقة له بها، تجري وقائعها على ركح متميز واستثنائي. وكان أحيانا يتلهى عن ضوضاء قاعة المحكمة ومماحكاتها التي تكاد لا تنتهي، بالتفرج على أزياء القضاة والمستشارين والمدعين العامين والمحامين... وفي أحيان كثيرة، لم يكنْ بقادر على منع خياله من تصور هؤلاء السادة المحترمين في هيئة خنازيرَ بريّةٍ وقنافذَ وفراريجَ وديَكٍ روميّة. فكان يرخي لقهقهاته العنان غير مبال بحرمة المكان وطابعه الرسمي. لم يكن يشعر بالنظرات القاسية التي يطلقها رئيس الجلسة على جسده المكدود من التعب والملل، ولا بدقات المطرقة التي تنزل على المنصة كما تنزل مقدّةُ القصّابِ حين تفتيت اللحم لتحضير الكفتة، ولا بهمهمات الحاضرين واستغرابهم... كان يعيش، وهو في قاعة المحكمة، خارجَها، بل خارج جسده، في عالم ضبابيٍّ تلمسُه اليَدُ وما إن تحاول الإمساك به حتى ينفلتَ من بين الأصابع كماء موجة مزبدة. ولأمر ما كان في كل مرة يتذكر الرّجُل الذي انساب بشبكته في عمق البحرليصطاد الموت.. وتمنى لحظتئذ لو اشبك يده في يد الرجل وراحا منزلقين على ظهرالموج بين زرقة الماء وزرقة السماء إلى ان ينفلقَ البحرُ فتنكشف الأغوار الرهيبة التي تأوي الموت، وتأوي الشمسَ، وتأوي القمرَ بعد الغروب الأخير. وأخيرا استراح في برودة زنزانتِهِ بين زرقة السماء وزرقة الجدران واخضرارِ الأشجارِ المتراخية أوراقُها على نافذته الحديدية السوداء. كانت حياته صخباً متواصلاً، وحركةً لا تعرف التوقفَ، وجلبةً ما بعدها جلبة... وهاهو ذا الآنَ يتذوقُ طَعْمَ الظلِّ والصمتِ والهدوءِ والتأمُّلِ في الذاتِ والآخَرِ والحياةِ والمصيرِ والحريّةِ والموتِ... كان يستعرضُ في جدار زنزانته

صباح مساء شريطَ حياته لقطة لقطة، منذ طفولته البعيدة المشبعة بأنفاس قريته ووشمة أمه. وكان لا يمل من تكرارها وتحليلها محاسبا نفسه على هفواته واخطائه... وكان يجد في ذلك متعة لا تظاهيها إلا متعة شعوره العميق بانه اصبح اخيراً رغم هذا السجن سيّداً على ذاكرته. وفي كل مرة كان ينتهي إلى أنه كان رجلا عادلاً، رغم قساوة الظروفِ، وشدّةِ الضغوطاتِ، ونسبيّةِ طبيعةِ بني البشر. لا يعكر سماءَ ضميره اليقظ سحاباتُ صيف ولا شتاء... لا يخاف ابدا أن ينظر إلى ذاته في مرايا الحق ابدا. وهذا ما جعله يصحو شيئا فشيئا إلى ذاتِه والعالم إلى ان اصبح قادرا على أن يعيش حياته كما يعيشُها سائرُ الناس. فاصبح موضوعَ فَخارِ مسؤولي السجن الذين توهموا انّهم أصحابُ الفضل: هُمْ الذين عرفوا كيف يعالجونه من كوابيسه، وهُم الذين عرفوا كيف ينزعون من نفسه جرثومة العنف والقتل والجريمة...!! أسلوبُهم في ذلك بسيط وفعّال: عزلُ السجين ليل نهار إلى ان تهدأ اعصابه تماما وتتطهرمن درن الحياة. أسلوبٌ عبقري جدير بأن تتعلمه المنظمات الدولية المهتمة بحقوق الإنسان لتدعوَ حكومات العالم إلى انتهاجه!!! هكذا أصبح الجيلاليُّ يعيش في زنزانة مشتركة تعرَّفَ فيها على أخلاط من البشرِ قادَهُم عنفُ المجتمعِ واستبدادِ نظامِهِ إلى هذا المكانِ الشّبيهِ بمقبرةٍ جماعيّة. كان يُسَلّي نفسَهُ بقراءةِ الكتب التي كان يحملها إليه خِلسَةً أحدُ الحرّاسِ الذين أُعْجِبوا بذكائه وسَعَةِ ثقافته، وبتَتَبُّعُ الأخبارَ التي كانت تَرِدُ على السجن وقد التبستْ بالأساطير والخرافات. كان يعيشُ في عالمِهِ الداخليِّ وقائعَ نفي محمد الخامس، واضطهادَ الوطنيّين واعتقالَهم، وإعدامَ العديد منهم، كما لو كان خارج السجنِ يُشارِك في المظاهرات والندواتِ والعمليّاتِ الفدائيّة. كان خيالُه خصباً تجاوز المعتادَ والمألوف .وكان يحلو له أن يمزح مع نفسه مشبها ذاته ـــ وهو في هذا الوضع ـــ بفقيه «بوذيٍّ» مقرفِصٍ على الأرض مشبكٍ يديه تحت بطنِه المنتفخِ ككرةٍ، مستسلمٍ لسكونِه وتاملاتِه... لا يعاركُ خصومَه إلا في ذهنِه. وعندما كان يغلبه التأثر، ويشعر بـ«الحگرة» على حد قوله، كان يختلي بنفسه ويعوي بكل طاقته ،او يبكي بحرقة في هدوء وسكون. كان يحس إحساسا عميقا بواجب المشاركة الفعلية

في المقاومة... لذلك حاول الهربَ مرارا... غير أن محاولاته باءت بالفشل... فالعيون تترصده ليل نهار، تحصي أنفاسه وحركاته وسكناته. وبمرور الزمن أصبح الإحساس بالواجب جرحا راعفا بالألم وتوبيخ الضمير رغم أنه كان يعلم علم اليقين بأنه لا حول له ولا قوة... لم يقصّرولم يفرّط ولم يتهاون ولم يخن... ولما كان وضعُ السجناء لا يسمح له بالحركة بسبب كونهم من عتاة المجرمين الذين عشش الجهل في أمخاخهم وضمائرهم، فقد عمد إلى تحريضهم على مطالبة مسؤولي السجن بأن يسمحوا لهم بقضاء وقت قصير في الساحة الفسيحة بعد وجبة العشاء قصد التملي بطلعة القمر... وعندما كان القمر يبزغ في السماء كان كل السجناء لا يرون فيه إلا ملك الحرية والاستقلال. وسرعان ما أصبحتْ رؤيةُ الهلالِ عادةً متأصلة لدى السجناء لا يتخلفُ عنها كبير ولا صغير... يجدُ فيها كلَّ أمانيه في مستقبلٍ حرٍّ كريمٍ لا ذلَّ فيه ولا عبوديّة...

هكذا قضى الجيلاليُّ عقوبةَ سجنٍ لا يستحقُّها أبدا... وعندما خرج من السجن، كانت المفاوضاتُ قد انتهت برجوع محمد الخامس إلى البلد وإحراز المغرب على استقلاله.

أصرالجيلالي، منذ أن استعاد حريته السليبةَ على ألا يلبَسَ إلا الجلباب الكباردي الأزرق. لم يكن يتوفر على أية شهادة أخرى تثبت هويته الحقيقية... فقد حوكم بوصفه مواطنا فرنسيا يدعى «مورينو الروخو». وعندما أُطلِقَ سراحُه أصر على إدارة السجن أن تُثْبِت هويتَه المغربيّةَ واسمَه المغربيَّ في أوراقه، غير أنها رفضتْ طلبَه بدعوى عدم الاختصاص. وهكذا خرج من السجن حاملا على ظهرِه صليبا ثقيلا يدعى مورينو الروخو، تنغرس مساميره الحادة في يديه وجمجمته وعموده الفقري، تثخنه جراحا ورضوضا وثقوبا ومسخا ومحوا لرسم الأصل.

ترك الجيلالي سجنه خلف ظهره، وانطلق في هذه الحياة الجديدة المشرعة على فضاءات فسيحة للأمل والفرح والحب والتضامن. كانت مشاعره تذوب في مشاعر الناس البسطاء الذين تدفعهم إرادة الحياة إلى أن يتوقوا إلى تعزيز الاستقلال بالديمقراطية في إطار نظام عادل لا يُعْرَفُ المرء فيه بنسبِه وجهتِه

وقبيلته وعصبيّته وزبنائه بل يُعرَفُ فقط بكفاءاته واعماله وتضحياته في سبيل رفعة هذا الوطن. كان وحيدا فريدا لا اهل له ولا عشيرة... ففكرفي أنه ابن هذا البلد، وأن هذا البلد لا يمكن إلا ان يكون بارّاً بابنائه... فاتصل بمعارفه القدامى في دار الدبغ، وبرفاقه القدامى في خلايا الوطنية. كان بعضهم قد مات أو استشهد، وكان بعضهم لا يزال على قيد الحياة. ترحم الجيلالي على قبور من استشهدوا... ترحم على قبر امه وابيه... وطرق ابواب الأحياء معرّفاً بنفسهِ طالباً منهم مساعدته على الظفر ببطاقة وطنية ودفتر للحالة المدنية وإعادة تدوين اسمه في سجل الأحياء بعد ان اذاعت الصحافةُ موتَه إثر ثورة دوار «الرجا في الله»... كان يروي قصته بهدوء وطمأنينة وهو يتابع علامات الدهشة والاستغراب التي ترين على محيا مخاطبيه. لم يصدقه أحد. الجيلالي بن الطيب مات... دفناه بايدينا بعد أن صلينا عليه صلاة الجنازة... نَعَتْهُ الصّحافةُ الوطنية... ونشرتْ أخبارَ موته الصحافةُ الاستعمارية... وانتهى أمرُه... ودرس رسمُه... أما انتَ، فامرُك غريب... وشبهُك بالجيلالي لا يمنحُكَ حقَّ تقمص شخصيته... اذهبْ إلى العرّافاتِ... واحكِ لهنَّ قصَّتَك... فهن أقدرُ الناس على فهمِك ومساعدتك... أما نحن فرجالُ إدارة... ولا نصدقُ إلا الأوراقَ... فاين هي أوراقُك؟! هكذا كان يجيبُه بعضُهم، ويتركه واقفا على الباب، ويمضي لحال سبيله معتذرا بكثرة الأشغال والمهمات... وفي هذه الأثناء كان الجيلالي يتابع ما يجري في البلاد واضعا يده على وجيب قلبه. حكومةٌ تصعد وحكومةٌ تسقط في شهور معدودة، انشقاقاتٌ وتصدعاتٌ واغتيالاتٌ وتمرداتٌ هنا وهناك... مؤامراتٌ واتهاماتٌ واتهاماتٌ مضادة... هاهو الأخ ياكل أخاه.!!.

عَفْوٌ على الگلاوي... وتاسيسٌ «للحركة»... وإعادةُ اعتبارٍللقواد في شخص ابنائهم... واعتقالاتٌ أخرى... سوقُ السياسة يغلي... وسوقُ السّلع كاسدٌ تماما. والجيلاليُّ يراقب ما يجري ساكتاً مكتفياً بالقول: إنهم يتخاصمون... ربما... على اقتسام إرثي وإرث امثالي من ملايين هذا الشعب. ربما... ربما... أيها الناس اتقوا الله فينا. نريد بطاقة وطنية جيدة ذات اعتبار بين أمم الأرض... نريد اعترافا بنا وبجدارتنا في الحياة.. نريد تقوية الجبهة الداخلية ضد الجهل

والفقر والأمية... نريد استكمال الاستقلال بالديمقراطية .كان يصيح بملء فيه في التجمعات الحاشدة محاولا إقناع الناس برأيه... فكان الشوريون يعتبرونه استقلاليا ويطردونه، والاستقلاليون يعتبرونه شوريا ولا يقيمون لرأيه وزنا، والحركيون يحلفون بأغلظ الإيمان بانه واحد من دهاة دعاة التعريب والحزب الواحد الوحيد... هكذا سُدَّتِ الطرقُ في وجه الجيلالي رغم كونه احتُ مرات عديدة بتعاطف الناس معه... ففي إحدى المرات، بينما كان الجيلالي يتأهب لمغادرة إحدى التجمعات، قابله بقال من سوس عاش ردحا من الوقت في الدار البيضاء وسأله عما إذا لم يكن هو ذلك الرجل ذو الجلباب الكباردي الأزرق الذي أنقد حياته صحبة موسى أثناء مظاهرات كاريير سنطرال. كاد الجيلالي يطير فرحا... عانقه البقال وبكى... واتفقا على أن يدلي البقال بشهادته لصالح الجيلالي عله يحصل بذلك على بطاقته الوطنية...

كان الجو ممطرا... وكانت قوات الأمن منتشرة هنا وهناك... تجمعاتٌ وخطباء... اشتباكاتٌ داميةٌ بين الأتباع والأشياع... كلماتٌ تتكرر على الألسن مجلجلة في الآذان مخلفة وراءها سحرا جديدا... الدستور... سيادة الشعب... المجلس التأسيسي... الديمقراطية... مواطنون لا رعايا... التنمية... العدالة الاجتماعية... التأميم... الفوسفاط... الأمبريالية... المغرب الكبير... الخونة... الإقطاعيون... المتآمرون... كانت الحملةُ من أجل الاستفتاء على أول دستور للبلاد في أوجها... وكانت الأجواء متوترة... وكان الجيلالي يعتقد جازما هذه المرة بانه سيحصل أخيرا على بطاقتِه واعترافِ الناس به وبماضيه، مما سيؤدي لا محالة إلى تطبيع حياته. وكيف لا، وهو يتوفر في هذه المرة على شاهد لا يمكن لأحد من هؤلاء المسؤولين أن يطعن في شهادته!.

كانت قاعة الانتظار غاصة بأناس يعانون الأمرين مما يشبه مشكلة الجيلالي... وعندما أتى دورُه، ودلف ـــ مصحوبا بالبقال ـــ إلى حجرة مكتب المسؤول، لم يصدق عينيه : كان المسؤول هو رعشان بلفقيه!! رعشان بلفقيه بذاته وصفاته!! رعشان بلفقيه أصبح مسؤولا عن قسم الاعتراف بهوية المواطنين ومنحهم البطاقة الوطنية!! متى حصل ذلك؟! وكيف حصل؟! لم يصدقِ الجيلالي عينيه!! غيرَ أنّ

رعشان بلفقيه خمّن ما يدور في رأسه فأسرع إلى الترحيب به وبصاحبه وهو يداري اندهاشه وتعجبه. كان جو الغرفة ثقيل الوقع على نفس الجيلالي فجذب جلبابه من جهة العنق إلى أسفل عله يشعر بقليل من الراحة... وراح البقالُ الشاهدُ يروي شهادته أمام المسؤول والكاتبةُ تسجِّلُ على الفور ما يفوه به... وبينما كان الشاهدُ يروي، والكاتبة تلاحقه بأناملها الرقيقة مسجلةً أقوالَه، كان الجيلالي ورعشان يتفحصان بعضهما البعض بعيون مندهشة.

أكمل الشاهدُ أقوالَه، ووقَّع على محضر شهادته... وودعهما المسؤول رعشان إلى غاية الباب وهو يعِدُهما خيرا... انغلق الباب ولم ينفتحْ مرةً أخرى أبدا. ووجد الجيلاليُّ نفسَه وحيدا مرة أخرى.. وحيدا لا يتكئ إلا على جدار الغربة والوحشة والليل!

ولمّا بلغت به الغربة والوحدة والعزلة منتهاها، قرر أن يرويَ قصة حياته للناس جميعا علهم يتعاطفون معه فيشعر بحرارة تضامنهم، هو الذي كادت برودة مسؤولي الإدارة تقتله... وذات مرة بينما كان مارا بساحة للا عودة، وقف أمام حلقة يروي فيها حاكٍ أشعث الشعر، متغضنَ الوجه، زائغَ النظرات، قصةَ هابيل وقابيل بلهجة تتحول فيها الراء إلى غين، والقاف إلى همزة. ابتسم الجيلالي ابتسامة ذات معنى، وبدا على قسمات وجهه ارتياح شامل.

خلع جلبابه الكبياردي الأزرق وبقي في «تشاميره» الأبيض الناصع، وتقدم خطوات بعيدا عن حلقة الأشعث، ثم وضع الجلباب على التراب، وضرب كفا بكف، وبسمل وحوقل وصلى على النبي العدنان مرات كثيرة. وطلب من الناس الذين تحلقوا حوله أن يصلوا عليه. «فكل من صلى على النبي نجح وافلح. وكل من لم يصل عليه فشل وخسر خسرانا مبينا!». فصلى الناس على النبي بأصوات ظلت ترتفع وترتفع حتى شكلت لحنا كوراليا بديعا. عندئذ صاح الجيلالي بصوت رخيم متهدج أحيانا:

كان يامكان... في قديم الزمان... وسالف العصر والأوان... رجلٌ يرجعُ أصلُه ـــ واللهُ أعلمُ ـــ إلى قبيلة ذبيان ... يُدْعَى الجيلالي بن الطيب. كان أبوه

حمالاً في قيسارية فاس، وكانت أمُّه قابلةً تولِّدُ الحياةَ على يدها في آناء الليل وأطراف النهار، وكان الناسُ يتفاءلون بطلعتها الوضيئة ذات الوشمة الزرقاء. احْتَرفَ الدُباغةَ منذ شبابه المبكر...

ذاب الجيلالي في رواية قصته المثيرة على افراد الحلقة. فلا هو شعر بحرارة الشمس، ولا هم شعروا بالملل. وكلما كانت وتيرةُ الحكْيِ تتسارعُ كلما كانتِ الذكرياتُ تعصِفُ بوجدان الجيلالي فيحمر وجهُه وتبتل عيناه. وتكتسي ملامحُه طابعاً نبويا...

وسرعان ما أخذ بيانُه الساحرُ وإشاراته البليغةُ، وملامحه الرسوليّةُ، بلبَّ الناسِ الذين اعتزلوا حلقات القصّاصين الآخرين، وتحلقوا حوله، حتى أصبحت حلقته هي «الحلقة» أما غيرها فتتمات وملاحق ونوافل. تهاطلت عليه النقود من كل جنبات الحلقة، وتقاطرت عليه طلبات السمر في الأعراس والحفلات. فوجد في كل ذلك عزاءه إلى حين... غير انّ جرحَه الغائرَ الراعفَ ظل ينزفُ في سِرِّهِ نزيفاً متجدداً تجدُّدَ الأيام والليالي... نزيفاً أشبه مايكون بنافورة تتصاعد مياهُها في نفسِه العميقةِ قبل أن تتناثر قطرات فضيّة صاخبة... تتهاوى القطراتُ وتتساقطُ وتَتَحَوَّلُ إلى كلماتٍ نوريّةٍ تتطايَرُ من فمِه كالنَّوارسِ، وتتحوَّلُ الكلماتُ إلى حَكْيٍ لا أوَّلَ له ولا آخِر...

ـ 28 ـ

قال الراوي :

عرضتُ نتائجَ بحثي عن سيرةِ الجيلالي بن الطيب على الشابِّ ذي القميص الكاكي وفاطمة بنت حميدة اللذين ظلا طيلة الحكي ملتصقين بمقعدهما في فناء الفندق لا يبارحانه إلا لقضاء حاجة ماسة في الحمَّام أولتحضيرِ كؤوس الشاي أو القهوة. كانا سعيدين بماسمعاه... هما اللذان ينتميان إلى جيل آخَرَ لم يعش ما عاشه جيل الجيلالي، ولم يكابد ما كابده... وكانا يحسان في كيانهما العميق بكلمات الحكي دافئة جارفة كأنها تزيح ماتراكم من عتمة على جزء هام من كيانهما الذاتي... كانا يشعران ـــ حسب قولهما ـــ بلذة غامرة، وبتحرر من قيود الذات وإكراهات الواقع... وفي كل مرة كانا يرمقان الأعور بنظرات ماكرة تحاول سَبْرَ وَقْعِ ما كنتُ أحكيه على نفسِه. كان يبدو مستسلماً ضائعاً عاجزاً عن المقاومة والمعارضة. يتهرَّبُ من نظراتِهما القاسية بمطاردة الذباب بالمنشة أحيانا، وبِتَفَرُّسِ الصورةَ الملونةَ الثابتةَ على الجدار، صورةَ سيِّدِنا عليٍّ ورأسَ الغولِ أحياناً أخرى. فشعرا لأول مرة بالشفقة عليه. أما الجيلاليُّ فظل ردحاً من الوقت صامتاً في مكانه يسمع حيناً، فتتغيَّرُ ملامحُ وجهِهِ متأرجحَةً بين النورِ والديجورِ إلى أن نبا به المقام، فتسلل في هدوء من باب الفندق دون أن يشعر به أحد. لحظتئذ علقَ الشابُّ على ما سمع :

ـــ تعرفْتُ على الجيلالي في حلقة كان يعقدُها كل مساء في ساحة للاعودة، كنت صغيرا... أتابع دراستي في المدرسة الواقعة خلف باب منصور... وكانت حلقة الجيلالي مدرسة أخرى... مدرسةً لي ولأبناء جيلي تُكَمِّلُ ما كنا نتلقاه من معارف في المدرسة الرسمية... كبرنا في حلقة الأستاذ... هكذا اصطلحنا على تسميته... واكتمل وعيُنا وتشكَّل وجدانُنا وإحساسُنا العميق بالعالَم على

يده... وإذا كنت قد اخترتُ شعبة الفلسفة بعد نجاحي في الباكالوريا فلأنني تعلمت على يديه لذة السؤال وجرأة النقد واحترام رأي الآخرين... لم نكن نكتفي بسماع روايات الجيلالي ودروسه بل كنا نحاوره ونناقشه فيمتد بنا النقاش إلى ارتياد فضاءات بِكْرٍ تقع خلف خطوط حمراء لا يتجاوزها إلا ذوو النفوسِ القويّة المصممة على ارتياد المخاطر والأهوال. وعندما أكملت تعليمي بحصولي على أعلى الشهادات الجامعية ولم أجد عملاً لا في الدولة ولا في القطاع الخاص، نصحني بأن نؤسس ـــ زملائي وأنا ـــ جمعية للمعطلين. كان يبكي وهو يراني كل صباح أدفع أمامي عربة خضر أطوف بها على الأحياء الشعبية بحثا عن لقمة العيش... يربت على كتفي مآزرا مواسيا مشجعا كما لو كان أبي. ويهتف من بين أسنانه مستلهما هيجل: ها أنتَ ذا ترى أن كل ماهو واقعي ليس عقليا...!! كان يرى فينا نحن حاملي الشهادات ذاته... كان يقول لنا بأنه عاش حياته مهمشا في عهد الاستقلال وها أنتم تعيشون مهمشين في عصر الكفاح من أجل الديمقراطية...

هو الذي حذرنا من تهافت الكبار على السلطة والمال، حذرنا من نفاقهم ومزايداتهم في السياسة والثقافة واللغة، حذرنا من صراعاتهم العقيمة باسم شعبٍ لا يدري عَلامَ يتصارعون ويقتتلون!! كلٌ يلغو بلغوه، واللغوُ واحدٌ لا يسمن ولا يغني من جوع لهذا الوطن، وأولاد عبدالواحد واحد.!!. كل يصارع أخاه من أجل كرسي الجاه والنفوذ حتى أصبح الكرسي غاية في حد ذاته، صنما معبودا تُراقُ عليه دماءُ الأبرياء، والشعبُ غارقٌ في الأمية والمرض والفقر والخرافة... كان الجيلالي يصيح أحيانا منفسا عن نفسِهِ كربَها: جيلنا استنفذ إمكانياته على العطاء لصالح هذا الوطن أو يكاد، وهاهو ذا يحتظر شيئا فشيئا بفعل الزمن وانقضاء الآجال، سنّةُ الحياة منذ أن كانت، ولن تجد لها تبديلا... هل بإمكان جيلي أن يعيش الدهر كلّه؟! لقد أصبحتُ منذ الآن أعيش في عالم ليس عالمي، وأظن أن أبناء جيلي يحسون الإحساس ذاته... لقد حلمنا وكافحنا، فرحنا وتألمنا، نجحنا وفشلنا، أصبنا وأخطأنا، وانتهى بنا المطاف إلى طرد الاستعمار من ديارنا وإعادة تأسيس دولتنا، حتى ولو كان كل ما قمنا

به يحتاج إلى المزيد من التعزيز والتقويم والاصلاح والمراجعة.!! والآن جاء دوركم!! نحن جيل الاستقلال، جيل القرن العشرين الذي كادت شمسه تغرب، وأنتم جيل الديمقراطية، جيل القرن الواحد والعشرين الذي بدأت تباشير شموسه تشرق... وثقوا بي إذا قلت لكم بأن الديمقراطية معركة أشرس من معركة الاستقلال. فإذا كان الاستقلال ــــ في جوهره ــــ معركة ضد الآخر، فإن الديمقراطية ــــ في جوهرها ــــ معركة ضد الذات. والمعركة مع الذات أشد صعوبة... تحتاج إلى نَفَسٍ اقوى وتصميم أكبر ووعي اشمل وتسامح لا ضفاف له. الأمل معقود عليكم ــــ أنتم أبناء هذا الجيل الجديد ــــ أن تستفيدوا من تجربتنا وتكملوا المسيرة بشرف واقتدار...

فقالت فاطمة مقاطعة:

ــــ سمعتَ ذلك منه مرارا... وكلما سمعته يتحدث في هذا الموضوع كلما أحسستُ بأنه يترك لنا وصيته الأخيرة... إنني أشعر بالرعب لمجرد التفكير بأنه سيموت يوما... مع أنني أعلمُ أننا جميعا ميتون... اليومَ أو غدا...

ــــ رأيتُه قبل غيابه الأخير، يهمس في أذنكِ كلاما ما...

ــــ سرٌّ لن أبوح به ما حييت... سترى أثرَهُ في سلوكي... لكنكَ لن تسمعَهُ من فمي أبدا...

ــــ هو الذي أنقذك من سوق النخاسة... وقال لك مصير المغرب يتحدد بمصير الصراع بين أنصار حرية المرأة وخصومها... وعرّفني بكِ حتى أصبحت شريكة لي في كل شيء...

ــــ هو الذي فتح باب الأمل أمامنا مُشْرَعاً رغم هامشيته وفقرِه المادي.

فقلتُ لهما متنهدا :

ــــ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!! الملفُّ شديدُ التعقيد... ويحتاجُ إلى وقت طويل وتضحياتٍ جسام وصبرٍ وكدٍّ وحوارٍ متواصلٍ وعقودٍ وتنازلاتٍ متبادلةٍ وفهمٍ مطابقٍ للذاتِ والآخر. لكنَّ رحلة الألْفِ مَيْلٍ تبتدئُ بخطوةٍ واحدة...

ضميمة

آخر ما وجدته مكتوبا في الجرائد الوطنية
عن أخبار الجيلالي بن الطيب

_ 29 _

قال الراوي :

بعد انصرام أسبوعين على جلسة الفندق، اطلعتُ بالصدفة على نصين كان احد الكتَّاب قد نشرهما عن آخر أيام الجيلالي بن الطيب في جريدة أنوال... وقد ارتأيت أن أضمهما الى هذه الرواية تعميما للفائدة...

النص 1 :

السّماءُ صافيةٌ زرقاء... وساحةُ «للاعودة» فسيحة الأرجاء، تمتد مستطيلةً من باب منصور وحبس قارة وباعة الصوف، لتنتهيَ هناك عند المحكمة ودكاكين الكتابة وعصيرالموز واللوز والحريرة والخضر وعربات الحلويات والزريعة ولماعي الأحذية وباعة النقانق.

في وسط الساحة، كان بعض الأطفال يلعبون كرة القدم ، تتعالى صراخاتهم وتتداخل في صخب عنيف... وفي أطراف الساحة وجنباتها توجد مقاعد من الإسمنت تظللها أشجار كثيفة الأوراق... وتحيط بالكل أسوار شامخة سامقة ذات لون يميل إلى البني ،تتخللها حفر وكوى عميقة تعايشت في عتمتها منذ قرون خلت أسراب الحمام وجحافل الثعابين والحيات والخطاطيف السوداء.

الثالثة بعد الزوال... لغطٌ، ونداءاتٌ، وقهقهاتٌ، وسبٌ وشتمٌ، وزفيرُ الطاكسياتِ، ونهيقُ الحمير، ودخانُ النقانق... الساحةُ حيّةٌ بالناس الغادين والرائحين، الواقفين والجالسين، النائمين تحت ظلال الأشجار... والأطفالُ في وسط الساحة لا يزالون يقذفون الكرة يمنةً ويسرةً صائحين في ظفر:

ــــ شوت!! شوت!!...

و« الجيلالي » يراقبُ ما يجري في الساحة بعيون مندهشة كأنها ترى الساحة لأول مرة...

ـــ امشيو تلعبوا بعيدا!! امشيو!!... صاح الجيلالي في وجه الأطفال وقد ارتطمت الكرة بظهره فجأة، ملوحاً بيديه مهدداً متوعدا...

ـــ ومالك ما تمشي انت، ياعجوز النحس، ياسلوفي الخلا؟!! اجاب الطفل صاحب الندب العميق الغائر في الخد الأيسر...

ـــ آالجيلالي! آالجيلالي!...

صاح الأطفال مكونين كورسا أشبه ما يكون بكورس المأساة لدى الإغريق القدامى. ترك الأطفال كرتهم تستريح قليلا من القذف، وارتموا على الجيلالي الذي نهض من مقعد الإسمنت هاربا مرعبا.. هو يعرفهم جيدا، يعرف شرهم منذ ان زحف الإسمنتُ المسلحُ على الساحة مدمرا حلقات الحكي... مدمراً حلقته التي هجرها الناسُ إلى التلفاز الملون والبارابول... تعود على حماقاتهم الكبيرة والصغيرة... تعود على الضرب والشتم والسخرية... هو يكرههم ويكره الإسمنت، ويحب الساحة. ساحة للاعودة صارت منذ مدة طويلة جزءا منه، جزءا من جسمه الكهل، شريانا رئيسياً موصولاً بالقلب مباشرة، لا ينبض إلا بنسغه المتجدد تجدد الأيام والليالي.. للاعودة! ياساحرة الصبايا الآتيات من غبش الفجر على صهوة جياد الجنة، أيتها السمراءُ الساحرةُ ذات الألغاز والطلاسيم التي لا يفهمها أحد، كحَّلتُ عيني بكِ، شربتُ ريقكِ ومدامكِ... كان خيطٌ من الدم ينبجس من رأسه سائلا على جبهته فأنفه... والأطفالُ يرشقونه بالحجارة بشراسة متزايدة، مبتهجين برؤية دمه النازف كدم ثور« الكوريدا » في إحدى ساحات مصارعة الثيران الإسبانية... لمس بكفه خيط الدم... تلطخ الكف... توقف عن الجري... لحس بلسانه ما علق بالكف من دم... ابتسم ولعق الدم... ضحك ولعق الدم... قهقه ولعق الدم... تعالت قهقهاته وشرب الدم...

... توقف الأطفال عن الجري والصراخ والرشق والسخرية... تسمروا مندهشين خائفين وجلين... تركوا الكرة... تركوا الجيلالي... تركوا الساحة... وولوا الأدبار هاربين...

ـــ مسكين يشرب دمه... قال أحد المارة...

ـــ لم يجد ما يشربه إلا دمه؟!... قال الآخر متعجبا...

ياله من أحمق اترك ماء السـقاية صافيا رقراقا بالقرب منه ليشرب من دمه... إنه أحمق معتوه، لا ريب في ذلك... قال الثالث متفلسفا...

« وانا الجيلالي بن الطيب... خادمك للاعودة... طالب الوصال... ها بخور الجاوي المكاوي، ها حصالبان... ».

قال الراوي:

كان الدف يهدر في كفه مزهوا منذ أربعين سنة، ذا سلطة على قلوب الناس واكفهم وجيوبهم معا... يتجمع حوله الناس، يهرولون، تكبر آذانهم وتميل نحوه كالأبواق، تسبق أنغامه وأزجاله وحكاياته عن الإنس والجن، والرسل والأنبياء، والحمال والصبايا، والروض العاطر، وسيدنا علي ورأس الغول، والعنترية والأزلية... تكبر الساحة وتكبر وتتسع، وتكبر « الگارة » وتتسع... « واللي وسع الكارة يوسعها الله عليه »... وكلما اكبرت الگارة، واشتدت سلطة الحكي، وتوقدت المخيلة لدى رواد الساحة، كلما انتفخت شكارته الجلدية بقطع النقود من مختلف الأحجام والألوان والفئات... يفتتح الحلقة صباحا ولا تنفض إلا بعد غروب الشمس حتى صارت الحلقة آنئذ مدرسة للشفوي مشرعة على الناس من مختلف الأعمار والأجناس إلى جانب مدرسة المكتوب بالمسجد الجامع... فلا غرو أن يصير الجيلالي بعدئذ مرجعا للأقوال المأثورة، والحكم السائرة، والأمثال السامية، والثقافة الرفيعة... تتناقل اسمه الشفاه... وتضرب إليه الرحال... لم يتزوج الجيلالي بعد طامو قط... ولم تبارح خياله تفاصيل جسد سوزان ولا عطوره المجلوبة من عيون الخلد وأنهارالجنة. عاقر الخمرة، وعاشر الصبايا الحسان المقبلات على ساحة للاعودة من أدغال الأطلس المنيف... كان يضاجعهن في الساحة تحت السور، في العراء الأبدي حيث يتسلل الندى من بين خيوط العتمة ليسقط فوق الأجساد العارية، كان الجيلالي ينفق في الليل ما يجمعه في النهار من حلقة للاعودة... الدنيا رائحة زائلة، سراب ووهم، متعة لا تطيب إلا لمن

أسرع باغتنامها... هذا ما تعلمه الجيلالي من ألف ليلة وليلة... حكمة الأولين... ونبراس اللاحقين... ولم يعلم الجيلالي ـــ إلا متأخرا ـــ أن للاعودة امرأة حقود حسود لا ترحم عندما تغار أو تنتقم...

كان المذياع يغني ويحكي في جيب أحد الشبان المارين في الساحة مشدوها أمام منظر الجيلالي الملفوف في جلبابه الكباردي الأزرق المبرقع ببقع الزيت والطين وروث البهائم، حافي القدمين، أشعث الشعر... وفي مقهى الاقتصاد المطل على باب منصور، كان بعض الناس مسمرين في مقاعدهم أمام التلفزيون بالألوان يتابعون مباراة في كرة القدم...

ـــ وأنا الجيلالي بن الطيب... خادمك للاعودة... فجودي بالوصال... وفكي سراحي... ها الجاوي المكاوي... ها مهجتي ودمي...

كان الجيلالي أمام باب منصور العلج، في ساحة للاعودة، أمام حبس قارة، وأمام المحكمة، وباعة الصوف والنقانق والحريرة،يلعق دمه النازف من رأسه، دمه السائل على جبهته الغبراء، وأنفه الطويل...

النص 2 :

يمتد صوتُكِ الغجريُّ للاعودة عبر المسافات الغسقية للانهاية، مخترقاً أقواس باب منصور، ضوءاً دهرياً، جواداً أصهبَ يُسابِقُ ظلّهُ والريحَ والقدر، في هذا الليلِ المضمّخ بعطورِ الجنازاتِ، وروائحِ التّحنيطِ الكبريتيّةِ الأبديّة.

أيّتُها الصّبيّةُ المكناسيّةُ المراكشيّةُ الأطلسيّة، لا يَهُمُّ... حُبي لكِ أكبرَ من كل حد، يُحيطُ بالبحرِ والسّماءِ والمدى، يتماهى بالمطلقِ، ينزلُ بي أدراجَ الكونِ، يغمسُني ريشةَ حمامَةٍ بَرّيّةٍ في عُرْسِ ألوانِ قُزَح، يمنحني الصبرَ،ينشرني شراعاً، سجفاً حريرياً أخضرَ على أبراج مكناسة المرصعة بالنجوم والأقمارِ وعروشِ اللبلابِ وجذورِ التّينِ البري...

في وشمِكِ الأزرقِ الوحشيّ عصرتُ دمي، وبين خطوطِه المغروسةِ عميقاً في جلدِ بشرتِكِ السمراء دفنتُ حلمي... صوتُكِ فجرٌ مشْرَعٌ على بوابةِ الرؤيا، وتأويلِ الأحاديثِ والصورِ البكر، رزنامةُ شفراتٍ للأشياءِ المستحيلةِ والعاديّة،

قبَسٌ من نارِ بروميثيوس المسروقةِ في إحدى الليالي المقدسة، ونافورةٌ تتغذى من نسغ جذورالأشجارِ والياسمينِ والنيلوفر وحرقةِ الأسرار في الأفئدة الكابيّة الراعفة، صوتُكِ الهوميريُّ المحفوفِ بصلواتِ الرباب وابتهالاتِ الكمنجةِ الملتاعة... صوتُكِ السحريُّ، الشهرزاديِ، المتحالفِ مع الموتِ السرمديِّ ذي الأصابعِ المشتعلةِ بنيرانٍ زرقاءَ لا تنطفئ أبدا، صوتُكَ يَستقِرُّ هنا في القلب.

لبَيْكِ للاعودة، أيَّتُها الواقفةُ في عِزِّ هذا الليل، فوق الأسوارِ الدهريّةِ النبْتيّة، يجللها عُرْيُها الأزليُّ، تغسلُ جسَدَها الأسمرَ الفضيَّ بضياءِ المجرّاتِ ودفءِ الخطاطيفِ والحمائمِ السمراءِ الوديعةِ الآبقة... لبّيكِ للاعودة... مريدُكِ وراوي حكَيكِ وحافظُ اسمِك ورسمِك... فلتنطلقِ الحكاية...

قال الراوي :

قالت للاعودة: منذ انْ شقَّ الجيلاليُّ بن الطيب جلبابَه الكبارديَّ الأزرق، هائماً على وجهِه، مهاجراً في دياجيرِ الزمنِ وأحراشِ الذاكرة، مختفياً عن الأنظارِ والأفكارِ والأرصادِ المحليّة والمستوردة، وساكنةُ مكناسة الزيتون في حيرةٍ من أمرهم، مشغولين آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ بأخبار الجيلالي بن الطيب، يسهرون ويتخاصمون، ويتهامسون ويجهرون بأخباره وأسراره، يتبادلون الخطب، ويشربون النخب، ويعلنون الحداد !

من فوق مصطبة حجرية مرتفعة على يسار باب منصور، محاذية لرواق الفنون التشكيلية ولحائك الطواقي الملونة بألوان قوس قزح، نادى المنادي بصوت عال انتفخت له عروق عنقه الطويل الشبيه بعنق فروج أحمر لا ريش فيه...

«أيها الناس... الله يسمعكم خيراً... مات الجيلالي بن الطيب!».

كان صوت المنادي رخيما رخامة صوت «با جدوب» أو «وديع الصافي». وكان يتفنن في ترخيمه وتزويقه. وكان الناس يتقاطرون عليه من «المارشي» و«الروامزيين» و«للاعودة» و«قبة السوق»... يتركون دكاكينهم و«كروساتهم» وصناديقهم وسلالهم ودورهم... يهرعون مهرولين وراكضين...

ــــ مات الجيلالي بن الطيب!؟ أحقا مات؟! مات... مات... هلموا للفرح...!
قال أحدهم وهو يضرب كفا بكف غاضبا حانقا...

اشتبك الرجلان في عراك عنيف لم ينتهيا منه إلا بعد أن أدمى كل واحد وجه الآخر...

ــــ كيف مات ؟

ــــ وجد مشنوقا .

ــــ مشنوقا!؟ ياللهول ياللفاجعة...

ــــ نحن الذين دفعناه إلى المشنقة عندما دفناه حيا في لحد من الثلج...

ــــأخرجناه من ذاكرتنا وهمنا على وجوهنا نتنافس من أجل الجاه والمال والنفوذ، ونحن نزحف على بطوننا في اتجاه غاية لسنا نحن الذين حددناها لأنفسنا، ونجهل عنها كل شئ..

ــــ عجبا... أوَ لا يحيا الأبناء إلا بقتل آبائهم؟!!

ــــ مشنوقا... قلت؟!. ياللهول! يا للفجيعة!!

كان الشاب ذو القميص الكاكي يرمق ما يجري في ساحة الهديم بعيون زائغة مبلبلة. كل شئ كان عاديا هادئا منطقيا ينساب في رتابة مألوفة مضنية. وها كل شئ أصبح عاديا هادئا منطقيا ينساب في رتابة مألوفة مضنية. وها كل شئ أصبح ــــ فجأة ــــ منفجرا متمردا على المألوف والعادي، متدحرجا ككرات ثلج قطبية على سفح المستحيل واللامنطق... رجة قدرية سرية ملغزة تفوح برائحة الزغب المحروق على نار فحمية متوحشة... كف مخططة بحناء فريد بلكاهية ساحرة بالإثم، لا تغسلها أنهار عدن، ولا عطور جزيرة العرب... في مثل هذا الزمن الكبريتي، زمن الانهيارات الصغرى والكبرى ،زمن الحرائق والفواجع والمفاجآت، يحلو لمثل الطفل «سالفادور دالي» أن يصور للمرة الألف زرافته المشتعلة، وساعة الجيب الفضية المتمددة بحرارة الحدث وهي تهترئ ليخرج من ثقوبها نمل قدّ من زغب الليل... لأمر ما أخرج الشاب ذو القميص الكاكي ساعته من جيبه متأملا... أو ليست ساعاتنا الآن إلا نسخا متعددة

الأشكال والألوان والأحجام من ساعة ذلك الطفل السماوي المسمى «سالفادور دالي»؟!. كان الشاب يحاول الفهم، يحاول منطقة اللامنطق، ويركض فوق رمال متقدة كالجمر للقبض علي الخيط الناظم للأحداث والأشياء، المميز للأبيض من الأسود... كان ينحت مفاهيمه كل يوم، ويقتلع كلماته المنغرسة كالشص في جلده من جلده... منذ قرن ونيف وهو يقتلع الجلد فلا تقتلع الكلمات، وتنغرس المفاهيم المسنونة في شرايينه والغة من دمه كامرأة يزوبعها الشطح الحمدوشي تستف دم العنزة السوداء من فتحة صغيرة أحدثتها بأظافرها الزرقاء المسنونة في وريد العنق وأعلى البطن.

في هذه اللحظة بالذات أدرك الشاب هول الكارثة... واستشعر حاجة جامحة كالموج لحضور الجيلالي بن الطيب مرة أخرى من دائرة الغياب عله ينثر بعض حبات الضوء في المعتم والحالك والملغز... عله يشعل فوانيسه اللؤلئية في ردهات المغارات السفلى للكائن... عله يشق للخليقة المعذبة في بلاد العرب والإسلام، في زمن الأعاصير الفولاذية، طريقا البحر... ألم يقل الجيلالي بن الطيب للناس في ساحة للاعودة، منذ البعث الأول: أرضكم خير، فيها الفوسفات والحديد والبترول وغابات السواعد... تستطيعون بناء الجنة، وتفجير أودية الحليب والعسل والعطور، وتعمير الكواكب القصية الوردية، لو امتلكتم منطق العصر، منطق اوروبا العالمة الفاضلة/المتغطرسة الفاجرة الماكرة... ازدحمت في رأسه أصوات الجيلالي بن الطيب، منفجرة كالشهب الاصطناعية في ليل المخيلة... استشعر الصهد يعتصر مسام جلده، وتيقن من خلال ألم الملح الأبيض المنغرس في مقلتيه، أن الجيلالي بن الطيب لم يمت، ولن يموت أبدا...

غصت ساحة الهديم بالناس من مختلف الاعمار والاجناس، فضاقت بهم الأرض على رحابتها، ولم تجد متنفسا إلا في الطريق المؤدية إلى الشيخ الكامل عبر قبة السوق، أو في الطريق المؤدية الى الروامزيين يمينا وبني محمد شمالا، وفوق رؤوس الناس كانت سحابات قاتمة من الدخان والغبار تتهادى على أكتاف ريح غريبة تضخها مجامرالنقانق المشوية على نار متقدة، وسنابك الخيل البربرية الآتية

من عمق أدغال الأطلس المحشوة بالأسرار...أعلام ورايات تعلوها قباب نحاسية متوهجة في ضوء الشمس... نواح الغيطة الشكلي... ودمدمة أكوال الجاثم بوقار ـــ منذ أزمنة ممسوحة ـــ بين الجيد والساعد: الله دايم...! الله دايم...! أصوات الوفية تتعالى في هذا الفضاء الأسطوري. وثمة نور ينبجس وهاجا من بوابات باب منصور العلج ليتساقط كدراهم من ذهب وفضة على رؤوس الناس ونحورهم، وفي وهجه كان صف من «كرابة» المتسربلين بجلد الماعز الأسود يمتد عميقا في أحشاء الزحمة، ترن أجراسهم بجلال رهيب رهبة أجراس الكنائس في يوم الحداد والموت...

في هذا المناخ الطقوسي شق رجل طويل أبيض الوجه والشعر طريقه في الزحام إلى أن اعتلى المصطبة معانقا المنادي بحميمية حقيقية... صفق الحاضرون بحرارة... زغردت النساء،نزل المنادي تاركا مكانه للرجل الذي أخرج من قفته دفه الموشى بنجوم من الحناء، دفه الراعف الزاهي المغسول بضوء القمر والشمع الأحمر...

نقر الحاكي دفه نقرا خفيفا، وهو يرمق الأفق المدرج بدم المغيب بعينين مشرعتين على فنتازيا الحلم وصمت الكآبة وكنوز الذاكرة المحشوة بصور الماضي الباهتة وعنف الحاضر والآتي...

ـــ كان ياما كان... بجاه النبي العدنان... افتتح الحاكي روايته مرافقا أقواله بنقرات دفه، إلا أن بعضهم قاطعه بقسوة وجرأة كبيرتين:

ـــ اتركنا من هذا الهراء، وحدثنا بالمفيد، كيف مات الجيلالي بن الطيب؟!!

فأجاب الحاكي متنهدا:

ـــ كان رأسه متدليا في الهواء كالبطيخة، أطرافه مرتخية مسبلة مياسة كغصون دالية يابسة... مشنوقا... بطرف من جلبابه الكباردي الأزرق... معلقا في أعلى عمود للهاتف... تتقاذف جسمه الرياح يمنة ويسرة... وكانت خطاطيف للاعودة تنقرعينيه الجاحظتين الداميتين... ونزل الحاكي مصفر الوجه، يبلل وجهه العرق، شاقا طريقه وسط هذا الموج البشري الهادر كمن يهرب

من صاعقة ساحقة ماحقة. كثر القيل والقال وتنوعت التأويلات والاجتهادات وتنوعت...

ــــــرحمه الله...

قال أحدهم وهو يحتسي فنجان قهوته في مقهى «الاقتصاد» بشراهة وعصبية...

ـــ رحمه الله... كان وليا من أولياء الله الصالحين... عالما بالضمياطي وبحساب الغيب والمكتاب». وقال آخر وهو يقلب صفحات جريدته بنرفزة بالغة: «رحمه الله فقد كان وطنيا غيورا... وأحد مفكري وروائيي وسياسيي هذا البلد... اصطلحت في شخصه الأصالة بالمعاصرة... والليبرالية وبالاشتراكية... ولو كانت هذه البلدة تعترف بفضل رجالاتها لنصبت له تمثالا تذكاريا أمام باب منصور»!!

وقال آخر وهو يمسح بكفه اليمنى لحيته السوداء مستنكرا بدع هذا الزمن وأهله:

ـــ رحمه الله... لقد كان من كبار المتقين... كان يحفظ القرآن والأوراد والأذكار... لم يتعامل بالربا قط... وقاوم فتنة بنات الروم، وبلا في ذلك بلاء حسنا...

وقال آخر وهو يلقي بجثمانه الضخم، وكرشه المهترئة عن الكرسي طالبا من الصبي ذي الوجه المعفر الأغبر تلميع حذائه:

ـــ إنها فاجعة حقيقية... مأساة... مهزلة... خسارة لا تقدر بثمن... والبقية في حياتكم...

وأجهش بالبكاء كطفل نهرته امه بعد طول تدليل...

كانت مقهى الاقتصاد غاصة بالناس، جدرانها متسخة قديمة مطلية بالأزرق الداكن، يرصعها براز الذباب وأبخرة السجائر والشاي المنعنع وأنواع الطبيخ البلدي.

في وسط المقهى، كانت فاطمة بنت حميدا، منفوشة الشعر، دامية الخدين، تنزف مآقيها المحاطة بهالات زرقاء دموعا مستعارة من بحيرات آسنة بجهنم. كانت

ضائعة في بحر شاسع لا نهائي لم تكن تشعر بدمها المتقطر من خديها... ولم تكن تدرك أن قميصها الأسود الساتان قد تمزق في الزحام منفرجا عن نهدين نزقين يتحديان المطلق واللامحدود...

كانت ضائعة تماما... شاردة في الضباب والعذاب... تحمل صليبها المضرج بالإثم والدم والفجيعة منغرسا في جلدها الأسمر إلى الأبد...

ولما كانت المقهى تطل على باب منصور قرب محطة الأوطوبيس حيث كان بعض الناس قد نصبوا خيامهم منذ الصباح لانتظار الحافلة، فإن الدنيا اسودت هرجا ومرجا، فضاقت المقهى بالناس المهرولين إليها من كل حدب وصوب يحذوهم الشوق لمعرفة ما جرى ويجري، تدافعوا بالمناكب، تعددوا وتوحدوا، تعالت همهماتهم، وتفصد العرق من مسام جلدهم، تسابوا وتراحموا وتشاربوا ماء القرب بالقطران على رنين أجراس « كراب » بجلوده الماعزية الممهورة بعشق الأساطير وحشرجات العبيد في ليالي افريقيا الراعفة.

صاح الرجل السمين منتحبا: « رحمه الله... والبقية في حياتكم ». مسح أنفه الأفطس بمنديله الأبيض، ومسح عينيه السابحتين كهرتين في بقع ماء بعد ليل ممطر كئيب، وصاح النادل متباكيا، ضاربا بكفه على فخذه، وقد تكسرت طاولة من جراء ازدحام الناس داخل المقهى وخارجها، واشتد بكاؤه وصياحه مكونا مع الرجل السمين كورسا ماتميا جنائزيا... وسرعان ما انضافت امرأة ملثمة بخمار أسود في الأربعين من عمرها إلى الكورس شاهقة زافرة، ممطرة، عاصفة، ناذبة...ثم سقطت مغميا عليها، يرتعد جسدها الشيطاني كما لو كانت ذيل افعى يتخبط في الدم... ماتم... عرس جنائزي... الكل هنا يبكي وينوح، الكل يضرب بكفه على فخده، يلطم خده، يشق ثيابه، يقضم أظافره، ياكل خشب الباب، والطبيخ البلدي من دجاج محمر وقضبان شواء بالبصل والمصران والشحم وكرشة بقر، دون أن يدري أي أحد ما يفعل...

سقط النادل على الأرض مغمى عليه، سقط الناس واحدا واحدا... اتت سيارة الوقاية المدنية ورجال الشرطة والدرك... تراءت طائرات مروحية كنحل بري على مشارف باب منصور... ماذا جرى؟ وماذا يجري؟ أخذ رجال الإسعاف والوقاية المدنية يبكون ويصيحون ويولولون، وأخذ طياروا الطائرة المروحية بدورهم ينوحون وينذبون...

وقفت السيارات وسط الطريق... وارتطمت الحافلة بجدار عتيق تداعى على «كروسة» لبيع الزريعة والعلك... وخرج الركاب منبهرين متسائلين: «ماذا جرى؟ وماذا يجري؟» ... تباكى الركاب وتناوحوا وولولوا ولطموا الخدود، وسقط بعضهم على الأسفلت مغشيا عليه...

قال الراوي :

مرت الساعات متدافعة كحبات سبحة من خشب الصندل .وكلما كان الزمن يمر، كانت ساحة الهديم تمتلئ بأجساد المغشي عليهم من مختلف الأعمار والمهن والأوساط الاجتماعية... ضاقت الساحة على سعتها، وانقطعت الطرق وقل الهواء وأصيب بعض الاطفال بالاختناق والتوت سحب من الخطاطيف السوداء في الهواء التواءات بهلوانية، ومر الجيلالي بن الطيب في ساحة الهديم آتيا من رواق بعيد منزو لا يهتم به أحد... وكان قد اعتكف في الرواق منذ مدة متأملا في ملكوت السماء والأرض كعادته في هذا الزمن...كان صدره عاريا إلا من شعيرات بيضاء مشتعلة وندوب عميقة غائرة موصولة بأخاديد الأرض وممرات السماء وكوات الأسوار السامقة الشامخة المتوجة بالسحاب الرمادي...

مر الجيلالي بن الطيب كطيف وردي زئبقي، لم يلتفت إليه أحد، كان يقهقه عاليا، رافعا قبضته إلى السماء، يقهقه عاليا، رافعا قبضته إلى السماء يقهقه وحيدا... يؤرقه الحلم... يقهقه ويغني وسط هذه المناحة الجماعية، هذه اللعبة الجنائزية، هذه المقبرة التي موتاها أحياؤها وأحياؤها موتاها...!

يفهقه من أعماقه، تؤرقه الرؤيا، تداعبه الذكرى، ويسكنه العشق والسنة النار... يلج أبواب منصور العلج، يتجاوزها، يتماهى بلالاعودة... ويغني للمدى المفتوح على السماء على الجبال على البحار:

بالحسن من مكناسة الزيتون	قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذي	يجري بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة	للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين أباطح	وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاهدا مهما ادعت	قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوه	فبكت عذاب مياهه بعيون
وكأنما هو بربري نافذ	في لوحه والتين والزيتون
حييت من بلد خصيب أرضه	مثوى أمان أو مناخ أمون
وضفت عليك من الآلاء عناية	تكسوك ثوبي أمنة وسكون

انتهى ما قصدنا نقله من نفاضة الجراب... وقال في ريحان الكتاب ونجمة المنتاب: مكناسة مدينة أصيلة، وشعب للمحاسن، وفصيلة فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، فجانبها مريع، وخيرها سريع، ووضعها له في فقه الفضائل تفريع... قال كاتبه سامحه الله، وجدت بطرة هذه الأبيات بيتين لبعض الأدباء بتاريخ 1125وهما:

لله درك لو رأيت زماننا	ما صح عذر الناظر المفتون
فسد الهوى وأتاح كل بلية	ومضرة بسلامة المخزون

نسأل الله اللطف»

من كتاب «الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون»

لابن غازي المكناسي ص 28.

مراجع الرواية :

Félix Nataf:L'Indépendance du Maroc (1950-1956);
Plon1975. (avant-propos du M.Abderrahim Bouabid).

ـــ عبدالكريم غلاب : تاريخ الحركة الوطنية،ج 2 ، مطبعة الرسالة، الرباط 1987 .

ـــ ابو القاسم بن احمد الحجري (أفوقاي) : ناصر الدين على القوم الكافرين. منشورات كلية الآداب. الدارالبيضاء1987 .

المحتويات

خطاطيف باب منصور

غاصتْ سوزان في همومها الصغيرة والكبيرة ... تتجرع وحدتها المرعبة... وضعت موسيقي راقصة في الفوتوغراف... غيرت ثيابها بثياب وردية فضفاضة من الحرير الملون وتناولت كؤوسا من الويسكي ، واحتضنت القنينة كما لو كانت تراقصها ، وتحولت القنينة في خضم دورات الرقص المحمومة إلى رجل ، وتحول الرجل إلى مورينو الروخو... حبيبها الأبدي... حبيبها رغم أنفه ، ورغم ماري ، وكلارا ، والأعور ، ونساء الضباط جميعا ، والعالم بقاراته الخمس ، والكون... ارقص حبيبي... ارقص!! صاحت سوزان بملء فيها متحدية قدرها... متحدية توجساتها وشكوكها الرهيبة... ارقص حبيبي... وضمت مورينو إلى خصرها وذابت فيه وذاب فيها...

... كان الجيلالي يصيح أحيانا منفسا عن نفسه كربها... هل بإمكان جيلي أن يعيش الدهر كله ؟! لقد أصبحت منذ الآن أعيش في عالم ليس عالمي ، وأظن أن أبناء جيلي يحسون الإحساس ذاته... نحن جيل الاستقلال ، جيل القرن العشرين الذي كادت شمسه تغرب ، وأنتم جيل الديمقراطية ، جيل القرن الواحد والعشرين الذي بدأت تباشير شموسه تشرق... وثقوا بي إذا قلت لكم بأن الديمقراطية معركة أشرس من معركة الاستقلال ، فإذا كان الاستقلال -في جوهره- معركة ضد الآخر ، فإن الديمقراطية -في جوهرها- معركة ضد الذات ، والمعركة مع الذات أشد صعوبة... تحتاج إلى نفس أقوى ، وتصميم أكبر ، ووعي أشمل ، وتسامح لا ضفاف له .

الأمل معقود عليكم -أنتم أبناء هذا الجيل الجديد- أن تستفيدوا ه
وتكملوا المسيرة بشرف واقتدار .



اللوحة للفنان : ماكس ارنست
العصفور ، البيض ، البحر والشمس - 1948

ISBN 9981-25-272-7
9 789981 252721